طرائف
و مواقف

الكتاب : طرائف ومواقف
المؤلف: سلوى يوسف أبو سيف

ISBN: 978-9933-622-37-4

/الطبعة الأولى /2019
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

سورية - دمشق - الحلبوني - بناء اتحاد الناشرين
سوريا - السويداء - مقابل المشفى الوطني
تلفاكس : 16211260(963+)

kiwan.publishing@gmail.com

kiwan_house@yahoo.com

www.facebook.com/ kiwanhouse

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أونقله بأي وسيلة من وسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية , بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من المؤلف

All rights reseved. No part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted by any means: electronic, mechaniai, photocopying, recording or otherwise, without the prior pormission, in wtiting, of the Writer.

قصص

طرائف ومواقف

سلوى يوسف أبوسيف

بطاقة شكر

اتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ وليد شعيب

والأستاذة ميّ عبد السلام لمراجعتهم نصوص الكتاب وتقديمهم

بعض الملاحظات الهامة إن كان من الناحية الفنية أو اللغوية

إهداء

إلى أولادي وأحفادي

ساندي، محمود، وجد، مشعل، مينا

ومن يأتي بعدهم

وإلى كل من شجعني على الكتابة

معركة الكفر ٢١ تموز...١٩٢٥

روى لي زوجي قصة معركة الكفر بشكلّ مفصّل ودقيق، حيث كان لجدّه المرحوم الشيخ عبدو مرشد وبعض من رجال الكفر في تلك الآونة رأيٌ سديدٌ بخصوص وجهة الفرسان لمهاجمة الحملة الفرنسية التي كانت متواجدة شمال الكفر عند مياه عين العلّيقة. هذا الرأي السديد جنّب الثوار كثيراً من الخسائر والشهداء وبدأت القصة هكذا :

بعد أن تجمّع الثوار في منطقة العيّن، وهي عين مياه معروفة تقع بين مدينة صلخد وقرية الكفر وهي الآن سدّ مياه ضخم أقيم في المكان نفسه ، بقيادة المغفور له سلطان باشا الأطرش ، جرت كالعادة مناقشة جدوى الهجوم على الحملة الفرنسية بقيادة الكابتن نورمان . منهم من وافق ومنهم من أشار بالتريّث قليلاً واشتدّ النقاش واحتدم. في هذه الأثناء ومع بزوغ الشمس ظهر من بعيد فارس كالشهاب يشقّ عنان السماء ويلفّه الغبار الذي أثارته حوافر الخيل وخلفه كوكبة من الفرسان الأشدّاء.

تقدّم باتّجاه الجموع وبعد قليل انقشعت الرؤية. إنّه الفارس المغوار شهاب غزالي يحمل بيرق بلدة ملح العتية . رحّب الثوار به وأعلموه بما دار من مشاورات بينهم حول كيفيّة الهجوم على الحملة الفرنسيّة بقيادة الكابتن نورمان. لكنّه لم ينتظر سماع المزيد بل استدار بفرسه وصاح بأعلى صوته: (هلّي بدّو يحارب فرنسا يلحقني عالكفر). لم ينه كلامه حتّى لحقت به الجموع كالبرق الخاطف صارخة بصوت واحد .(يالله عا الكفر) ! يسبقها حداء الخيّالة في قصيدة مطلعها :

يا راكب اللي لو مشت ما تندرك..

تحثّ حالها وماتحتاج تسوقها

موردها عرمان وعاجال البرك

خيالها سبع المجنزر فوقها

أغنية تتردّد كثيراً في المناسبات الشعبيّة.

قطع الفرسان المسافة بين الكفر والعيّن والتي تساوي ٧كم تقريباً في زمن قياسيّ بسبب حماسة وسرعة الثوّار، وعند مشارف قرية الكفر توقّفت الحملة قليلاً ، حيث أرسل القائد سلطان باشا على طريقة الفرسان النبلاء مجموعة من وجهاء القرية إلى الكابتن نورمان؛ لتحذيره ودعوته للرحيل مع حملته دون قتال. لكنّ نورمان استخفّ بالرسل و لم يستوِ عن سريره الذي كان مستلقياً عليه ولم ينظر إلى الوفد ، بل قام بعمل حركة بإصبعيه تدلّ على السخرية والاستخفاف بالوفد

المبعوث من قبل الباشا ، وقال كلاماً يتّسم بالعنجهيّة. عاد الوفد غاضباً ممّا رآه من استخفاف نورمان بهم ،وأبلغوا القائد وبقية الثوّار بما جرى.

لم يكن أحد منهم يحتاج إلى كلمة تَحُثّهُ على التقدم والقتال ، بل هجم الثوار جميعهم على ظهورالخيل يسابقون الريح معاً إلى الكفر بقيادة سلطان باشا الأطرش . وبعد أن وصلوا بدأت المعركة التي لم تستمرّ أكثر من ٤٥ دقيقة ، أبيدت على أثرها الحملة الفرنسيّة إلّا القلّة القليلة التى لاذت بالفرار. واستشهد عدد من الثوّار في مقدّمتهم الفارس شهاب غزالي ، كما أصيب إصابة بليغة البطل مصطفى الأطرش ، ونقل إلى بلدة «القريّا»، حيث توفّي في اليوم التالي.

لقد كانت معركة الكفر فاتحة للمواجهات الكبرى بين الوطنيّين السوريّين وقوّات الاحتلال، وكان نداء القائد سلطان الأطرش عشيّة الثورة الذي تضمّن شعار «الدين لله والوطن للجميع» حافزاً ملهماً للثوّار وعامّة الشعب في سوريا.

لنتعلم من الآباء والأجداد

ما نراه اليوم من جرائم ومجازر بحقّ الأحراج والأشجار ، ذكّرني بقصّة حقيقيّة حصلت هنا في قرية الكفر ، ولها على بساطتها مدلولات كثيرة أتركها لكم لتستشفّوها.

في منتصف القرن الماضي ، حيث كانت الأحراج كثيفة جدّاً ومليئة بأشجار السنديان والزعرور الأبيض والأحمر ، والبطم والملّول وغيرها من الأشجار الحراجيّة التي كانت تمتدّ إلى مساحات تبلغ أضعاف أضعاف ما نراه اليوم ، وكان عدد سكّان القرية لايتجاوز ألف نسمة؛ احتاج رجل من إحدى القرى البعيدة التي لايوجد فيها أشجار سنديان بعض الأخشاب لكي يصنع منها محراثاً ، فسأل أهل القرية في ذلك. قالوا له :اذهب إلى الكفر وسوف تحصل على ما تريد.

في اليوم التالي ركب الرجل حماره وتوجّه إلى قرية الكفر. وعندما وصل إلى مشارفها شاهد مجموعة من الرجال يعبرون الطريق ، فقال لهم:من أين الطريق إلى (الحرش ؟) أريد أن أقتطع بعض الحطب لصناعة محراث.

قالوا له : إيّاك أن تفعل ذلك قبل ان تطلب الإذن من سايس القرية.

توجّه الفلّاح إلى بيت سايس القرية الشيخ الطيّب الذكر أبي صالح حمد حديفة.

رحّب به الشيخ ترحيباً جميلاً وقدّم له الشاي الساخن. وقال له : ما طلبك ؟؟

قال الرجل :أريد أن أقتطع بعض الأخشاب لكي أصنع منها محراثاً.

قال الشيخ :دعني أستشير أهل قريتي أوّلاً ثمّ أعطيك الجواب. أنا لا أملك الحقّ في أن أعطيك الموافقة دون الرجوع إليهم.

أرسل الشيخ أبوصالح في طلب مجموعة من وجهاء القرية. وبعد مشاورات وأخذ وردّ ، قالوا له:بإمكانك الذهاب إلى (الحرش) بشرط ألا تأخذ إلّا حاجتك فقط.

ركب الرجل حماره مع مجموعة من نواطير الحرش نزولًا عند رغبة رجال القرية، لكيلا تسوّل له نفسه أن يأخذ أكثر من حاجته من الأخشاب . اقتطع الرجل قدر حاجته فقط من الأغصان الخضراء كما وعد ، وشكر النواطير على مرافقتهم له وقفل راجعاً إلى قريته.

في تلك الليلة عندما جاء بعض من جيرانه لقضاء السهرة عنده ، حكى لهم ماجرى معه في قرية الكفر ، وأشاد بسايس القرية، ذلك الرجل التقيّ، وبأهل القرية ونواطير الحرش على تصرّفهم الحكيم واحترامهم للشجرة وتقديسهم للغابة.

صحن اللبن بالطاقة ، لاهو جمل ولا هو ناقة

في الصباح الباكر ذهبتُ إلى إحدى نساء القرية اللواتي يقمن بصنع اللبن والجبن وبيع الحليب في بيوتهن، كي أشتري رطلاً من اللبن كنت قد أوصيتها منذ يومين أن تهيئّه لي.

- (صباح الخير خالتي إمّ تركي ،شو جاهز رطل اللبن ؟) . قلت لها.

- (تفضّلي ، تفضّلي. معلوم ، جهّزته من مبارح .فوتي .فوتي جا. أتظلكش واقفي برّا).

كان ثمن رطل اللبن حينها ٥٠٠ ل.س والكلّ في القرية يعلم ذلك.

وضعت أمّ تركي رطل اللبن في كيس نايلون أسود سبق أن استعملتْه لحفظ الخضرة التي جلبَتْها من السيّارة.

- (قدّيش حقّ الرطل خالتي إمّ تركي ؟). قلت لها.

(خلّيها على حسابنا .مش محرزي الشغلة ياغالي).ردّت بكلّ دبلوماسيّة

(إنتي بتحرزي خالتي إمّ تركي..ما بتقصّري..لكن قولي لي قدّيش ثمن اللبن).

مالت برأسها يميناً وشمالًا وقالت: ١٠٠٠ل.س .بس.

قلت لها : (بس سعره ٥٠٠ ، وكل أهل البلد بيعرفوا هالشي) .

قالت وقد تغيّر لون وجهها وامتقع بالصفرة مستنكرة جرأتي ومساءلتى لها عن السعر :

(عبيقولوا بدهن يغلّوا سعر الغاز ومعشْ بتوفّي معنا حبيبتي) .

قلت لها : (ماقلناش شي ، بس إنتي عملتي اللبنات قبل ما يغلى الغاز ،وهذا حرام !) .

قطّبت حاجبيها وردّت غاضبة . (حبيبتي ، إذا مش معاجبك ، شقّللي بحواجبك. هاتي رطل اللبن لهون ، هاتي وعطينا مدور زنّارك !)*.

*) عطينا مدور زنارك: انصرفي

بوصطيف

بو صطيف رجل قلق. مرّة تراه يطلق لحيته حتّى تصل إلى صدره ويرسل شعره حتّى كتفيه ، ومرّة تراه حليق الرأس واللحية والشوارب. يركب سيّارة فخمة بملايين الليرات و(يشفّط) بها في طرقات المدينة ، ثم يفاجئنا بركوبه حماراً أطلسَ يخترق الغابة الصنوبريّة .

ينتعل جزمة عالية الساق مصنوعة من الجلد الطبيعيّ، غالية الثمن على طراز جزمة نابليون بونابرت في الليل، وفي الصباح الباكر يلبس (شالوخاً) ذا أشرطة تلتفّ على ساقيه على طراز أباطرة اليونان .

يلبس البدلة العسكريّة عند مغيب الشمس ، ويخلعها ليرتدي طقماً أمريكيّاً وكرافة حمراء على طراز ربطة عنق ترامب .

في الشتاء يخلو بنفسه في قصره الباذخ ، وفي الصيف ينصب خيمة شعر على طريقة البدو الرحّل ويلبس الجلباب. يرتشف القهوة المرّة المطبوخة على جمر الموقد ، ويعزف على الربابة لحناً بدويّاً رتيباً.

سبحان من مغيّر الأحوال

كان من المعيب على الفتاة أن تجلس مع خطيبها منفردة أو أن تكلّمه أو تنظر في عينيه مباشرة . وكانت تخجل أن تلفظ اسمه صريحاً، وكان عليها أن تبقى مسمّرة في الأرض حتّى يفكّ حصارها طلب من أمّها أو والدها ، كأن تصنع كأساً من الشاي للقادم الجديد. لذلك عندما كانت صديقات «زهر البان[١]» يسألنها :

(مين سهر عندكن الليلة يا « زهر البان » ؟)

كانت تردّ وهي مطرقة رأسها باتّجاه الأرض والعرق يتصبّب منها، خوفاً من أن تظهر ملامح السعادة على وجهها وتردّ قائلةً:

(هوّي)[٢]

(مين راح يساعد بيّك عالفلاحة يا «زهر البان»؟)..

(هوّي).

(مين هلّي كان مارق حدّ بيتكن مبارح يا «زهر البان» ؟) .

(هوّي).

(مين هوّي ،هوّي يازهر البان ؟) . تفترّ شفتاها عن ابتسامة مكتومة تكاد تفضح

---

١) زهر البان : اسم فتاة في جبل العرب

٢) (هوّي) : لفظة بالعامية تعني «هو» والمقصود هنا اسم خطيب زهر البان.

شغفها وتقول :

(غير قلّكن إنّو بستحي قلّكن مين هو .هوّي !).

بتكفيه هالنقزي !

أراد المرابع[1] « غضبان » أن ينتقم من وليّ نعمته الذي كان (يبهدله على الطالع والنازل). لكن كيف السبيل إلى ذلك «وغضبان» رجل فقير الحال والمال، ولايملك من هذه الدنيا شيئاً إلّا مايتكرّم به سيّده من بقايا طعامه وفتات خبزه، وبضع قروش قليلة لاتسدّ رمقه . لكنّ القهر والظلم كادا أن يمزّقا صدره، ولم يعد يستطيع التحمّل أكثر، قرّر الانتقام ولو كلّفه ذلك حياته .

في يوم من الأيام طلب السيّد من «غضبان» أن يسرج له حصانه، لأنّه كان على موعد مع لفيف من كبار القوم للذهاب إلى صيد الغزلان . كان الظلام الدامس مايزال يلفّ المكان .

قال « غضبان » : (حصانك جاهز ياملك الزمان)، وانحنى إلى الأرض تعبيراً عن تبجيله لسيّده . في هذه اللحظة انسلّ غضبان خلسة خارج القصر، واختبأ تحت حائط سيمرّ من جانبه سيّده المبجّل .

خرج السلطان العظيم من قلعته الحصينة وحيداً، متنمطقاً كامل عدّة الصيد البهيّة، وممتطياً حصانه القويّ الذي بدأ يرقص بحافريه الجميلين على الأرض

---

١) المرابع : شخص يخدم الإقطاعي أو الشيخ على مبدأ (خدمتك بلقمتك).

فرحا بتحرّره من سجن الحظيرة . وما إن خطا عدّة خطوات خارج الدار حتّى ظهر له شبحٌ مخيفٌ زعق بوجه السلطان: «...وااااع....واااااع...وع .»

جفل الحصان وارتعب وصهل ورفع قادمتيه إلى الأعلى بكلّ ما أوتي من قوّة، ممّا جعل السلطان يسقط أرضاً عن ظهره مرتجفاً ، ومرتعباً من ذلك العفريت الذي ظهر له، وتلبّسه من خلف الجدار.

هرب « غضبان » من خلف الجدار بأقصى سرعة عائداً إلى كوخه البائس وهو يردّد :

(رووح ! بتكفّيك هالنقزي يا ملك الزمان ، بتكفّيك هالنقزي !) .

نام تلك الليلة قرير العين لم ينم مثلها في حياته و(فتّخ تفنيخً)[1] حتى مطلع الفجر .

---

١) فتّخ تفنيخ : نام نوماً عميقاً

أنت لست أنت

ربّما أصابك الغرور

وظننت أنّك أنت

ما أنت إلّا

وسيطٌ

تنقل ما قرأتَه

وما شاهدته

وما سمعته أذناك

منذ ولدتك أمّك

وما استجمعته ذاكرتك

من أقوال الفلاسفة والحكماء

وما خطّته أقلام

الكتّاب والشعراء

وما كشفه العباقرة

والعلماء

من قوانين الطبيعة

والفيزياء

فكيف يصيبك الغرور وتقول

إنّك أنت

أنت ؟

وليمة

حضر «أبو الفضل» وليمة فاخرة عند أحد كبار القوم . كانت منسفاً مرجّماً بلحم الخاروف والكبّة المقليّة والمسلوقة ، ومزيّناً بـ (الهليلات) ، وبقرصٍ كبيرٍ يتوسّط المنسف مزخرفاً بنقوش عربيّة ، ومقفّر على الوجه بالسمن العربيّ والكثير من الملاحيّة ، ومحاط بعدّة أرغفة من خبز التنّور.

كانت رائحة الطعام الشهيّ الساخن تزكم الأنوف .

دعي أبو الفضل مع أول طورة (مجموعة تلتفّ حول المنسف) . وبدأ مع المعازيم بتناول الطعام الشهيّ . لم ينتبه أنّ الرجال من حوله قد أنهوا طعامهم بسرعة ، كما هي عادتهم أثناء حضور مثل هذه الولائم، وانفضّوا من حوله وهو مايزال مستغرقاً بتناول الطعام وبقي وحيداً على المنسف .

شعربالإحراج والخجل ونظرإلى من كان في المضافة وقال : (أتواخذونيييييش .... انطرى أني عبنعّم).

ردّ عليه» أبو مثقال» وقال :(يازلمي ! عبتنعّم والملاعق نازلي بحلقك مثل السحجي[1] شي طالع شي نازل ؟).

(١) السحجي : دبكة بدويّة سريعة جدّاً مع غناء (دحيو..دحيو.).مع استعمال كفوف اليدين ومن دون مرافقة أيّة آلة موسيقية..

نوم الهنا يامدلل

جاء موعد نوم حفيدي البالغ من العمر أقلّ من سنة ، كان مايزال يحبو ولم يبدأ بالمشي بعد ، وكان لدينا زوّار أعزّاء جاؤوا ليسهروا في بيت ابنتي. خجلت ابنتي من أن تترك الضيوف ، وتأخذ ابنها إلى سريره لكي ينام ، ولاحظتُ على وجهها الارتباك والإحراج . دقّني الحماس وقلت لها : (هاتي هالصبي ، معليكي). أنا لدي خبرة كبيرة في تنويم الرّضّع ، سوف ترين ، خلال خمس دقائق سيكون في سابع نومي. (هاتيه لهون..هاتي).

انفرجت أسارير ابنتي، وفرحت فرحاً شديداً، وقالت لي : (خذيه ، الله وإيدك، بتعملي معروف).

أخذت حفيدي الذي ازدادت نقنقته ، وفركه لعينيه ومنخاريه ، واشتدّ تثاؤبه وذبول عينيه . أخذته إلى غرفته المجاورة لغرفة الضيوف ، وبدأت أغنّي له أغاني النوم .(يالله ينام .يالله ينام ،لذبحلو طير الحمام . نام يامينا[1] لاتصدق ...) . ثمّ (هالصيصان تم. تم..شو حلوين. تم..تم..عم يدوروا حول أمّهن مبسوطين) . لكنّه لم ينم . قلت: سأغير له الأغنية . بدأت هكذا : (نااامي نااامي يابسيني. تنااامييي نشاالله بحضيني ، تمنضحك عامينا لينام) مع التلحين ، ولكني لم أكمل.

شعرت برغبة شديدة في النوم . صرت أتأتأ تأتأةً ، ولم أعد أفسّر الكلمات

١) مينا : اسم علم

وغلبني النعاس . بعد فترة لم أعرف بالضبط كم استمرّت؛ سمعت قهقهة شديدة وضحكات عالية تأتي من غرفة الضيوف . فطنت إلى حفيدي الذي كنت أغنّي له ، تلمّستْ يدي فرشته ، لم أجده . خفت خوفاً شديداً عليه . نهضت بسرعة وركضت إلى غرفة الضيوف ملهوفة وقلبي يخفق .

وضعت يديّ على مصراعي الباب، وقلت بصوت متهدّج : (دخلكن ، شفتولي مينا وين راح. إسّا كنت عبغنّيلو منشان ينام). وصرت أنقّل نظري في جنبات الغرفة بحثاً عنه .

زادت موجات الضحك والقهقهة . أجابت صديقتي والدموع تتساقط من عينيها لشدّة الضحك :

(يطعمك الحجّ والناس راجعة يختي سلوى . اسم الله عليكي .من تلاث ساعات رجع حفيدك دبدبي لعند إمّو، وإنتي رحتي بسابع نومي .نوم الهنا يا مدلّل . قال شو عندك خبرة كبيري بتنييم الأطفال وخلال خمس دقائق بيكون بسابع نومي...ههههه. أمّا نهفي !) . وأمضوا بقية السهرة عليَّ يتمسخرون ودهشتي ممّا حدث جعلتني كالمسطولين.

مطرح ماسرينا طلعلنا الضو

قالت أم الفضل لزوجها: (خلّيني أعملّك مَقْلَى كشك قبل ماتروح عالشام تطلّ على ابننا فضلو . الطريق بعيد ومابيقيت ع قلبك[1] غير الكشك) .

قال أبوالفضل : (بدي خلّي جوعتي للشام . إسّا كنّتي مرت فضلو بتكون طابختلي شي طبخة شاميّة من هلّي بيحبّها قلبك. شاكريّة ولاّ أبوات ولاّ كبّي شاميّة ولّا ورق عنب مع عصاعيص) .

أمّ الفضل : (وإنت قلت يابو فضلو. عمرو مايتّاكل الكشك على هالصبح).

بعد عدة ساعات وصل أبو الفضل إلى بيت ابنه في دمشق . رحبّوا به ، واستقبلوه استقبال الفاتحين. بعد قليل دخلت زوجة « فضلو» المطبخ وطالت غيبتها . أصبحت عصافير بطن عمّها تزقزق بشدة من الجوع .

دخلت الكنّة تحمل طبقا عليه طعام .

(فزّ بو الفضل من غير وعيو ليحمل الطبق عنها) .

كم كانت الصدمة الكبيرة . كان يتصدّر الطبق مقلى من الكشك المعرّم وحوله أربع من أرغفة الخبز الشامي المشروح الساخن

قالت الكنّة : (تفضّل ياعمّي تفضل. استنغصتلّك من مقلى هالكشك .تفضّل ، فش ّ شي من واجبك . ياميت هلا ومرحبا فيك. تشريف بدون تكليف)

بيقيت على قلبك : يجعلك تشعر بالشبع

ذكريات

عندما عينّت معلّمة خارج الملاك في إحدى المدارس الإعدادية خارج محافظة السويداء ، كان عمري لايتجاوز الثمانية عشر عاماً . توجّهت باتّجاه المدرسة والخوف يتملّكني من اقتحام هذه المهنة الشاقّة. عندما اقتربت من باب الإدارة وجدته مغلقاً ، ممّا حدا بي أن أنقر نقرتين خفيفتين على الباب وقلبي يدقّ ويدي ترتجف . كنت نحيفة لايتجاوز وزني الخمسين كغ ، وشعري مجدول بضفيرتين طويلتين تتهاديان على كتفيّ . لم أكن أضع أيّ نوع من الماكياج . لأنّ جدّتي كانت تردّد على مسامعي دوماً مقولة طبّقتها بحذافيرها طيلة حياتي : (هللي مابيرضاني بعماشي مابيرضاني بقماشي. وهللي الله مش مهيبو مش راح المكياج يهيبو. حرام ياستّي تغيّري شي بخلقة الله)..ومن هذا الكلام .

لذلك عندما اضطررت أن أفتح باب الإدارة بنفسي لعدم قيام أحدهم ليفتح لي الباب ، دخلت بكلّ هدوء وحذر، وقلت للجميع بصوت خجول منخفض: « صباح الخير « وتقدّمت خطوتين . لم يلتفت إليّ أحد أبداً . كان الأساتذة الكرام وكلّهم من الشباب يشربون الشاي الساخن ، يضحكون ويتبادلون النكات على مايبدو إذ كان وقت الفرصة والاستراحة.

لم يكن يوجد أيّة معلّمة بينهم ممّا زاد ارتباكي . كان المدير واقفاً وراء طاولته . طويل القامة جدّاً، عريض المنكبين ، حاسر الرأس ، أسود الشعر، أجعده . كان يشارك المعلّمين مرحهم، و هرجهم ومرجهم . لم يلحظ وجودي هو الآخر إلّا بعد أن انتهى من رشف الشاي.

عندما رآني ، وضع كأس الشاي الفارغة على الطاولة واتّجه نحوي . قطّب حاجبيه ، وعبس وجهه ثم تولّى، وقال ناهراً إيّاي :

(إنتي يابنت ...هييه...شو مفوّتك على الإدارة بدون ماتدقّي عالباب...يالله اطلعي لبرّا..بسرعة..وروحي على صفّك..معش تعيديها مرّة ثانية..أحسن ما أعملك عقوبي..يالله اطلعي لبرا ..اطلعي !)

احترت في أمري وتقدمت خطوة باتّجاهه، واستجمعت قواي ووقفت على أخمص قدميّ، ومططت رقبتي إلى الأعلى (على قد ما الله يعطيني) كي أستطيع رؤية عينيه ، لأنّ طوله يساوي طولي مرّتين وقلت له :

(ياحضرة الناظر ..أني جايي لمنّي إسألك عن حالة الطقس . قديش درجة الحرارة عندكن فوق ؟) وأشرت بإصبعي باتّجاه رأسه . ثم استدرت وغادرت الإدارة وتلك المدرسة إلى الأبد

تاركة حضرة الناظر وكل من كان في الإدارة مندهشين وفاغري الأفواه . لكنّهم لم ينبسوا ببنت شفة .

ذكريات

كان المرحوم والدي يرسلنا إلى المدرسة ونحن في سنّ الخامسة ، هذا يعني أنّني ذهبت إلى مدرسة الفتاة في السويداء وأنا في عمر الحادية عشرة . ولحياتنا في السويداء والمدرسة حكايا لاتنتهي، منها الخوف من (الرسدي) التي كانت تخبط باستمرار تحت غرفتنا، ومنها الضياع في المدينة وعدم معرفة مكان البيت، ومنها حمل المحزوم من حارة إلى حارة تحت جنح الظلام ،

ووقوعه عن ظهرينا أنا وأخي، وبعثرة الكتب والدفاتر والأقلام ودحرجتها في الطريق ، وإعادة البحث عنها ولملمتها من جديد ، سواء كان قرمة قلم أو قسمة محايّة صغيرة أو مسوّدة ، لأنّ كلّ شيء كان له قيمة كبيرة وليس مسموحاً لنا التفريط به أبداً. (الغرض هلّي بتضيّعوه منعدش نشتريلكن بدالو. دبّروا راسكن).

ومنها أيضا قيام السيّد كحتوت الذي استأجرنا عنده غرفة للسكن ، قيامه بالدخول إلى الغرفة من باب السرّ المؤدّي إلى مضافته، وإطفاء اللمبة الوحيدة الموجودة في الغرفة في أول الليل بحجّة التوفير، وعدم زيادة مصروف الكهرباء لديه ، مما يضطرّني لكتابة وظائفي وحفظ دروسي قبيل الفجر.

ومنها أيضا عندما اعتقدت نفسي شجاعةً جدّاً، وقلت لأهلي إنّني سوف أبقى وحيدة في السويداء للاستعداد للامتحان النهائيّ ،لأنّ في القرية عملاً كثيراً، ولا أستطيع الدراسة بين أفراد عائلتي الكبيرة . وفي إحدى الليالي الكانونيّة الرهيبة ..ثلج..رعد..برق..ريح عاتية ، بينما كنت نائمة بعد عناء الدراسة ، إذ بالنافذة

الخشبيّة المهترئة تهزّها الريح عدّة مرّات بقوّة ،وتفتح على مصراعيها ويدخل كلب مرتجف يعوي بحزن ليحتمي في غرفتي من شدّة الأمطار والبروق، ممّا أفقدني القدرة على النوم حتّى الصباح ،ولذت بالفرار إلى بيت صديقتي إنصاف محمود حمزة، ومن بعدها ذهبت إلى بيتي في الكفر .

وضحة بنت عجلان والثعبان

في يوم من الأيّام ، أرسلني أبي الذي كان كبير الرعاة والرعيان لكي أسرح بالغنم والماعز في سهل قريب جدّاً من بستان . كنت في العاشرة من عمري وليس لديّ خبرة بذلك المكان الذي كان في جواره بعض من الصخور الكبيرة وعين ماء سلسبيل وأشجار رمّان .

(كحشت) الغنمات والعنزات أمامي ودخلت جميعها المرعى، وبدأت تقضم العشب والخصاب وبقايا الزرع والحَب، وتسلّقت أنا شجرة السنديان المعمّرة وتمطيت على أحد أفرعها الكبيرة أدندن بصوتي الجميل وأغنّي : (وضحة ، يابنت البدوية يبيبي . كنت قشقش ، كنت بربص ، كنت جيب لإمّي ميبيبيه).

كانت نسيمات العصر العليلة تدغدغ وجهي وشعري وكلّ جسمي بلطف ونعومة باذخة . شعرت بالنعاس يتسلل إلى كياني . لم أدر كيف غفوت في هذا الجو الساحر ربّما للحظات عندما شعرت بشيء ناعم الملمس يتحرّك على ساقي اليمنى .

انحنيت قليلا نحو الأسفل وإذ بحنيش (ثعبان أسود غطس) أسود حالك يمشي على ساقي طوله حوالي المترين . تجمّد الدم في عروقي وجحظت عيناي وتوقفت عن الحركة كلّيّاً وأصبحت كخشبة في مهبّ الريح . طلبت من ربّي أن يميتني بسرعة ويخلّصني من هذا الرعب القاتل . أسلمت قدري لله وقطعت نفساً كاد أن يخرج من فمي ويجفل الثعبان فيلدغني .

بدأ الثعبان بالتلوّي على كلّ جسمي ووجهي ،ثمّ انسلّ بعيداً عني بقدرة قادر، ليسقط على الأرض تاركاً إيّاي في حالة من الخوف والرعب المميت..سقطت بعدها على الأرض مغشيّاً عليّ..ولم أستيقظ إلاّ في خيمة لأحد الرعيان القريبة من المكان. ومن بعدها حرّمت السراحة بالمقاطيع والخرفان خوفاً من هذا الحنيش (الثعبان) الذي مازال يلاحقني في اليقظة والمنام .

الوهم القاتل

كان يتردّد إلى بيتهم باستمرار بحكم صداقته المتينة مع أخيها ، ذلك الشاب ذو العينين الخضراوين والشعر الأجعد الذي كان يشبه أبطال الأساطير في عصور الإغريق والرومان . فتاة عشرينيّة بريئة لاتعرف من العالم إلّا ماعلّمتها إيّاه جدّتها وهي صغيرة من تعاليم الدين التي تفرض على الفتاة عدم التحدّث إلى الجنس الآخر مهما كانت الأسباب.

لم تكن تعلم لماذا كانت تتغيّر أحوالها وترتبك وتتلعثم عندما كانت تفتح له الباب كلّما أتى لزيارة أخيها. وممّا زاد إعجابها به ماكان يتحلّى به من شهامة وكبرياء وأخلاق نبيلة تشبه أخلاق الفرسان. إذ كان دائما يغضّ بصره ولايلتفت أبداً إلى ذلك الجمال البريء الأخّاذ الذي كانت تتمتّع به» إلهام «. بل كل ماكان يردّده دوما على مسامعها : (أحسنت ياإلهام . لقد حفظت تعاليم جدّتك بدقّة عالية. عفاكِ. عفاكِ ياشطّورة).

لقد استحوذ على تفكيرها وكيانها . تراه في أحلامها ، في دفاتر المدرسة، بين سطور القصائد والروايات التي كانت مولعة بقراءتها بشدّة . أصبحت متاكّدة أكثر من أيّ وقت مضى أنّه هو الزوج المنتظر وأنّ قلبها لا يخطئ أبداً.

في ذلك اليوم المشؤوم أسرعت لتردّ على الهاتف. كان هو « إحسان « على الجانب من الخطّ يقول : لقد حضّرت لكِ مفاجأة لم تكن في الحسبان أبداً ..

لم تصدّق ماسمعت واعتقدت أنّها تحلم . ولأوّل مرّة تنسى تعاليم جدّتها وتردّ

عليه وقد ازدادت ضربات قلبها وتقول : قل لي ماهي هذه المفاجأة ..الآن..الآن... لم يعد لي القدرة على الانتظار أكثر.

قال لها : طيّب د طيّب .سأقول لك ، سأقول :

(جايبلك ابن عمّي .عريس بياخذ العقل .لقطة .انشالله يعجبك)

القهوي خصّ والدّور قصّ

حدثنا هانيء ابن هشام قال :

عندما زارني ملك الزمان في بيتي المتواضع هذا في يوم من الأيّام ، حيث كنت قد جهّزت له ترمسا من القهوة المرّة (بيفتح العين) ، وكان برفقته كوكبة من الفرسان والأعيان وسائس الخيل ، ذلك الرجل الدرويش الفقير الحال « نبهان» . جلس الملك في صدر الحضرة كما يتطّلب الواجب والمقام ، بينما ظلّ سائس الخيل « نبهان» واقفاً على يمين الباب حسب ما اقتضاه الحال . حملت ترمس القهوة واحترت في أمري . من أين أبدأ. وبعد تفكير ومعاناة للحظات قرّرت أن أصبّ القهوة من عند نبهان سائس الخيل لكونه يقف على اليمين .

نظرت بكلّ وقار واحترام إلى ملك الزمان وقلت له : اعذرني ياملك الزمان على فعلتي هذه ..(القهوي خصّ والدّور قصّ).

إنّني أحمل على كاهلي

خمسة عشر قرناً من العذاب والإحباط

والكراهية

فأنا ممنوع من الحبّ

أسدلت الستائر على نوافذي

ومنعت دخول الشمس

والضوء القادم من بعيد

وفي عتمة الليل

أخذت أتسلّق جدران الآخرين

كاللصّ

أصيخ السمع وأحدق بعينين

مذعورتين

علّني أشاهد الحبّ بأقذع أشكاله

وحين يحالفني الحظّ

أعود إلى حارتي المسكونة بالأوجاع

فأصلّي إلى ربّي

راجياً المغفرة والتوبة

وفي اليوم التالي

أعود إلى معصيتي

لأنّ القرون الخمسة عشر

علّمتني أنّ الكذب

خطيئة مؤجّلة الحساب

وإذا ما ألقي القبض علي

فدعوة منّي للسلطان بطول العمر

تمحو ذنوبي كلّها

وأعود...كما ولدتني أمي.

أصعب إيّامي ، فطامي وطلوع سناني

بكى الطفل « عطاء » بكاءً شديداً عندما وضعت أمّه الحبر الأسود على ثدييها لتمنعه من الرضاعة وتفطمه عن صدرها بعد أن تخطّى العامين من عمره. حملته الجدّة التّقيّة الورعة على كتفها وذهبت به خارج غرفة ابنتها التي كانت أشدّ حزناً من طفلها المفطوم بعد أن رأته يمرغ وجهه بالأرض ويرفس بقدميه الصغيرتين ويصرخ بأعلى صوته محاولاً العودة إلى ثدي أمّه لكنّه يرتعب بشدّة في كلّ مرة يرى الحبر الأسود عليه ويبتعد عنه ويمتنع عن الرضاعة مجدّداً.

ابتعدت الجدّة عن البيت لكي تنسي « عطاء » الصغير هذه الكارثة التي حلّت به، تارة تحكي له حكاية وتارة تغنّي له أغنية بصوتها الرخيم حتّى هدأ روعه قليلاً. وبينما كانت تهدهد له حتّى ينام ، مرّت بطريقها على دالية عنب تتعربش على شجرة سنديان وتتدلى عناقيد العنب الحمراء اليانعة من بين أغصانها. رأى عطاء عناقيد العنب الحمراء اللون الشهيّة. بدأ بالبكاء الشديد مرّة أخرى، وأشار بإصبعه إلى عنقود العنب يريد أن يأكله. لم تستطع الجدّة « محمودة » أن تقطف له العنب لأنّ ذلك حرام وتعتبره سرقة لأنّ الدالية ليست ملكاً لها .

ابتعدت عن الشجرة قليلاً وازداد صراخ «عطاء» كثيراً وألحّ في طلب العنب. تردّدت الجدّة كثيراً وأشفقت على حفيدها الذي كان قد امتنع عن أكل أيّ شيء منذ يومين بسبب فطامه عن ثديي أمّه. عادت باتّجاه دالية العنب ومدّت يدها إلى الأعلى وكادت أن تقطف عنقود العنب لكنّها تراجعت وقالت : «الدنيا لن تغنيني عن الآخرة ..ووجه الله أبقى لي من حبّي لحفيدي» . لكنّ صراخ الطفل

ازداد وطلبه ازداد إلحاحاً ممّا جعل قلب جدّته ينفطر عليه ، وسقطت الدموع من عينيها إشفاقاً عليه. وتردّدت عدّة مرّات مابين أن تقطف العنقود أو أن تترك حفيدها يصرخ. تغلّب صوت العاطفة على صوت العقل وقطفت عنقود العنب وقالت : (لو ربّي بدّو يشغّلني بدّي أقطفلك عنقود العنب وطعميك ايّاه) . أكل الطفل العنب وغطّ في نوم عميق، لكنّ الجدّة عاشت بقية أيّامها في عذاب ضمير ، تطلب من الله أن يسامحها على ما اقترفت يداها من إثم .

وسام الأسرة

أمّي التي تزّوجت وهي ابنة الأربعة عشر ربيعاً ، أنجبت من البنات سبعاً ومن الذكور سبعة. لم يكن هذا الأمر مصدر فخر واعتزاز لها ولأقاربها فقط، بل كان ذلك مصدر فخر للدولة السوريّة أيضاً ، لذلك قرّرت تكريم من ينجبون مافوق الثمانية ومنحهم « وساماً للأسرة ». وكم كانت فرحة أمّي عارمة عندما سلّمها أحد المسؤولين الكبار هدية أمام حشد كبير من المدعوّين وكبار القوم. وكانت فرحتها أشد وأعظم عندما عدنا إلى البيت وفتحت الهديّة الملفوفة بورق جميل مزركش ، ووجدت بداخلها (عدّة متّي) .

قال لي أبي : « لقد عشتُ حياة أشبه ماتكون بمصارعة الثيران ».

سجنٌ مؤبّد

حاولَت الخروج من

قوقعتها الصغيرة

وعندما أطلّت برأسها

لتتنسّم هواء البحر

أتاها أخطبوط مخيف

وألتفّ حولها بأذرعه اللزجة

واعتصرها حتّى الموت .

مُحال

كيف لنفس شفّافة

صافية ،صادقة

أن تعيش في عالم

مشبوهٍ

مسكونٍ بالأشباح

والأرواح الشرّيرة

والأفاعي السامّة

ومملوءٍ بالسحر

والرقى والتعاويذ

والأكاذيب

فلا هي قادرة على

مغادرة سجنها الأبديّ

القميء

ولاهي استطاعت أن ترتدي

ثوب الزيف والرياء

مُحال....مُحال.

الشابّ عبّاس ومعلّمة اللغة الإنكليزيّة

التقى الشابّ عبّاس معلّمة اللغة الإنكليزيّة بعد ثلاثين عاماً.

قال لها : لن أنسى أفضالك عليّ أبداً، ولولاك لما تعلّمت ولا كلمة إنكليزيّة واحدة. ولن أنسى إطلالتك البهيّة عندما كنت تدخلين الصف وتقولين لي : (شط يور ماوث !) . قالت : وهل تعرف معنى هذه الجملة باللغة العربيّة ؟

قال : (لا والله . لحدّ إسا. مابعرف !).

الفردوس المفقود

ليس الفردوس المفقود

جنّاتٍ

تجري من تحتها الأنهار

خالدين فيها

أو حور عين

ولا كروم عنب دانية

أو رياحين

بل هي

لحظة انسجام وتماهٍ مع الكون

لحظة لطالما بحثنا عنها

وستبقى هكذا

لغزاً ورمزاً محيّراً

لذلك الحلم

الموعود.

محمود والكلب

عندما رأى « محمود » ، الطفل ابن السبع سنوات، معظم الناس صغارا وكبارا يقتنون الكلاب في بيوتهم بما فيهم صديقه حا زم الذي اشترى مؤخرا كلبا صغيرا أشقرَ وله فرو طويل يصل إلى أذنيه اللتين تلامسان الأرض وأصبح (يحرنقو فيه ليل ونهار) ، طلب من أُمّه ان تشتري له كلبا مثل كلب حازم. لكن إمّه لا تحب اقتناء الكلاب وحاولت إقناعه بالتوقف عن البكاء وعدم شراء الكلب . قالت له : (الكلب ياحبيبي بينقل أمراض وممكن يعضّ وبيصير خطير مع الوقت ، وبعدين الدنيا صارت شتويّة وممكن يموت من البرد .)

« محمود » لم يقتنع وأصر على طلبه وقال لها : (يمّي ..ماعليكي..أني بنيمو عندي بالغرفة وبغطّيه بالبطّانية وبشعلّو الصوبيا منشان مايبرد.)

فشلت الأم في إقناع « محمود » ، وظلّ يبكي عدة ايام مصرّاً على شراء الكلب.

خطرت على بال الإمّ فكرة وقالت « لمحمود » : (شو رأيك جبلك ولد بدال الكلب ؟) .

قال « محمود » : (طيب . موافق. بس بدي ايّاه بكرا).

قالت الإم : (طيب إذا خيّرتك بين الولد وبين الكلب أيّا بتفضّل ؟)

قال « محمود » : (الصراحة يا إمّي .أني بفضّل الكلب).

غرور ..

كأنّ الإنسان

إذا مارفعه الزمان

لايبقى له أمان

ظنّاً منه أنّه قد بلغ السماء

طولاً وعرضاً

وأصبح له جناحان

وحاز درجة الكمال

ناسياً بذلك أنّه

قد فقد محبّة الناس

وراحة الوجدان

قلبي على ابني

أمضى «كريم» طيلة النهار وهو ينقل أكياس الرمل على ظهره من أسفل البناية إلى الطابق الرابع. أعطاه ربّ العمل ألف ليرة مقابل أتعابه. بعد أن عاد إلى بيته في المساء مدّ يده إلى جيب سترته لياخذ الألف ليرة ويخبّئها في مكان آمن. هي كلّ مايملك الآن .

لم يجد ورقة الألف في جيبه. بحث عنها في كلّ مكان ، لكن عبثاً. كاد أن ينهار ولم يستطع النوم تلك الليلة. كانت أمّه المريضة تراقبه من تحت غطائها البائس. ازداد حزنها واعتصر قلبها الألم عندما سألها كريم أكثر من مرّة : (يمّي ؟ شفتيني وين حطّيت الألف ليرة ؟). كان جوابها بالنفي طبعاً.

في صباح اليوم التالي شعر بيد أمّه تمسح على شعره وتوقظه بلطف وتقول له : (قوم يمّي قوم. البشارة إلي لقيتلك الألف ليرة . قوم يمّي روح عالشغل ، بيكون معلّمك عبيستناك).

لم يصدّق كريم ماسمعه إلّا عندما رأى الورقة النقديّة الخضراء تلمع في يد والدته وتقدّمها له.

ذهب إلى العمل مجدّدا وبدأ بنقل أكياس الرمل إلى الطابق الرابع بكلّ همّة ونشاط منتظراً مغيب الشمس حتّى يعطيه المعلّم ورقة نقديّة جديدة من ذات الألف ليرة.

شكرت الأمّ ربّها كثيراً لأنّها أعادت الفرحة إلى قلب ولدها بعد أن أعطته الألف

ليرة التي كانت بحوزتها ولا تملك غيرها. كانت قد خبّأتها منذ شهر بعد أن أتت جارتها «أمّ محسن» ووضعتها تحت فراشها كحسنة مخفيّة لكي تشتري بها بعض الدواء.

يطربني صوت الرّبابة

كما تطربني موسيقا

بيتهوفن وموتسارت

فذاك يعيدني إلى

خيمة في صحراء

وهذا يحلّق بي

في أعالي السماء

صورة أمّي

لايتذكّر سوى طيف امرأة تئنّ من الألم تحت لحاف مغطّى بالمقصور الأبيض. كان عمره أربع سنوات عندما توفّيت والدته. علقت في ذاكرته جملة واحدة مازال يحفظها حتى الآن وهو في هذا العمر : (وداعتك صافي يابو صافي ..وداعتك صافي). وفي يوم وفاتها وهي في سنّ الخامسة والثلاثين عندما امتلأت الدار بنساء القرية النائحات على فقدان « أمّ صافي » ، سمع النساء يتهامسن وينظرن إليه بحزن وهو جالسٌ في فسحة النافذة المطلّة على الجوار : (صافي عبيضحك وبيلعب وأمّه ميّتي..ياريت يوم الفراق كنت صغير) .

هذه الجملة مازالت عالقة في ذهنه حتّى الآن. حاول أن يتذكّر وجه أمّه طيلة هذه السنين لكنّه لم يفلح. لذلك بدأ يبحث لها عن صورة هويّة، أو صورة تذكاريّة عند المختار ، في دائرة النفوس ، عند من يحتفظون بآراشيف لمعالم القرية لكنّه فشل مرّة أخرى. قال : (لو بلاقي صورة لإمّي بدفع عمري كلّه ثمنها). عندما عمل حساباً على الفيس ،عاد الأمل إليه من جديد في إيجاد صورة لها ، لكن بعد البحث والاستقصاء علم أنّ التصوير في ذلك الزمن كان محرّماً على المرأة ومن المعيب عليها أن تقف أمام المصوّر والكاميرا ليلتقط لها صورة.

وللجمال سطوة لاتقهر

كانت ليندا أجمل بنات الصفّ على الإطلاق وأكثرهنّ أناقة . عندما وزّع الأستاذ محروس علامات مادّة التاريخ على الطالبات ، اعترضت ليندا على علامتها التي لم تتجاوز الأربع عشرة من عشرين. وقفت تتمايل وتتدلّل في آخر الصفّ، كونها طويلة القامة، ونظرت إلى الأستاذ محروس بعينيها النجلاوين وشعرها الأشقر المسترسل على كتفيها كشلاّل ضوء باهر، وقالت بكلّ غنج : (إستاااااذ محروس . أني فش عندي ولا غلطة . ليش حاططلي بس أربطعشر علامي من عشرين ؟) .

نظر الأستاذ محروس إليها بعينين ذابلتين وافترّ ثغره عن ابتسامة ناعسة ، وقال بصوت ناعم رخيم : (شو هالحكي هاااااذ.معقول بس أربطعش ؟ أبداً مش معقووووول !وهاي عشرين من عشرين كرمال عيونك يا ليندا جنبلاط).

مغارة الضبع بتخلاش من العظام

كانت « فهيمي » مرا معتّرة وفقيرة حال وبتشكي من شوية غشم. إجا على بالها تشرب متّي عالصبح، لكنّها لقت عدة المتي فاضي . حملت حالها وراحت لعند جارتها «إم مثقال» لتستقرض كاسة متّي . دقّت عالباب. طلع بوجها «بومثقال ».

بومثقال كان رجّال بكلّ معنى الكلمة. هيبي ووقار وشخصية وجمال ، وقد زريف وطول بشرط الرجال، وفوق هذا وكلّو كانت كلمتو بتصرش ثنتين بين أهل ضيعته. يومن شافتو» فهيمي «، اتلخبطت وثقلت أحوالها وقالتلو : (صبحك بالخير خيي بومثقال ، بدي من عندكن كاسة متي لو بدّي كلفك).

(تكرمي يختي فهيمي تكرمي .على راسي قبل عيني) ردّ بو مثقال.

فات بومثقال عالبيت ، دوّر بالمطبخ على بوكيت متي ، مالاقاش غير واحد فاضي. راح لعند «فهيمي «ورفع بوكيت المتي بإيدو اليسار ونفضو بإيدو اليمين وقلها : (من غير جحد يا»فهيمي» مالقيت غير هالبوكيت الفاضي .لو في مابتغلا عليكي كاسة المتي)

ردّت فهيمة وقالت بعد ماصار العرق يزرزب منها زرزبي : (فوت دوّر بعد بجناب هالمطبخ. فوت يابو مثقال. مغارة الضبع أبتخلاش من العظام).

مقالب عبد الباري

« عبد الباري » ولد مشاكس ويحب المفاجآت وعمل المقالب مع إخوته وأخواته الأكبر والأصغر منه. كانت العائلة المكوّنة من عشر أنفس تجتمع دوماً في غرفة واحدة ، إن كان لتناول الطعام أو النوم أو تبادل الأحاديث ، كما كانت الغرفة نفسها تستخدم لاستقبال الضيوف .

في إحدى الأيام وبينما كانت العائلة مجتمعة انسلّ عبد الباري خلسة ومن دون أن ينتبه له أحد وخرج من باب سرّيّ إلى أرض الدار . كان الوقت ظهراً والهدوء يعمّ المكان.

سمع إخوته طرقاً قويّاً على باب الغرفة. نهض الأخ الأصغر بسرعة وفتح الباب ليرى من الطارق. لكنّه لم يجد أحداً. عاد وأقفل الباب خلفه وقال للموجودين : (مافش حدا عالباب . يمكن هذي البسّي جوعاني) ، وعاد إلى اللعب مع إخوته. بعد قليل سُمع الطرق مرّة أخرى. ذهبت « زريفة » أخته وفتحت الباب، لكنّها لم تجد أحداً. تكرّر الأمر عدّة مرات .

نسي الأولاد الموضوع وانهمكوا في اللعب مجدّدا لفترة غير قليلة من الزمن . بعد قليل سمعوا طرقاً لطيفاً على الباب. صاحوا جميعاً وبصوت واحد : (انقبر من هون ولاه .إنت واحد منافق ، ونحنا عارفينك ياعبد الباري. طلاع من هالبواب طلاع . فشرت لنفتحلك الباب ألف فشرة . ياالله انقلع من هون ، انقلع). وانفجر

١) البسّي : القطّة

الجميع بالضحك وقذفوا عبد الباري بعبارات التهكّم والبهدلة التي يستحقّها . لكن رغم ذلك تكرّر الطرق الخفيف على الباب. قالوا جميعا : (ماحدا يقوم يفتحلو الباب لهالمشاكس . خلّيه يظلّ يدقّ عالباب ليهلك).

بعد قليل، قال « يحيى » : (قومي يختي « محسني » افتحي الباب ، قومي. الله بيعينك . إسا بفرجيلك ايّاه لخيّك عبد الباري .بدّي خليّه يشوف نجوم الظهر !).

قامت « محسني » وفتحت الباب . شهقت شهقة قويّة جدّاً وتراجعت إلى الوراء من هول المفاجأة ، إذ رأت (بو سليم محمد) الشيخ الجليل واقفاً بكلّ هيبة ووقار منتظراً أن يفتح له أحدهم الباب .

المجامشي

عندما كانت العمّة أم حسين تقوم بزيارة إحدى صديقاتها ، كانت تهرب من باب خلفيّ وراء الدار كي لا يراها أولادها الصغار الخمسة ويلحقوا بها. في إحدى المرّات اشتلق[١] عليها ولد منهم في عمر السابعة وهي ترتدي مملوكها خلسة عند البوابة . صاح بأعلى صوته : (يمّي ، يمّي. لوين رايحة . بدّي روح معكي. بدّي روح معكي !). سمع بقية إخوته الصوت وأسرعوا باللحاق به وبأمّهم وهم يصيحون: (خذينا معكي ! وقّفي.وقّفي. استنينا !).

استدارت العمّة أمّ حسين نحوهم وقالت لهم : (لوين لاحقينّي ولاه . ياالله ارجعوا عالبيت ، أني رايحة إقشع عمّتكن إم عادل .صاخني. مش عيب آخذكن معي خمس ولاد .إنقلعوا ارجعوا عالبيت ولاه !) . لم يردّ الأولاد على أمّهم بل ركضوا خلفها مهرولين. فما كان من أمّ حسين إلّا أن تجمع كمية من الحجارة الصغيرة(الجمش)[٢] وتضعها في مملوكها وتبلش[٣] مجامشي[٤] فيهن على أقدامهم الصغيرة من تحت من دون أن تصيب أحدهم وهي تقول : (ارجعوا ولاه ،ارجعوا عالدار. انشالله بتكبروا. لوين بدي آخذكن معيز.خمس ولاد. منشان تِخِوْثوني وتخجّلوني عند الناس يعني ؟) .

---

١) اشتلق : لفت انتباهه

٢) الجَمَشْ : حجارة صغيرة

٣) تبلش : تبدأ

٤) المجامشي : رمي شخص ما بالجمش

صار الأولاد يتقافزون في الهواء كالعصافير محاولين تجنّب وقوع الحجارة عليهم ، وفرّوا هاربين وهم يصرخون ويبكون ويصيحون بأعلى أصواتهم : (بنّا نروووح معكي.،،بنا نروووح معكي). إلاّ أنّ أمّهم تابعت تخويفهم برمي الجمش إلى أن تراجعوا عن اللحاق بها وعادوا جميعا إلى البيت وصراخهم قد ملأ الحارة ، ولم يتوقّفوا عن البكاء حتّى عادت أم حسين إلى البيت ، بعد أن أنهت زيارتها وقد تبيّن لها أنّ أحسن وسيلة لثني أولادها عن اللحاق بها هي : «المجامشي».

بيتها في سفح الجبل

كانت سلمى تعمل مدرّسة في قريتها الجميلة الراقدة على سفح الجبل. كان الوقت صباحاً والطقس ربيعيّاً والزهور قد تفتّحت والأشجار قد أورقت ولبست القرية ثوبها الأخضر المبرقع بكلّ ألوان الطبيعة البكر التي لم يتدخّل الإنسان فيها بعد . فالطرقات مازالت ضيّقة ترابيّة تتلوّى بين بيوت القرية الحجريّة المبنيّة من أحجار البازلت السوداء الصلبة والتي قطعها ونحتها الإنسان بنفسه من دون تدخل الآلة.كما كانت البيوت من الداخل مطليّة بالكلس الأبيض ومزنّرة بالنيل الأزرق من الأسفل لتعطي برودة لطيفة كانت تغني عن استعمال المراوح والمكيّفات.

كان بيت سلمى يتوسّط أحراش السنديان والزعرور الأبيض والأحمر والبطم والسمّاق والعلّيق وكروم العنب الممتدّة على سفح الجبل .

أمّا أمّ سلمى ، فكانت تربّي الدّجاج وكلّ أنواع الطيور في قنّ كبير بني خلف الدار،وثلاث عنزات كانت قد أنجبت للتوّ ثلاثاً من السخلات(صغيرات الماعز) الجميلات تقوم بإرضاعهنّ بين الحين والآخر من ضروع أمّهاتهنّ، وما تبقّى من الحليب تحلبه وتسقيه لأبنائها ، أو تصنع منه الجبن أو اللبن.وبسبب وجود المرعى الخصب جانب البيت كانت العنزات الثلاث تدرّ كميّات وافرة من الحليب تكفي لسخلاتها وللعائلة ويبقى فائض لابأس به من الحليب.

في صباح يوم الخميس، آخر أيام الامتحانات، هيّأت سلمى نفسها وذهبت إلى

المدرسة القريبة من بيتها. انتهت أعمال المراقبة عند الساعة التاسعة صباحاً، واجتمع طاقم المدرسة في غرفة الإدارة . منهم من كان من نفس القرية ومنهم من كان من القرى المجاورة ومن المدينة . وقفت سلمى في وسط الإدارة وقالت: (عيرونا نصوتكن ياغانمين شوي. أني اليوم عازمتكن لعندي عالبيت ..على القهوة بحليب الماعز الطازج اللذيذ. يالله تفضللوا لنروح بالتبعيّ.)

مشت سلمى وتبعها زملاؤها إلى بيتها . كانت نسائم الصبح تدغدغ الوجوه والقلوب ، زادتها إنعاشا، رائحة القهوة المرّة التي صنعها والد سلمى على نار الحطب. قالت سلمى : (عن إذنكم دقيقة ..أني رايحة أعملكن القهوة بحليب).

لم تكن تتوفّرفي ذلك الوقت برّادات في البيوت لحفظ الأطعمة والحليب كما هو الحال اليوم ، لذلك أخذت سلمى سطلاً مخصّصاً لحلب العنزات ودخلت إلى الحظيرة لتحلبها..وعندما أمسكت المعزاة من ضرعها قفزت من مكانها قفزة قويّة جدّاً ، قطعت معها الحبل المربوط بها، وجرت معها بقيّة العنزات وهربت مسرعة لاتلوي على شيء.

هامت العنزات في الكروم المحيطة في البيت. حاولت سلمى اللحاق بها لكنّها لم تستطع ، فالماعز بطبيعتها شعثاء ومؤذية. عادت سلمى أدراجها إلى المضافة ،ودخلت وهي تلهث ووقفت بالباب وقالت ضاحكة : (يا غانمين ...مابخبركن إلّا إنّو العنزات هربوا... وبدّي فزعتكن ..هلّي بدّو يشرب قهوي بحليب يلحقني لنلقط العنزات.).

نهض الجميع وانتعلوا أحذيتهم وركضوا في جميع الاتّجاهات ..إلى الأحراش المجاورة..إلى الرجوم المنتشرة في المكان..إلى أشجار البلّوط التي تسلّقتها العنزات.. لكنّهم فشلوا جميعاً بالقبض على أيّة واحدة منها وعادوا إلى المضافة خائبين.

فلا هم ذاقوا طعم القهوة بحليب ولا العنزات عادت مجدّداً إلى الدار، بل اختفت بين الأحراش الكثيفة وغابت عن الأنظار. و بعد أن ذاقت طعم الحرّيّة فضّلت أن تأكلها الذئاب على أن تربط أعناقها بالحبال مرّة أخرى وتشدّ إلى جذوع الأشجار.

ماعاد بترجع لتجيب وليّ أمرك .

قال المدير : (مَعَشْ[1] في إلك رجعة على المدرسة لتجيب وليّ أمرك ..إنت واحد مشاغب وقليل هيبي ..يالله انقلع من هون ولاعاد تفرجيني وجهك).

خرج فؤاد من المدرسة وقد اسودّت الدنيا في عينيه . كيف بإمكانه أن يجلب وليّ أمره من قرية العانات آخر قرية في جبل العرب والتي تقع على حدود الأردن إلى مدينة السويداء التي جاء ليتلقّى العلم فيها ، هذا بالإضافة إلى أنّ الوقت كانون والثلج يتساقط بغزارة في الخارج.

تقبّع بمعطفه المرقّع ونزل إلى شوارع المدينة يخبّص تخبيصاً في الثلج مطرقاً رأسه في الأرض ، يفكّر ويفكّر كيف سيجد مخرجاً من هذا المأزق الذي وجد نفسه فيه. وقف على قارعة الطريق يتأمّل المارّة القلائل الذين كانوا يعبرون الشارع. رأى رجلاً ضخماً يشبه المصارع . عريض المنكبين ،غليظ الشفتين، كبير الشاربين، له يدان سميكتان إن وقعتا على رأس أحد أردته صريعاً. قال فؤاد : (إجت والله جابها).

تقدّم نحو الرجل وقال له مستعطفاً :(بحياتك ياعمّي..المدير طردني من المدرسة وقلّي معش بترجع لتجيب وليّ أمرك، وأني ولد فقير وأهلي بعاد كثير ومابقدر جيب وليّ أمري. فيي كلفك تفوت معي عالإدارة وتقولو للمدير إنّك إنت وليّ أمري . بديش منّك شي غير هيك). قال الرجل : (ماتكرم ياعمّي . كلنا فدا العلم

١) مَعَّشْ: تعني لا النافية

والمتعلّمين ونحنا بس بنّا خدمي . يالله مشّي قدّامي تشوف لعند المدير).

دخل الرجل يتبعه الطالب فؤاد إلى غرفة الإدارة وقال بصوت خفيض : (هذا وليّ أمري ياحضرة المدير. جبتلك إياه).

قال المدير غاضباً :(ابنك فؤاد ياسيّد قليل أدب وكسلان ومنكّل المدرسي..ابنك مش جاي ليتعلّم..هذا واحد عونطجي وناقصو تربية).

تغيرت ملامح الرجل وعبس وتولّى وهجم على فؤاد وانهال عليه ضرباً.(ضربي تضرّو وضربي تنفعو)، وصاح في وجهه : (ولك ياكلب يابن الكلب ، أني باعثك عالسويدا لتتعلّم ويطلع منك بني آدم وبشري . مش باعثك لمنّك تعمل مشاكل وتتزعرن . الله يلعنك ويقلّل من أمثالك . صحيح إنّك ولد أبتستحيش على حالك..خجّلتني ووطيت راسي قدام مدير المدرسة . انشالله بقبرك وإخلص منك ياقليل الحيا . شو بدّها تقول إمّك بس تعرف ؟ ولك إنت ناوي تجيب على تاليتها ؟). وانهالت اللكمات والكفوف على رأس ووجه فؤاد واللبطات على مؤخرته وكلّ جسمه.

العمى ! كاد الرجل أن يقتل فؤاداً ! أسرع المدير من وراء طاولته وفكّ فؤاد من بين يدي وليّ أمره المستعار ، وقال له وقد أشفق على فؤاد وأحزنه ماوصلت إليه الأمور : (خلص ياعمّي خلص ،معش بيعيدها . أني بكفلوا، أني بكفلوا . الله يسامحو.،تريك هالصبي من بين ديك ! ول يازلمي ذبحتو للولد !).وقال مخاطبا فؤاد : (خوذ شنتك وكتبك وفوت على صفّك، ومعشّ تعيدها أحسن ما إبعث ورا وليّ أمرك مرّة ثانية . يالله فوت انقلع على صفّك !).

عندما تتساوى عندك

الأشياء

الفوضى والنظام

الفرح والأحزان

الفقر والثراء

الجدب والغمام

الليل والنهار

النور والعتمة

الكره والمحبّة

فاعلم أنّك

تستطيع مغادرة هذا العالم

البائس وترقد في

في راحة أبديّة

وسلام.

اجتمعوا

بحثوا

صرّحوا

استنكروا

شجبوا

قلقوا جدّاً

قرّروا

أجّلوا

أسفر الاجتماع عن

لاشيء

وعادت الدائرة

إلى نقطة البيكار.

لماذا علينا التجزّؤ

والانقسام ؟

فأنا

لست أنا

أحاول أن

ألملم نفسي

فبعضي هنا

وبعضي هناك

حظّ سيّ

يالسوء الحظّ ! ما إن قالت له أطفئ الأنوار فالقمر بدر والجوّ رومانسيّ جدّاً هذه الليلة وتستطيع أن تسوق من دون ضوء؛ ونفّذ ماطلبته منه في الحال ووضع قدمه على محرّك البنزين حتّى تحرّكت السيّارة الفارهة التي كان قد اشتراها للتوّ بملايين الليرات بسرعة واصطدمت بشدّة بشيئين متحرّكين ضخمين كانا يتهاديان ويتمايلان ببطءٍ شديد على قارعة الطريق، ويكتشفا أنّهما قد صدما حمارين رماديّين كانا يجوبان الغابة . انقلبت الرومانسيّة بكاءً ونحيباً على السيّارة المحطّمة وغضباً شديداً على الحمارين اللذين لم يقدّرا هذه اللحظة النادرة، التي لن تتكرّر، ولم يحيدا عن الطريق.

خلّي الشوارب عاجنب !

في ماضي الأيّام كان لشوارب الرجال دلالة رمزيّة عالية الشأن والمقام، وكلّما تطاول الشاربان وكبرا كانت قيمة الرجل أكبر ومنزلته أعظم. (وياويلو وياسواد ليلو) من يشتم رجلاً بقوله له : (يقصّ شاربك)، ساعتها ربّما تحصل معارك بين الشاتم والمشتوم لها أول وليس لها آخر. وربّما تحصل عداوة بين العائلتين لاتمحوها السنون.

لم يكن الطفل الصغير « دحّام» يدرك قيمة هذا الرمز كما يفهمه الكبار . لذلك عندما زاره صديقه الصغير «ضرغام» برفقة أبيه «ذي الفقار» الشيخ الكبير، والذي كان يربّي شاربين يتدلّيان إلى أسفل وجنتيه ، وقد نمّقهما بعناية بالغة ودهنهما بزيت البريانتين وفتلهما حتّى أصبحا زينة للناظرين،

وبعد أن وضعت « أمّ دحّام» العشاء على الأرض، دعت الشيخ «ذا الفقار» إلى تناول العشاء. استجاب الشيخ للدعوة بكلّ رحابة صدر . أمّا» ضرغام « ابنه الصغير فقد رفض بحجّة أنّه ليس بجائع. لم يقبل «دحّام» أعذار صديقه الصغير «ضرغام» بل ألحّ عليه إلحاحاً شديداً حتّى يتقدّم إلى الطعام ،وشدّه من يده ، ثمّ من ملابسه ومن شعره لكنّ الأخير رفض رفضاً قاطعاً.

نفد صبر «دحّام» وقال : (يقصّ شارب بيّك ياضرغام إذا ما بتجي تتعشّى معنا) ،

لولا ماهن عميان !

كان الوقت عصراً عندما ذهبنا إلى سوق الحميديّة لنتفسّح ونأكل البوظة العربيّة من مطعم بكداش الشهير..

لكن قبل دخولنا السوق وبينما كنّا نتمشّى أنا وأختي على الرصيف المزدحم بالمارّة من كلّ الأجناس والأطياف ،كان أخي الصغير يمشى خلفنا تفصله عنّا مسافة قصيرة لاتتعدّى الأمتار لكي لانغيب عن ناظريه ونختفي في الزحمة.

كنت أتأبّط ذراع أختي وأتمسّك بها جيّداً ولا أدعها تفلت منّي خوفاً من أن أضيّعها.

وبينما نحن نسير معاً هكذا وإذ بشابّين يمسك أحدهما بيد الآخر يمرّان بجانبنا ويدقّان أكتافهما بنا بقوّة ، حتّى كدت أنا وأختي أن نسقط على الأرض. ثم ابتعدا عنّا من دون أن يلتفتا إلينا أو يقدّما الاعتذار.

في هذه اللحظة رآهما أخي من الخلف . فار دمه حتّى وصل إلى رأسه من شدّة غيرته علينا . قال في نفسه: كيف سوّلت لهذين الشابين نفساهما أن يدفعا أختيَّ هكذا ؟

ركض من وسط الزحام ولحق بالشابين مسرعاً يفجّره الغضب والشعور بالإهانة.

انقطع قلبانا أنا وأختي خوفاً من أن تحدث معركة في السوق ويلمّ الناس علينا و(نتشرشح).

خلال ثوانٍ معدودة كان أخي قد أمسك بخناق واحد منهما وهمّ أن يوقعه أرضا ويشبعه ضربا.

(..ولك..يا كلب !) . صاح أخي في وجهه وأمسك برقبته ونظر في عينيه بغضب .

لاحظ أخي أنّ عينا الشابّ زائغة ، ساكنة ، لاترمش..كما لفت انتباهه أنّه قد تمسّك بقوة برفيقه وتوقّف بلا حراك ولم يقم بأيّة ردّة فعل لاهو ولا رفيقه ولم يحاول الدفاع عن نفسه ؛ بل لاذ بالصمت ولم يحاول الردّ على ثورة أخي الجامحة في وجهه ومحاولته الإمساك به وضربه.

تمهّل أخي قليلاً وعاد ينظر في وجهَيْ الشابّين من جديد : « آه. ياإلهي. إنّهما أعميان ! ياربّي . ماذا فعلت أنا مع هذين المسكينين ؟ « قال أخي في نفسه ، وعاد إلينا حزيناً نادماً على مافعل ، وقال لنا:(له ، له ، له. والله الشباب عميان. الله يلعن أبو العجلة !) .

قلت له والألم يعتصرني : (ياخيّي ، لولا ماهنّي عميان ومطسّسين ، كانوا اتدحّمونا إلي ولأختك ؟ لتكون مفكّرنا جورجينا ولّا فاتن حمامة وفايتين على سوق الحميديّة ؟)

ضحك أخي ضحكة حزينة صفراويّة ، ولحق بالشابّين من جديد. قدّم لهما اعتذاره الشديد عمّا حصل.

عدنا مجدّداً إلى زحمة سوق الحميديّة وأكلنا البوظة العربيّة.

كيف استطاع

طبيبنا الرحيم

كتابة قصائد الحبّ والغزل

بعد أن دخل

قاعة الموت

ورأى الهياكل العظميّة

والجماجم ..والعبر

والعيون الغائرة

والبشاعة

على موائد التشريح...؟؟

ضربة كفّ

عندما استيقظ أبو أيّوب من نومه فزعاً ومرعوباً عند الصباح ، قال لزوجته أمّ أيّوب:

لقد رأيت حلماً مرعباً ومخيفاً.

قالت : ماهو يا أبا أيّوب ؟

قال : رأيت نفسي أتصارع مع بريطانيا العظمى بكامل عظمتها وقوتها ،ولقد ضربتها كفّاً(طلع من قفا رأسها..وطار الدمّ من أنفها..وصار وجهها مثل حبّة الشمندر من عزم الضربة).

ردّت زوجته : انظر إلى رأسي المعصوب ، والدمّ النازف من أنفي ووجهي الملطوم.
لقد حسمت المعركة لصالحك ، وانتصرت على بريطانيا العظمى التي

كانت تنام إلى جانبك وتتلقّى ضرباتك

ولكماتك وهبداتك واستحرمت أن توقظك

من عزّ نومك . فهل تقدّر ذلك لبريطانيا...

العظمى ؟

من مذكرات «صالحة».

بعد أن أعياها التعب طيلة النهار في البحث عن غرفة صغيرة للإيجار في المدينة لتسكن فيها من أجل الحصول على العلم ؛ وجدت صالحة طالبة الصفّ العاشر ضالّتها أخيراً عند بيت السيد « نمرود». حملت المحزوم[١] المكوّن من (بلاس)[٢] أسود خفيف ولحاف عتيق، وبطانيّة وفراش رقيق محشوّ بالكرارة ومخدّتين محشوّتين بريش البرغل، وربطت هذه الأشياء (بمرسي) وهي حبل رفيع وشدّتها بقوّة ورفعتها على ظهرها وانطلقت مسرعة كي تصل قبل مغيب الشمس.

عندما دخلت الغرفة كانت تفوح منها رائحة العطن . وضعت المحزوم أمام الباب وقامت بتنظيفها بالماء والصابون ، ثم فرشت الأرضية بالبلاس ومدّت الفراش ووضعت فوقه اللّحاف والمخدّتين. ارتمت فوق الفرشة من شدّة التعب وغطت في نوم عميق.

في الليل شعرت أنّ شبحا يقف فوق رأسها ، يرتدي سروالاً أبيضَ طويلاً وقميصاً من البوبلين يغطّي خصره. له شاربان قصيران يقفان في وجهه مثل زيز[٣] وشعر أشعث ، وعينان محمّرتان غائرتان ومدورتان كعيني الفأر تنظران إليها . أحسّت أنّ يداً ثقيلة ذات أصابع غليظة تحاول لمس شعرها ووجهها. اقشعرّ بدنها

---

١) المحزوم: الفرشة مكوّنة من بطانيّة..مخد..لحف..إلخ..تحزم بحبل .

٢) البلاس : بساط مصنوع من شعر الماعز كان يستعمل قديماً لفرش البيوت

٣) زيز : حشرة .

وتوقّف قلبها عن النبض لبرهة قصيرة . تحرّكت لا إراديّاً محاولة إعادة الغطاء عليها وفتحت عينيها بشدّة . اختفى الشبح بسرعة الضوء ولم يعد له أثرٌ.

تدثّرت بالغطاء إلى مافوق رأسها ونامت نوماً متقطّعاً تخلّلته أحلام بشعة .

في الصباح ، ارتدت ثيابها وحملت حقيبتها وغادرت غرفتها ، وتوجّهت باتّجاه المدرسة. في حديقة الدار كان السيّد» نمرود « يسقي مساكب النعنع والبقدونس ، وكان مرتديّاً سروالاً أبيضَ وقميصاً من البوبلين، وله عينان تشبهان عيني الفأر وشاربان يرقصان في وجهه مثل زيز، وشعره رماديّ أشعث. لم ينظر إلى صالحة بل تظاهر أنّه مشغول بسقاية المزروعات.

في المدرسة لم تستطع الانتباه إلى الأستاذ ، وبقي فكرها معلّقاً بين الشبح الذي رأته في منامها وبين السيّد «نمرود « وحاولت تفسير هذا التشابه الكبير بينهما .

بعد أن رجعت من المدرسة، حزمت صالحة أمتعتها من جديد وحملتها على ظهرها مرّة أخرى عندما حلّ الظلام ، وبدات البحث عن غرفة جديدة في حارات المدينة العتيقة التي أتت إليها لتحصل على الشهادة الثانويّة.

نحن والأسماء

رزق رجل فقير الحال معدم طفلاً جميلاً ،بعد طول انتظار. ذهبتُ لزيارة زوجته النفساء لأبارك لها بالمولود الجديد. وبعد ماتبادلنا أطراف الحديث من مباركة ودعاء بطول العمر لهذا الضيف القادم الجديد والذي سيحمل اسم أبيه ، سألتهم ماذا ستسمّون هذا الطفل الجميل ؟؟؟

قالوا: بعدنا محتارين وما توصلنا لقرار

قلت لهم : سمّوه سلطان .

قالوا : لا ، لا. لن نسمّيه سلطان.

قلت : سمّوه زيداً.

قالوا : لا ، لا. لن نسمّيه زيداً.

طيب . سمّوه طلال . خطّار.

قالوا : لا طلال ولا خطّار.

سلطان وزيد ،

وطلال وخطّار،

إنّما هي أسماء الكبار

ولاتليق بالفقراء الصغار.

وهكذا ،

لم يسمّوه زيداً ولاخطّار،

.بل سمّوه ..نصّار

طبيخك نجض ، بس قَلّي وكول

يومنّو « ولهان « شاف «زهر البستان» ، الصبيّة البارعة الجمال، وقع في حبّها وغرامها وطبّ الفاس بالراس ، وقرّر أن يطلبها من بيها ويتجوّزها. لكنّ العادات والتقاليد الصارمة مابتسمحلو إنّو يشوفها ويقعد هوّي ويّاها لحالهن لمنّو يعرف رأيها إن كنّو ..آ..ولا...لأ... منشان هيك بعثلها رفيقو سلمان ليجبلو الجواب الشافي . راح «سلمان» لعند « زهر البستان «ووصّل لها الرسالة. قالتلو : إمهلني ياسلمان شهر ورجاع خوذ الجواب.

بعد شهر من الزمان بعثت زهر البان ورا سلمان ، بعد ماقلبت الموضوع يمين وشمال، وكان قلبها حيران وفزعان من قولة «بحبّك «وجهاً لوجه مثل مابيعملوا بنات هالإيّام « ، وقالتلو :

(روح ياسلمان قلّو لرفيقك «ولهان» إنّو طبيخك نجض بس قَلّي وكول) .

طبيخك نجض..بس قلّي وكول : طبختك استوت ونضجت وما عليك إلاّ أن تضع القليّة فوقها، والقليّة هي خليط من البصل المفروم والمقليّ بالدهن والزيت ، والذي يوضع فوق أكلة المجدّرة المعروفة كثيراً في جبل العرب.

حسن صبي !

بعد أن قصّت «إمّ محمد» ضفيرتَي ابنتها «هبة» الجميلتين قصّة قصيرة جدّاً، أصبح الكلّ يناديها في الحارة.(.حسن صبي ، حسن صبي !) . وأينما ذهبت يقولون : (إجا حسن صبي ، راح حسن صبي) ، ويتبع ذلك ضحكات وقهقهات ساخرة لطالما أزعجتها وأبكتها كثيراً عندما كانت تعود إلى البيت وتدسّ رأسها الصغير في وسادتها وتبلّلها بالدموع.

في يوم من الأيّام وبينما كانت عائدة من بيت صديقتها الصغيرة «ميرفت» عند الظهيرة ، إذ بها ترى «إمّ علي وإمّ حمد» ،جارتيها ،تقفان على باب الدار وتتجاذبان أطراف الحديث وتتهامسان وتطلقان ضحكات متقطّعة سمعتها «هبة » بكلّ وضوح. وما إن اقتربت منهما أكثر حتّى ازدادت ضحكاتهما وقالتا بصوت واحد (هههه ، إجا حسن صبي ، إجا حسن صبي) . واقتربت أمّ عليّ من «هبّة» ،ذات الأربع سنوات ،وأمسكت بذراعيها وكتّفتها بشدّة وقالت:(تعالي يا إمّ حمد لنشوف هبّة انكنّها بنت ولا صبي ههههه)، وقهقهت بشدّة حتّى سالت الدموع من عينيها من شدّة الضحك.

لم تكذّب أمّ حمد خبراً ،بل اقتربت كثيراً من «هبة» وحاولت رفع فستانها الذي كان يغطي ركبتيها واستراق النظر. شدّت «هبة» ساقيها إلى بعضهما بعضاً بقوّة وحاولت التملّص من بين يدي أمّ عليّ بكلّ ماتملك من قدرة طفوليّة. استطاعت الإفلات من بين يديها ولاذت بالفرار ودخلت بيتها واختبأت داخل غرفة ترتجف وترتقص مثل أرنبة مذعورة نجت من رصاصة قناص محترف.

ومنذ ذلك الحين أصبحت تذهب إلى صديقتها « ميرفت » من طريق آخر غير ذلك الذي اعتادت عليه، إمّا من بين الحواكير..أو قفزاً من سطح إلى سطح كعصفور مكسور الجناح ، حتّى تصل إلى بيتها لكي تلعبا معاً وتعود متّخذة الطريق نفسه حتّى تتجنّب رؤية» إمّ علي وإمّ حمد» البغيضتين.

حفاة عراة

كان « ذياب» الطفل ذو السنوات الخمس يلعب طيلة النهار في طرقات الحارة الترابيّة، مع أولاد الجيران حافي القدمين وشبه عارٍ، إلّا من بروتيل قطني يغطّي نصف بطنه فقط ، أمّا النصف الباقي فكان مكشوفاً تماماً. وكان يجد متعة عارمة في اللعب بالتراب والرمل في الصيف القائظ ، كما في صناعة دمى من الثلج في عزّ شهر كانون الثاني ، غير آبه بالمارّة من رجال ونساء وأولاد ، متجاهلاً نداءات أمّه له بين الحين والآخر، عندما تصيح له من البوابة : (تعال يمّي ، ياذياب لبيس أواعيك ، عيب يمّي عيب ،استحي على حالك وانضبّ عاد. ما احترقوش صفاحك من الشمس (أو ما انطعنتش من البرد)،،فوت لهون ولاااااا ، فوت ، يقصف ذنيك انشاالله !).

لايردّ «ذياب» على أمّه أبداً. إلاّ أنّه وعند مغيب الشمس ، يدخل إلى البيت مسرعاً باتّجاه الغرفة الوحيدة التي تتواجد فيها العائلة كلّها، وبعض الجيران الذين كانوا يتبادلون أطراف الحديث ، عندما يراهم «ذياب» الصغير ، يهرع إلى الصرّة التي تحوي ثيابه، يفكّها بسرعة، يأخذ منها بيجامته ويسرع بالاختباء خلف الستارة، ليرتديها ويسترعورته خجلاً من الموجودين في الغرفة ، ويعود للانضمام إلى العائلة وكأنّ شيئا لم يكن.

بورثعان

كان بيت « بورثعان » يستدينون كلّ شيء من دكّان العمّ « بومسعود الحمّود». خبز ، بهارات ، سكر ، رز ، خضرة وفواكه ومنظّفات ، ولايسدّدون الدين إلّا ماندر مستغلّين طيبة العمّ « بومسعود الحمود » الذي يبيع للناس بالدَّيْن ويتركهم على راحتهم، مراعيا الظروف المادية ً البعض ومتغاضيا عن سماجة البعض وتطنيشهم عن تسديد الديون . ومن كثرة ما ترددت جملة (روح جبلنا من عند عمّك بومسعود الحمود)، صار هذا الاسم أهمّ شيء في حياة عائلة «بورثعان» وصار الأولاد «وبورثعان وإمّ رثعان» يحلفون بحياته . صحيح أنّ بيت بورثعان وضعهم المادّيّ سيّئ جدّاً ، لكن ، ماشاء الله وبارك ، أنجبت «إمّ رثعان» الولد رقم عشرة على أساس أنّ (كلّ ولد بتجي رزقته معه)، وطالما أنّ العمّ «بومسعود الحمود» موجود فليس لديهم مشكلة.

بعد أن تنفّست «أمّ رثعان» الصعداء وارتاحت من آلام الوضع، اجتمعت حولها العائلة بمن فيهم «بورثعان» وتسعة من الأولاد والبنات ، مبتهجين بقدوم المولود الجديد، وبدؤوا يبحثون له عن اسم . هذا يقول : سمّوه جدعان وذاك يقول: (سمّوه فرحان ،قفطان أو سمعان وبنت تقول : سمّوه سرحان) . لكنّهم لم يستقرّوا على رأي واختلف الجمعان من إناث وذكور، واحتاروا في أمرهم أيّما حيرة ، وظلّوا ثلاثة أيّام يبحثون عن اسم مناسب ولايجدون.

في اليوم الرابع ركض الطفل الصغير «سمعان» مسرعاً وقال : (يمّي ، يمّي ، بيّبي، يابيبي سمّوه لخيي الصغير بومسعود الحمود) .

ناتف ومنتوف

عروس متزوّجة حديثاً ، لاتعرف شيئاً عن موضوع الطبخ . كانت تعتمد على أمّها في كلّ شيء حتّى في صنع كأس من الشاي.

قالت لها حماتها: «اليوم سيزورنا بعض الضيوف من خارج القرية، وعلينا أن نقوم بواجبهم ونقدّم لهم طعام الغداء.أنا لاأستطيع مساعدتك لأنّ لدّي كثير من العمل خارج المنزل.اذهبي إلى قنّ الدجاجات وأحضري الديك الأحمر الكبير، واطبخيه ريثما أكمل أنا أعمالي، ولاتنسي يجب أن يكون الأكل جاهزاً عند الظهيرة».

كان الطقس بارداً جدّاً والثلج يتساقط بغزارة في الخارج.

ذهبت العروس إلى قنّ الدجاجات وأقفلت الباب، وقبضت على الديك الكبير الأحمربعد كثير من المطاردة والقفز داخل القنّ، حتّى استطاعت أن تقبض عليه. ذهبت به إلى خلف الدار، وربطت حول جناحيه حبلاً رفيعاً ، ثمّ علّقته بشجرة التوت وأحكمت رباطه.

صاح الديك بأعلى صوته محاولًا أن يصفّق بجناحيه ويحرّك رجليه ، لكنّ المسكين لم يستطع.

بدأت العروس الجميلة بنتف الريش عن الديك وهو حيّ بصعوبة بالغة، مسبّبة له ألماً شديداً . كان الديك يزعق ويصرخ بأعلى صوته مع كلّ نتفة لتف ، كما كانت العروس تشدّ كلّ ريشة بكلّ مالديها من قوّة حتّى تخرجها من جلده القاسي . أُنهك الديك وأنهكت معه العروس .

بعد أن أنهت عملية نتف هذا المنتوف المسكين ، أخذته إلى المطبخ وهو مايزال حيّاً ووضعته في فرن المدفأة التي تعمل على المازوت ، وأغلقت الفرن بإحكام وبدأت بتحضير الصحون والملاعق وما رأته ضروريّاً للغداء. لكنّها نسيت أن تشعل المدفأة.

انتظر الديك المنتوف أن يتدفّأ على حرارة الفرن، وقد أخذ البرد منه كلّ مأخذ ، لكنّ شيئاً من ذلك لم يحصل. أدرك عندها أنّ ناتفته(العروس التي نتفت ريشه) لم تشعل المدفأة.

بدأ المسكين بعد أن خارت قواه جراء عملية النتف الموجعة التي لم تترك أيّ ريشة على جسده، وتركته غير قادر على الصياح ؛ بدأ ينقرعلى باب الفرن، تارةً بمنقاره وتارةً بجناحيه العاريين ، منادياً العروس الجميلة من داخل الفرن:

(ياعمّي . يا إمّا شعلولنا هالصوبيا خلينا ندفا ، ياإمّا ريجعولنا ريشاتنا علينا).

أعاد عملية النقر مراراً وتكراراً . لكن !! ما من أحد يسمع الصوت .

ظلّ يصارع البرد، والعري ،والسجن داخل الفرن إلى أن حان موعد الغداء.

أسرعت العروس فرحة باتّجاه الفرن لتسحب الديك الذي اعتقدت أنّه انشوى وأصبح جاهزاً للأكل. فتحت باب الفرن ونظرت إلى الداخل. كان الديك المسكين قد همدت حركته وتكوّم على بعضه وفارق الحياة ،منتوف الريش باردٌ كالثلج، ولون جلده أزرق كلون النيل.

أحلام مهدورة

كان معلّم الصفّ الخامس يعطي طلاّبه درساً في مادّة الجغرافيا ، منهمكاً برسم الخرائط ، و شرح الدرس في غرفة صفّ قديمة مبنيّة من الحجر البازلتيّ، ومسقوفة بالربد، وسطحها مصبوب بالتراب والقش المخصّص لعمل السطوح في ذلك الزمن الذي يعود إلى خمسينيّات القرن الماضي .

كان في الجدار الخلفيّ للصفّ طاقة صغيرة تؤدّي عمل النافذة تسطع منها أشعّة الشمس نا شرة الضوء والدفء بين التلاميذ .

بجانب الطاقة الصغيرة تلك التي كانت تطلّ على بيت الجيران ؛ كان الطفل الجميل «حسن » يجلس غير منتبهٍ لما يقوله الأستاذ ،حيث وقعت عيناه بالصدفة على بنت الجيران البارعة الجمال ذات الاثنتي عشرة سنة. سحره جمالها الفتّان وبدأ يتمقّلها من خلال الطاقة . سرح خياله الطفوليّ وأخذه بعيداً، وهو يتخيّل نفسه مع تلك الفتاة اليافعة يطيران معاً كفراشتين صغيرتين، تجوبان الحقول الخضراء وتحلقان في المدى البعيد .

رأى المعلّم «حسناً » سارحاً في خيالاته، وغير منتبهٍ لشرح الدرس . مشى نحوه ببطء بين مقاعد الصفّ ، اقترب منه حتّى أصبح يقف بمحاذاته تماماً ، أمسك رأسه الصغير بقوّة وأبعده عن الطاقة ، نظر من الطاقة ورأى الفتاة الجميلة في أرض دار الجيران . لقد عرف سبب شرود حسن عن الدرس . قطّب حاجبيه واربدّ وجهه وقال له : «هيا ...قم واجلس هناك بجانب السبّورة ، ولاتتحرّك من

مكانك حتّى ينتهي الدرس ، سوف تنال عقابك المناسب لفعلتك الشنيعة أيّها الوغد . تنظر إلى بنت الجيران بكلّ صفاقة ولاتنتبه لشرح الدرس...! ألا تعلم أنّ ماقمت به شيء معيب ومخلّ بالأخلاق والشرف ؟؟؟ هيّا..هيّا..قف وارفع يديك إلى الحائط».

سحب الأستاذ « حسناً» من شعره وركله على مؤخّرته ، وأوقفه بجانب الحائط، وأمره أن يرفع يديه وإحدى رجليه إلى الأعلى . نفّذ حسن ماطُلب منه ، وظلّ واقفا هكذا حتّى انتهى الدرس . بعد أن رنّ الجرس ، وخرج التلاميذ إلى الباحة لقضاء الفرصة ، اقترب المعلم من حسن وقال له : «مدّ لسانك أيّها اللعين ، سوف ترى نتيجة سلوكك المشين» . أمسكه من لسانه وجلب قضيباً من شجر الرمان كان يحتفظ به في غرفة الصف ، وبدأ يضرب به لسان حسن المسكين بكلّ قوّة .

بدأ حسن بالصراخ بأعلى صوته ، لكنّ الأستاذ لم يتوقّف عن الضرب. ازداد صراخ حسن كثيراً، وأصبح الدم ينزف من لسانه. سمع الطلاب صراخاً في غرفة الصفّ المذكورة ، هجموا على الباب . كان الباب موصداً، نظروا من النافذة ، رأوا الأستاذ يضرب «حسناً » بكلّ قوّة على لسانه بعد أن شدّه نحو الأمام، وحسن يصرخ ويبكي ولايستطيع الكلام.

جنّ جنون الطلّاب لرؤيتهم زميلهم يعاقب بهذه الطريقة الفظيعة ، هجموا على النافذة، وكسروا زجاجها ، وعلى الباب وكسروا قفله ، وخلعوه بضربات أقدامهم الصغيرة. استطاعوا بعد ذلك إنقاذ حسن المسكين من براثن معلّمه.

علم مدير المدرسة بذلك ، فاستدعى مدير المعارف ومعاونيه للتحقيق في الأمر. بعد أخذ وردّ والعودة إلى الأنظمة المرعيّة ؛ تقرّر طرد الطالب من المدرسة، وإبقاء المعلّم فيها ، وعدم معاقبته بتاتاً.

عاد حسن المسكين إلى البيت باكياً يجرّ أذيال الخيبة ، وأخبر والده بالقصّة. صعق والده عندما علم بقرار طرد ابنه من المدرسة ، إنّه يريد أن يعلّمه ،ولكن كيف بعد كلّ الذي حصل . سأل أهالي القرية عن الحل . قالوا له : هناك مجموعة من كبار السنّ يدرسون أحراراً، وبإمكان ابنك أن يدرس ويقدّم الشهادة الابتدائيّة في المدينة ، لكن مع الطلاّب الأحرار ، وليس أمامه سوى هذا الحل.

درس حسن مع هؤلاء الرجال ، واستطاع أن ينجح ويحصل على الشهادة الابتدائيّة. لكنّ علاماته كانت قليلة لاتؤهّله لدخول المدارس الحكوميّة ، ولايستطيع إكمال تعليمه إلاّ في مدرسة التجهيز الخاصّة في المدينة ، وفي هذه الحالة عليه أن يدفع قسطا سنويّاً للمدرسة بقيمة أربعين ليرة سوريّة في ذلك الوقت .

جاء حسن إلى أبيه والخوف باد على وجهه وقال له : « إن أردتني أن أكمل تعليمي يجب أن تؤمّن لي مبلغ أربعين ل.س قسطاً سنويّاً للمدرسة الخاصّة ، لأنّني غير مقبول في المدارس الحكوميّة ».

صعق والده للخبر،وكاد أن يغشى عليه. من أين له أن يجلب هذا المبلغ الكبير؟ إنّه أمر مستحيل. ولايمكن تأمينه بأيّ شكل من الأشكال. الفقر شديد والحالة مزرية، كان حسن ابنه المدلّل ، لم يذكر أنّه ضربه مرّة واحدة منذ أن ولد من شدّة حبّه له ، وفي الوقت نفسه كان حريصاً جدّاً على أن يتعلّم ويصبح أستاذاً في المستقبل . لكنّه في هذه اللحظة عرف أن كلّ آماله التي كانت معلّقة عليه قد تحطّمت ، وذهبت أدراج الرياح . لم يدر كيف رفع يده وصفع بها وجه حسن الفتى اليافع صفعة شديدة أطارت صوابه، وصاح في وجهه قائلا : (إلّا بدّك تطلّع على بنت الجيران من الطاقة يا أزعر . إلّا بدّك تطلّع على بنت الجيران ! لعنة الله عليك ياقليل الحيا . لعنة الله عليك.)

هرب حسن من وجه أبيه ليتجنّب غضبه الشديد، والدموع تنهمر من عينيه، شاعراً أنّ حياته قد انتهت ، ومستقبله قد ضاع . كانت هذه آخر سنة له يدخل فيها حرم المدرسة لعدم قدرته على تأمين أربعين ليرة سورية ليتعلّم في مدرسة خاصّة ، وخسر مستقبله التعليميّ إلى الأبد. لكنّ قصّة الطاقة وبنت الجيران الجميلة بقيت راسخة في ذهنه حتّى الآن ، تذكّره ببراءة طفل ، وقساوة معلم ، وحسرة أب كان يحلم أن يصبح ابنه معلّماً .

كثرة غلبي

لقد عانيت من الصداع النصفيّ طيلة خمسٍ وعشرين سنةً متتاليةً ذقت فيها الأمرّين ، لم أترك طبيباً واحداً إلّا وذهبت إليه . بدأتها بأطبّاء الكفر وحبران، الرحى ،سهوة البلاطة ، السويداء ، ثم إلى دمشق. (معك من) طبيب الداخليّة.. العصبيّة ، الأذنيّة ، ألأسنان د القلبيّة ، (ومن عند علي كوسا لعند علي سعدة) . ثم إلى إزرع للعلاج بالإبر الصينيّة ، فالحجامة والتداوي بالأعشاب الطبيّة. ومنه إلى التنقيط بالأنف بمستخلص قثّاء الحمار الحارقة. ولم أنس التصوير الطبقيّ المحوريّ والمرنان . لكن عبثاً ، لم أحصل على أيّة نتيجة. لم يبق لي إلّا المشعوذين والسحرة ، فكما تعلم إنّ الغريق يتعلّق بحبال (الهوى).

قلت : يابنت اذهبي إلى أحد كتّاب الحجابات لعلّه ينفع ولن تخسري شيئاً . فذهبت .

استقبلني الكاهن بالأدعية والتعاويذ والبخّور، شرحت له حالتي . قال : اجلسي هنا حتّى أكتب لك الحجاب المناسب . انتظرت بعض الوقت ، بينما دخل هو إلى غرفة معتمة. ثم (حركش وبركش) بين الأوراق والكتب التي ورثها عن جدّه، حيث كنت أسمع أصواتها بوضوح. خرج بعد قليل ، وبيده حجاب ملفوف بخرقة قديمة عدّة لفّات فوق بعضها بعضاً ، ناولني إيّاه وقرأ بعض التعاويذ ، ودعا لي بالشفاء العاجل ، وأوصاني أن ألبسه في عنقي ولا أخلعه أبداً أبداً. وقال لي : (إيّاكي ثمّ إيّاكي أن تفتحيه. مابيعود ينفعك !) .

وضعت الحجاب من ساعتها حول رقبتي حيث اجتاحتني نوبة صداع حادّة وأنا في حضرته، أسرعت إلى البيت قائلة لنفسي : (ياالله يابنت إذا مانفع مش راح يضرّ).

بعد ساعة أو بضع ساعات بدأ الصداع يخفّ شيئاً فشيئاً. هل هذا معقول ؟ نمت تلك الليلة قريرة العين . في اليوم الثاني ،الثالث والرابع. لم أعد أشعر بأيّ أثر للألم . دهشت كثيراً، وقلت: مستحيل أن يشفيني الحجاب ، وأنا الإنسانة التي تدّعي العلمانيّة ولا تؤمن إلّا بالعلم . فكيف حدث هذا.؟ قلت في نفسي يجب أن أفتح الحجاب ، وأقرأ ما كُتب فيه ثمّ أعيد لفّه ووضعه حول رقبتي .ذهبت إلى غرفتي المعتمة ، حيث أنّ العتمة توحي بالسحر أكثر، ونزعت اللفائف عن حجابي ؛ وياليتني لم أفعل. اتّسعت حدقتا عينيّ وانقطع نفسي ، إذ قرأت مايلي على قصاصة ورقة (مجعلكي) :

(كتابي كتبنا..منشان سببنا بتطيب (بندريّة) ولا...لا ؟؟؟)

ومنذ أن فتحت الحجاب وقرأت ماكتب بداخله عاودني وجع الرأس مرّة أخرى . قلت لنفسي: هذه هي نتيجة كثرة (الغلبي) . لو لم أفتحه ، ولم أقرأ ما كتب فيه لكنت عشت في وهم أنّ الحجاب قد شفاني من صداعي اللعين.

تتلاطم الأفكار في رأسي وتتزاحم

كأمواج بحرٍ عاتية

من أين أبدا ؟ ومن أين الخروج؟

تصدمني صخور الشاطيء

وتحيط بي العوالق

من كل جانب

أعود مجدّداً

أضمحلّ ، أتلاشى

أصبح مجرّد نقطة

ثم أذوب

أتماهى مع مياه البحر

تهدأ أفكاري

أغفو ..

ويسرقني النوم.

أشباح بلا أرواح

أشباحاً أصبحنا

بلا أرواح

نعبد الصور

والأيقونات

ونسينا الإله

نبحث عنه في كلّ مكان

يهرب منا ،إلينا

لكنّه لبصيرتنا

غير متاح ،غير متاح

أيامنا متشابهة

لاطعم لها

ولا لون

لا اشتياق يهزّ الفؤاد

ولا انعتاق

وين كنّا ..ووين صرنا

عندما دخل التلفزيون الأبيض والأسود إلى بيتنا لأوّل مرّة في السبعينيّات من القرن الماضي؛ كانت فرحتنا لاتوصف. وضعناه في المضافة ، ولم يتجرّأ أحد على لمسه أو فتحه إلّا المرحوم والدي، فهو المخوّل الوحيد بذلك .

اجتمعت العائلة المكوّنة من أبي وأمي وجدّتي ، ونحن الأولاد العشرة بناتاً وبنين، حيث إنّ كثرة الإنجاب في ذلك الوقت كانت مدعاة للفخر والاعتزاز بالنفس، وكانت الدولة تكافئ من ينجب عدداً أكبر من الأولاد ، وتقدّم له وساماً أسمته: «وسام الأسرة» .

عندما فتح أبي قفل التلفزيون وأضاءت الشاشة ، ولمعت في وجوهنا مترافقة مع صوت قويّ جدّاً صمّ آذاننا . تراجعنا جميعا للوراء وحاولنا الهروب من المضافة ، لأنّنا اعتقدنا أنّ صاعقة مصحوبة بالبرق والرعد قد اخترقت المضافة.

أسرع أبي بتخفيف الصوت، وتقليب زر الشاشة وإذا بمذيع اسمه «مهران يوسف» يظهر على الشاشة ويقول : «هنا دمشق»

في هذه الأثناء كانت جدّتي تسترق النظر بكلّ خجل وحياء إلى هذه الأعجوبة من تحت فوطتها البيضاء السميكة، وأخذت تعدّل من لثمتها ، ورفعتها حتّى غطّت أعلى خدّيها ، وأنزلت حافّة فوطتها من أعلى رأسها حتّى غطّت كامل عينيها ، ثمّ تربّعت على الأرض وأخفت ما كان ظاهراً من قدميها، ولاذت بالصمت، وأطرقت بناظريها إلى الأرض، ولم تعد ترفعهما أبداً.. أبداً.

دهشنا جميعاً لماذا سكتت جدتي وتوقّفت عن الكلام، ولم تعد تنظر إلى الأعجوبة التي جلبها والدي إلى البيت .

اقتربت منها ببطء وربتُّ على كتفها بكلّ لطف وقلت لها :

(ماذا أصابك ياجدّتي ؟ لماذا تجمّدتِ مثل الحجر هكذا ؟ انظري هناك..هذا اسمه تلفزيون) .

نهرتني ولكن بصوت منخفض جدّاً وقالت :

(لاترفعي صوتك ياستّي .عيب..ألم تشاهدي الرجل الجالس في التلفزيون؟ لقد قال: إنّه جاء لزيارتنا من دمشق. إنّه رجل غريب يزورنا لأوّل مرّة ، يجب أن نحتشم ، ولايجوز أن نظهر أيّ جزء من أجسامنا أمامه . هذا محرّم علينا. ألا تفهمين أصول الدين والحشمة...ياستّي..؟) .ضحكت كثيراً، وقلت لها : إنّ ما تشاهدينه هو مجرّد صورة. لكنّها لم تصدقّني أبداً ، بل بقيت لسنين طويلة تجلس أمام التلفاز وتضع لثمتها السميكة على فمها وأنفها ، وتغطّي عينيها إلّا قليلاً، وتجلس بكلّ احتشام ونظرها إلى الأرض ، لقناعتها أنّ الرجال الذين تشاهدهم في التلفاز هم أناس من لحم ودم ، يجلسون داخل التلفزيون ويشاهدوننا ويسمعوننا . ومن المعيب ألاّ نلبس لباساً محتشماً أمامهم لكونهم ذكوراً.

أين جدّتي بالأمس من جدّة اليوم التي أصبحت تسوق السيّارة ، وتحمل الموبايل وتضعه في محفظتها أينما ذهبت ، وتتعامل مع الفيس بوك، وتمشي مع العصر بكلّ تقنياته وتطوّره ، فهي تحمل أعلى الشهادات العلميّة ، مستقلّة اقتصاديّاً ، مثقّفة ، واعية وتواكب الرجل في كلّ خطوة يخطوها.

(يالطيف !وين كنّا ،ووين صرنا) .

من أنا

أنا لا أكتب الشعر

ولا أعرف خبث السياسة

ولا أفهم تلاوين البشر

أنا مجرد إنسانة عاديّة جدّاً

أحبّ أن أعيش وأرقد

في سلام

هذي أنا.

والله لأجرش برغلكم...

خشن ناعم حيّالله

سريت اليوم منذ الصباح الباكرإلى مطحنة البرغل ، لكي أجرش كيسا البرغل الذي سلقته (بالحلّة) وجفّفته ونقّيته من الحصا والشيلم والدحيرجي وحبّات الشعير في البيت ، دخلت إلى داخل المطحنة التي كانت تطحن القمح والكشك وتجرش البرغل ، صحيح أنّ صوتها يصمّ الآذان وله إيقاع وموسيقى خاصّة بالمطاحن ، والغبرة ستغطيك من رموش عيونك لأخمص قدميك . لكنّني شعرت أنّ البركة حلّت عليّ وتلبّستني الطاقة الإيجابيّة.

تذكّرت أيّام الطفولة عندما كنت أرافق أمّي وجدّتي . حيث كانت المطحنة مكتظّة بالناس من كلّ القرى المجاورة ، وكيف كانت مكاناً مناسباً للقاء العشّاق وتبادل نظرات اللوعة والحبّ الجارف . تراءت لي كلّ تلك الأيّام البريئة التي كنّا نمضيها في بيتنا القديم المصنوع من الحجر والطين ، والمحاط بالكروم وأشجار البلوط والزعرور ، حيث كنّا نلعب بالمراجيح المصنوعة من حبال القنّب والتي كانت تتدلّى من أعالي شجر السنديان .وكم كنّا نغفو وننام في تلك المراجيح عندما كان يدغدغنا نسيم التلال الغربيّة ، ولا نستيقظ إلّا على نباح الكلب الجائع وعوعصته ؛ أو على صوت (القرقة) والصيصان عندما كانت (تقق)لها لتتبعها إلى (المزقة) لكي تشرب الماء ؛ أو ربّما صوت صياح ديك مذهّب الألوان معلناً وقت الظهيرة القائظ.

كانت كلّ هذه الذكريات البعيدة تتقاطر إلى مخيلتي ، بينما كنت أقوم بعمليّة تنميش البرغل لكي يخرج الريش عنه أثناء عمليّة الجرش تلك.وبينما أنا غارقة في ذكرياتي ، إذا بامرأة قرويّة مقدّرة تقترب من جرن البرغل وتشمّر عن ساعديها وتبدأ بمساعدتي في عمليّة التنميش. لم تسألني عن اسمي ، وبدت أنّها من قرية قريبة من قريتي . بدأت بتقليب ودعك البرغل وفركه على راحتيها. نظرت إليّ وقالت :

(دخلك فش أطيب من البرغل هلي منعملو بالبيت. لكان مثل برغل السيّارات بيبقوا سالقينو نصّ سلقة وعالطبخ بيطلع نيّ ومعجّن ومليّط تلييط..ياربي تسامحني أبينذقش..)

قلت: (معك حق يختي .أني شخصيّاً بعمل البرغل والكشك والمعاقيد والمقدّد وكلّ المونى بالبيت، أبنّاش نعرف شو عمناكل ، يقطع أكل السوق وبذاره).

قالت : (معلوم ، معلوم يختي شو قاعدين عمنعمل كلّ النهار طالما قمحاتنا عنّا ووقداتنا عنّا وبقراتنا جوّات بيتنا، بس الوحدي تطلع عن مروّتها شوي . ولو انشالله ربّنا بيهونها ! لكان مش حرام ياخالتي بناتي وكنايني فاقوا الساعة ١٢الظهر من كثر ماسهروا مبارح ولوجه الضو، مدودخين دودخة ؟ حطّوا هالمتي قدّامهن ومسكوا هالسايبين مدري شو بيقولولهن ، موبال مدري شو ، وقاعدين يفقّسوا فيه كلّ النهار لا شغلي ولا عملي . حلال بدين الله يا خالتي .هيك الله بيقول ؟)

(هون أني انقطع قلبي إنّها تشوف الموبايل هلّي مخبيتو بعبّي .شدّيت على عبّي مليح أحسن مايقع واتخجّل وإطلع بالكذبي.وقلتلها):(شفتي ياخالتي شفتي جيل اللهمّ اعفينا . هذا جيل الفيس بوك !).

قالت مستنكرة بشدّة : (شو بوك وما بوك وفيس ومافيس ؟الله يلعن أبوهن ويهبط فيهن هلّي اخترعوا هالبوك مدري شو دينو. بعد بدو يجيب على تاليتنا والله بيعلم إنّ الدنيا تالي وقت ياخالتي).

قلت لها : (هذا كلّه ياخالتي من زخاريف بليس اللعين. ياربّي تبرّينا منه !).

في هذه اللحظة أتى برّاك المطحنة وجلب (الصاع) وصار يضع البرغل في ا لجاروشة وبدأت عملية الجرش . رجف الموبايل في عبّي وبدأ بالرنين بصوت مرتفع وبدأ ذياب مشهور يغني «والله لجرش برغلكن ، خشن ناعم حيّالله، بالليل ياعيني بالليل»

(ياذلّي أني، شو بدّي أعمل. كدّني العرق ، وغزيت راسي بحيط المطحني وقلت لحالي :

(الله يخجّلك ياهالموبايل ، خجّلتني قدّام بنت هالحلال وطيلعتني بالكذبي) .

بس يقرصك الجوع

أقام السيّد «أبو مسعود» وليمة غداء. منسف عربي مع لحم الخاروف والكبّة المقليّة والمسلوقة مع طبيخ ملاحية وقرص وهليلات وفوقهم فجّة الراس وتقفير بسمن عربي خالص.

بدأ «أبو مسعود» دعوة الضيوف بنفسه منذ الصباح الباكر، ليتمكّن من دعوة الجميع قبل موعد الغداء المقرّر وهو الساعة الثالثة بعد الظهر. وصل عند العم أبي مرهج حوالي الساعة التاسعة صباحاً. صاح السيّد أبو مسعود من باب الدار :

(يا بو مرهج ، يا بو مرهج) .

(مان عيّط ؟) . ردّ العمّ أبو مرهج من داخل المضافة.

(أني بو مسعود ، أني بو مسعود . ما حدا غريب) .

(بو مسعود ماغيرو . تفضّل ، تفضّل .ياحيّالله ، ياحيّالله .شو في. خير انشالله !) .

(مافي إلّا الخير ، خيي بو مرهج ، مافي إلاّ الخير. جاي إعزمك عالغدا . هيك عاملين لقمة أكل لأهل البلد . يعني بدّك تقول نذر لهاالصبي على مجيتو من الكويت بالسلامة . منتأمّل تشريفك) . قال أبو مسعود .

(آ ، معلوم. واجبي . واجبي. الله يكثّر الخير عليكن ونشالله بيكون نذر مقبول. أيّا ساعة خيي بو مسعود العزيمي ؟) . قال أبو مرهج.

(خيي بومرهج ، يعني بس يقرصك الجوع بتقدر تروح لأفضالك). ردّ أبومسعود.

(الله بيهوّنها خيي بو مسعود ، ألله بيهوّنها. بنّاش عزيمي على أفضالكن . قلتلي بس يقرصني الجوع ، ها ؟ اتّكل على الله ، اتّكل على الله ولا توصّي حريص). قال أبو مرهج .

غادر أبو مسعود بيت (بومرهج) وقفل راجعاً إلى بيته مسرعا، كونه قد انتهى من دعوة كلّ الأشخاص الذين أرادهم إلى الغداء.عندما اقترب من باب المضافة الذي كان مفتوحا على مصراعيه لاستقبال الضيوف، سمع (نحنوحة) رجل في الداخل.

استغرب الأمر، حيث إنّ الوقت مازال مبكّراً للغداء. تقدّم باتّجاه الباب ودخل بعد أن تنحنح هو الآخر لتنبيه الضيف إلى قدومه. عندما صار داخل المضافة صعق وذهل إذ رأى أنّ الرجل الجالس وحيداً في صدر المضافة ماهو إلّا العم أبو مرهج (قاعد و عبسبّح بمسبحتو وعبتمتم بأغنية جبليّة وبيقول فيها : بعدك بعدك ياسمرا طبعك عنيد ، بعدك بعدك مش مثل ما آني بريد. ياحيدي عن طريقي يا آني بحيد).

حطّمت صنمي

صنعت لنفسي إلهاً

من أوهامي وأحلامي

صنماً . صنعت

ركعت له وصلّيت

عبدته وتعاميت

في لحظة كشف

نادرة

حطّمت صنمي

بكلتا يديّ

وعدت إليك

يامن وهبتني الحياة

ها أنا ذا

أعود إليك

أعود إليك

سجن مؤبّد

سجنوك

خلف ألف باب وباب

وأوصدوا

وأحكموا الإغلاق

أقفال...أقفال...أقفال

سجنوك وأحكموا الإغلاق

قتلوك ، كفّنوك

دون رحمة أو إشفاق

ليتهم يعلمون أنّ الحياة دونك

لاتطاق

لاتطاق

قلق

بنى لنفسه قصراً منيفاً.سكن فيه لبعض الوقت. سئم منه وقال : لأشتري شقة جميلة على شاطئ البحر. ففعل. أمضى فيها عدّة أشهر. لم تعجبه .تركها. اشترى مزرعة كبيرة جدّاً وبنى فيها فيللا جميلة. سكنها. لكنّه كرهها وملّ منها وعافها اشترى خيمة .استطاب العيش فيها . سكنها إلى آخر يوم في حياته.

يكاد المجرم ان يقول امسكوني

كان الشيخ أبو حسن يمتلك ثلاثة جمال قويّة البنية جميلة المنظر، ربّاها في بيادره ودلّلها ودرّبها بما لديه من وسائل ومعرفة دقيقة ورثها عن أجداده، لتعتاد على القوّة وتحمّل مشاقّ العمل والصبر على قطع المسافات البعيدة . كانت هذه الجمال قد اعتادت على حمل ونقل عِدَل القمح وبنادك الحمّص والشعير، وخياش التبن والقيام بأعمال الرجيدة ، ونقل سحاحير العنب إلى القرى والمحافظات المجاورة والعاصمة، والعودة بأجمل البضائع من ملبس ومأكل ممّا لذّ وطاب من صنع أهل المدينة.

كانت هذه الجمال أعزّ وأغلى مايملك الشيخ ابو حسن ، ولا عجب في ذلك ،فهي مصدر رزقه وقوت عياله ووسيلة النقل الوحيدة في تلك الآونة.

في يوم من أيّام الصيف القائظ استيقظ الشيخ أبو حسن كالعادة مع طلعة الضو، واتّجه إلى «الباكي». فتح الباب وأشعل سراج الزيت ليرى دربه جيّداً ،حيث أنّ الظلام كان مايزال حالكاً داخلها ، واتّجه باتّجاه المعلف الحجريّ ليضع لجماله العلف المكوّن من المرمير والشوك والقتاد والتبن ورشة من الشعير. قرّب السراج أكثر وتقدّم خطوتين إلى الأمام . لفت انتباهه عدم سماع أية حركة أو دردبة أو أيّ صوت من الجمال الثلاثة. رفع فتيل السراج للأعلى وصار قريباً جدّاً من الجمال. وضع يده اليمنى على كتف إحداها وحاول إيقاظه وقال له : (تشو.. تشو) . لكنّ الجمل لم يتحرّك وفعل الشيء نفسه مع الآخر ، إلاّ أنّه لم يتحرّك أيضا . أمّا الجمل الثالث ،فوجده مقلوباً على جنبه ،مكشّراً عن أسنانه الكبيرة

ومدليّاً شفاهه الغليظة ويرقد جثّة هامدة.

صعق الشيخ لهول مارأى وضرب كفّاً بكفّ ، ولولم يكن إنساناً شجاعاً وحكيماً لكان خرج من باب (الباكي) صائحاً : (وين راحوا النشامى ! الحقوني ياأهل بلدي! الجمال راحوا. الجمال تسمّموا وماتوا ! الجمال راحوا !) .

لكنّه ترك الجمال ملقاة على الأرض جثثاً هامدة وأغلق باب (الباكي) بإحكام وعاد إلى البيت ليخبر زوجته بهذا الخبر الصاعق.

أيقظ زوجته «صالحة»، وقال لها : (ياصالحة ماكان بدي فيّقك على خبر يحزنك.. لكن المكتوب مامنه مهروب ، والجمال يا مرا ، مابخبرك إلّا إنهن تسمّموا وماتوا تلاثتهن. لكن هذا الأمر ما بيعرف فيه إلاّ أنا وأنت والله عز وجل. بدّي اياكي اليوم ماتطلعي من البيت أبداً أبداً وتخلّي الأمر سرّ بيني وبينك ،وما تحكي مع مخلوق كاينا ما كان) .

بقي الشيخ أبو حسن في البيت هو وزوجته صالحة لم يغادراه طيلة ثلاثة أيّام ولياليها . عند مغيب شمس اليوم الرابع تراءى له زول رجل من بعيد يضع يديه خلف ظهره يمشي الهوينى الهوينى ويقترب ناحية المضافة. تلكّأ قليلا وتلفت إلى الوراء وإلى اليسار واليمين، ومن ثمّ مضى رأساً الى المضافة. فآذا به يرى باب المضافة مفتوحاً، نقر نقرتين خجولتين على الباب وطأطأ رأسه إلى الأرض وقال مخاطباً الشيخ :(مسّيك بالخير ياشيخ بوحسن . انشالله هلّي سمعناه يكون كذب ، وإذا لا قدّر الله وكان صحيح ، ما بقدر قلّك إلا الله يعوّض عليك بهالجمال ، وتجيب لبيدرك أبرك منهن ، والإنسان مابياكل غير قسمتو والمكتوب مامنّو مهروب والجمال تسمّموا . بكرا الله بيرزقك أحسن منهم) . وصار يخفف على الشيخ ويهوّن عليه الأمر ويسرد عليه المواعظ والحكم وعلى أنّ

الأمر كلّه قضاءٌ وقدرٌ .

لاذ الشيخ أبو حسن بالصمت وانتظر حتّى أكمل الرجل كلامه. نادى على امرأته صالحة وقال لها : (تعالي ياصالحة ، تعالي ! هذا الرجل هو اللي قتل جمالي وسمّمها. هذا هو إجا بزرّو وعروّتو على بيتنا كأنو عبيقلنا : تعالوا أمسكوني!) .

وهكذا كان ، فبعد أن جاء وجهاء البلد إلى مضافة الشيخ أبي حسن وسرد عليهم كلّ القصّة .وبعد الضغط على الرجل القادم إلى المضافة، اعترف بجريمته النكراء وقال إنّه هو الذي قتل الجمال الثلاثة بتسميمهم في تلك الليلة الظلماء بدوافع من الغيرة والحسد للشيخ أبي حسن الذي كان يحبّه ويحترمه كلّ أهل القرية ويحلفون بحياته.

شَوقْ

كيف السبيل إليكم

أحبّتي

وقد اصبحت القارات

والمحيطات

تفصلني عنكم

هل أطير مع الغمام

على أشرعة من ريح

أم أزوركم في الأحلام

هل هذا يطفئ

شوقي المجنون

أم هل ستنقذني المنون

من حيرتي....؟

لي صراع

مع النوم

مرير

أتعبني الكرى

فهل من

سبيل ؟

من أنا ؟

أنا

إنسانة

عابرة للقارات

دين الإنسان ديني

حبّ الخير شعاري

طلب العلم مقصدي

والكتاب صديقي

والعقل إمامي

وخالق الأكوان

خالقي

هذا

أنا

إنسانة عابرة للقارات.

اجتماع مهمّ

في أحد الاجتماعات المهمّة لرؤساء الدوائر في محافظة السويداء ،تجرّأ أحد المدراء مخاطباً مدير الجلسة وقال: إنّ مدينة السويداء حبيبتي ومسقط رأسي وتاج راسي ونور عيني، التي لا أستطيع مفارقتها رمشة عين قد أصبحت مدينة تتراكم في شوارعها وزوابيقها النفايات والقاذورات ، كما لم تكن في يوم من الأيّام . كذلك.. أخاف ياسيدي أن تطمرنا النفايات (وتطلع ريحتنا).كما إنّني أخاف من بركة الحج الرهيبة أن تصبح مكاناً لتصدير الميكروبات والأمراض السارية. ألا ترون ياسيدي أنّ هنالك حلّاً ؟ هل استعصى الأمر عليكم وعلى خبرائكم ومهندسيكم إلى هذه الدرجة؟

غضب مدير الجلسة وصاح بوجه المتسائل وقال : ألا تعلم ياهذا أنّ مدينة السويداء أنظف مدينة في العالم ؟

ردّ المتسائل بكلّ أدب واحترام وقال : إن كنت تقصد بالعالم هو المسافة الممتدّة من العانات[١] للصَّوَرَة الصغيرة[٢] فأنا معك مئة في المئة ولن أبوح بكلمة بعد الآن. أعتذر منك ياسيّدي على طول لساني وجرأتي.

تساءلت أنا وقلت بعد سماعي لهذه الحادثة : إلى متى سنظلّ ندفن رأسنا في الرمال ونتعامى عن رؤية الخطأ ولا نرى عيوب أنفسنا ؟

---

١) العانات :أبعد قرية في محافظة السويداء من جهة الجنوب..على حدود الأردن.

٢) الصَّوَرَة الصغيرة : أبعد قرية في محافظة السويداء من جهة الشمال على طريق دمشق.

قلّو: صاحيلك . قلّو : واعيلك.

يحدث أحيانا أنّك تتهرّب من شخص لسبب ما ،ولا تريد رؤيته.

في إحدى المرّات وأنا عائدة إلى البيت من المدرسة التي تبعد عنه حوالي نصف ساعة مشياً على الاقدام ، خرجت من بوّابة المدرسة ؛ وإذ بي أرى امرأة لا أحبّ أن أراها لغاية في نفسي . قرّرت أن أتهرّب ، بل أهرب منها بأيّ شكل من الأشكال. نظرت إلى الأسفل متظاهرة بعدم رؤيتها ، و(بخفية الكرعوب) اتّجهت غرباً لأبتعد عن ناظريها. مع العلم أنّني في الطريق إلى بيتي يجب أن أتّخذ وجهة الشرق وليس الغرب. لكنني اخترت الطريق الأبعد حتى أضللها

مشيت حوالي الساعة في زوابيق القرية حتى كدني التعب واحرقتني شمس الظهيرة . وبعد أن وصلت إلى مدخل بيتي وتوجهت نحو باب المضافة رأيت إمراة تقف على الفيراندة . وما ان تقدمت خطوتين حتى عرفتها . هي بذاتها ، عطرشان . يا إلهي! كيف حدث ذلك. كيف سبقتني إلى البيت ؟ من أين مرّت ومن أي طريق مزقت ؟ وما إن اقتربت منها قليلا حتى تلقفتني بالإحضان وقالت : (آه يامبزوقة يا سلوى! قديش صرلي لاحقتك وعبعيطلك من بعيد ، ماكنتيش تردي . مشتاقتلك من زمان وناطة روحي عليكي!) .

قلت لها وقد أُسقطَ في يدي : (ولا يهمك ، ولا يهمك يختي عطرشان . المهم إنو أخيرا التقينا) .

من قصص الأطفال

يبدو أنّ الطفل محمود فرح كثيراً بانتهاء المدرسة ونجاحه إلى الصفّ الثاني، والتخلّص من القراءة والكتابة . وقرّر أن لايضيّع أيّة لحظة من العطلة الصيفيّة بغير اللعب في الملعب وأرض الدار، ويلاحق العصافير والفراشات في الحاكورة الجميلة التي تحيط ببيته. حتّى إنّه كان يحمل الهمّ أن يأتي الليل ويضطرّ للنوم ويتوقّف عن اللعب. أمّا جدّته فكانت تلاحقه كلّ يوم وتفسد عليه فرحته بالعطلة . وكلّما رأته سعيداً تقول له : (تعال يامحمود لنقرأ قصّة صغيرة أو سطرين. لا ، ولا بقلّك ، سطر واحد ،جملة وحدي) .تقرأها أنت جيّداً وتكتبها عن غيب حتّى لاتنسى القراءة والكتابة).

نفّذ محمود ماطلبته جدّته منه على مضض كونه يحبّها كثيراً ولايرفض لها طلباً. وعندما حلّ شهر رمضان المبارك ، وسمع هذا يقول: يجب الامتناع عن الطعام في هذا الشهر الفضيل.،وذاك يقول : بل يجب الامتناع عن الكذب.،وآخر يقول: أبي لايعمل في رمضان ، جاءت جدّته كالعادة عند العصر بينما كان منهمكا باللعب وقالت له : (ياالله يامحمود ..تعال لنتابع هلّي قريناهن مبارح بقصّة ليلى والذئب !). ردّ محمود وقال : (كمان برمضان ياستّي ؟ ماهو لازم الواحد يصوم عن كلّ شي برمضان . أجلّيها لينتهي الشهر أحسن ماربّنا يغضب عليكي . أني بدّي منشانك ياستّي).

حلم ذهب أدراج الرياح

كانت «عسكريّة» تتمنّى أن يأخذها زوجها «سليم» إلى الشام (دمشق). حلم كان يراودها منذ كانت فتاة صغيرة.

لم تكن الرحلة في تلك الآونة سهلةً أبداً، إذ كان على المرء إن أراد أن يذهب من إحدى قرى الجبل إلى الشام أن يبقى يوماً أو بضع يوم ليصل إلى هناك ، حيث لم يكن يوجد إلّا باص واحد»باص أرسين» ، يغادر السويداء صباحاً من الطريق الغربيّ بطيئاً كالسلحفاة ، ويصل مع مغيب الشمس.

في يوم من الأيّام قال «سليم» لزوجته : (بكرة جهزّي حالك ..بنّا نروح عالشام..).

لم تستطع عسكريّة النوم تلك الليلة لفرط فرحتها. ولم تصدق أنّ الصباح سيأتي. لذلك قامت بتجهيز نفسها قبل طلوع الفجر، وأيقظت زوجها برفق . لقد أصبح حلمها على وشك أن يتحقّق . قالت لزوجها أثناء الليل : أمنيتي الوحيدة أن تأخذني إلى سوق الحميديّة لنتفرّج..ومن ثمّ نذهب لأكل البوظة العربيّة في»مطعم بكداش». (تكرمي..يا مرا...تكرمي) . قال لها.

ارتدى سليم زيّه الشعبيّ المعهود : الشروال الأسود ، القميص الأبيض والحرام الأحمر . وارتدت «عسكريّة» تنّورة العربيّ المزركشة والمقصّفة مع المملوك المصنوع من قماش يعاكس لون التنورة ، ووضعت الفوطة البيضاء على رأسها. وتزوّدا بلقيمات من لبن القطيع مع كم حبّة بندورة قطفتها عسكريّة من الحاكورة . لم يملك سليم المال لتناول طعام الغداء في المطعم. لذلك أكلا ماكان

موجوداً معهما من طعام في الباص وتابعا الرحلة.

عند الساعة الثالثة بعد الظهر وصلا إلى دمشق، وتوجّها رأساً إلى سوق الحميديّة. ذهلت عسكريّة بجمال السوق المسقوف، وكثرة الناس من كلّ الجنسيّات ، كما أذهلتها أكثر كثرة البضائع المعلّقة المتدلّية ، الممدوة والمعروضة على أبواب المحالّ التجاريّة والبسطات ، وطربت لسماع صوت المزامير والمجوز وغناء باعة العرق سوس والتمرهندي لجذب السيّاح والزائرين لدخول السوق المسقوف ، والذي أثار استغرابها أكثر رؤية السائحين الأجانب وهم يرتدون الثياب القصيرة، خاصّة النساء . (يا عيب الشوم) .قالت في نفسها. كان هذا منظراً غير مألوف أبداً بالنسبة لها. حيث أنّ جميع النساء الدمشقيّات كنّ يرتدين الجلباب الأسود والملاءة التي تغطّي كلّ الوجه ،مع قفّازات سوداء تغطّي اليدين.

كان هذا أجمل يوم في حياة» عسكريّة «.لم تكن متطلّبة أبداً. بل اكتفت بالنظر والفرجة على الأشياء دون شرائها. إلّا أنّها لن تتخلّى عن حلمها بأكل البوظة العربيّة من مطعم بكداش حصراً.

(سليم ! خلّينا نفوت ناكل بوظة ، ليك صرنا بنّا نصل للمطعم) . قالت له.

(تكرمي .تكرمي يا مرا !).ردّ عليها.

كانت تمسك يده بقوّة خوفاً من أن تضيع وتضيّعه بين حشود الناس

اقتربا أكثر من المطعم . لكشته ورصّت على يده.(طيب . طيب. طوّلي بالك شوي).قال سليم.

(يالله يا زلمي خلينا نفوت نطّت روحي. صرنا بنّا نقلط المطعم ، ولوّ !).

عندما أصبحت بمحاذاة الباب..سحبته من يده باتّجاهه وقالت :

(وقّف ! وقّف ! ليك هذا هو المطعم !).

قطّب حاجبيه وصرخ في وجهها وقال:

(حلّي عنّا يا مرا ! زلاعيمنا عبيجعونا)

سحبها بعيداً عن باب المطعم ، لحقت به خائبة حزينة ، وحلمها بأكل البوظة العربيّة ، ذهب أدراج الرياح.

حكمة اليوم

قال معلّم الصفّ لطلاّبه: ليأت كلّ واحد منكم «بحكمة اليوم».

وصل الدور عند الطالب محسن. لم ينم تلك الليلة . بحث في كتبه، سأل والده وإخوته ، حاول تلبيق حكمة من بنات أفكاره . لم يفلح في ذلك. غلبه النعاس ونام مهموماً. كيف سيقف عاجزاً أمام المعلّم وزملائه عن تقديم «حكمة اليوم .

استيقظ صباحاً وقال في نفسه : لامفرّ.

اتّكل على الله وذهب إلى المدرسة.

عندما دخل المعلّمُ الصفَّ وألقى تحيّة الصباح ، نظر إلى «محسن» وقال:

« ما هي حكمتك لهذا اليوم يا محسن ؟»

ازدرد «محسن «ريقه وقال: (يا أستاذ ! بدّك ايّاها بالقصيد ، ولاّ بالنشيد ؟).»

كما يحلو لك». ردّ الاستاذ.

وقف محسن باستعداد وقال:

بو صابر حِملي مايل فكري تعبان   من جور ياللي تتمايل كعود البان

سخّرته مرّتين

عُرِف عن «أمّ هلال» هوايتها بتسخير الناس لخدمتها، حيث لم يسلم أحد من رجال أو نساء القرية إلّا وسخّرته ليجلب لها غرضاً ما. هواية عندها (تقعد وتتأمّر على الرايح والجاي).

كان باب بيتها يفتح مباشرةً على الطريق ، وهذا ساعدها كثيراً في ممارسة هذه الهواية.

مرّة تقول:(بحياتك يا خيي تحمل معي هالعديلي[1] بدّي آخذها على المطحنة).

ومرّة : (خيي بو فوزي..فيك تنيزلي كيس هالقمح عن السطح ؟).

وأخرى تقول: (يا مالي يايوسف فيك تودّيللي هالحمار على الصيافي[2] بدّي كلّفك).

كانوا ينفّذون أوامرها احتراما لكونها امرأة ، وهذه من العادات العربيّة الأصيلة.

وهكذا ؛ إلى أن حدث ذات يوم أنّها كانت تعدّ العدّة لجرش القمح على الجاروشة الحجريّة. هيّأت كلّ شيء وقعدت على الأرض لتبدأ بعمليّة الجرش. اكتشفت أنّها نسيت يد الجاروشة المصنوعة من الحجر أيضاً. قالت في نفسها :لن أقوم بجلبها (بلكي بيمرقلو شي ابن حلال وبيجبلي ايّاها). انتظرت فترة لايستهان بها.

(هه ! إجى الفرج . سمعت دعسي قويّة عبترجّ الأرض رجّ). لم تستدر لترى من

١) العديلي : كيس مصنوع من وبر الجمال ليوضع فيه القمح

٢) الصيافي : الحقل الذي تزرع فية المزروعات الصيفيّة

يكون المارّ بجانب الطريق. نادته بأعلى صوتها.

(هيه ! هيه ! ياللي مارق على الطريق. بحياتك بلكي تجي وتناولني إيد هالجاروشي).كانت تلك اليد قريبة جدّاً من الباب بحيث استطاع الرجل أن يراها فوراً ويأخذها .»لأمّ هلال».

(تفضّلي يا إمّ هلال . هذي إيد الجاروشي). قال المارق على الطريق .

رفعت رأسها لترى من هو فاعل الخير الجديد . وإذ بها ترى شيخ القرية المبجّل بكامل عظمته.

(يا باااري. هذا إنت ياشيخ ؟ ياعيب الشوم منّك. يا خجلتي من أهل البلد.إنت جبتها بذات نفسك ؟ حرام عليك إذا ما بتريجعها لمطرحها ! يا باااري دخلك. شو عملت أني ؟).

أعاد الشيخ يد الجاروشة إلى مكانها وقال :

(يا شماتة رجال القرية فيي . أني مش قاهرني غير شغلي وحدة.)

(سخّرتي كلّ رجل منهم مرّة وحدة ؛ امّا أني فسخّرتيني مرّتين) .

انظر الشكل خمسة

كان «سالم» تلميذاً بطيء الاستيعاب والحفظ . وقد كانت المدرسة بالنسبة له عذاباً سرمدياً لا أمل في التخلّص منه. في النهار بهدلة من المعلّم وضرب بالعصا علي يديه ، وفلقة بالنبريش على رجليه. وعندما يأخذ درجة الصفر ، كان الطلّاب يصنعون له الطرطور بإيعاز من الأستاذ ، ويكتبون عليه : «يا حمار ويا كدع ويا مشنشل بالودع». بالإضافة إلى ذلك كانوا يقومون بلصق طبق من الورق الأبيض على ظهره مكتوب عليه بالخطّ الأسود العريض «يا حمار وياكسلان ويا مشنشل بالعيدان». هكذا كانت تتمّ معاقبة الطالب الكسلان في غابر الأيّام.

لم يحدث أن رفع سالم يده ولو مرّة واحدة للإجابة عن أيّ سؤال ، كائناً ما كان. ولو أنّه (قلع عين إبليس شي مرّة) وحاول الإجابة ؛ فإنّه يفوت بألف متاهة، تكون نتيجتها انفجار الصفّ بالضحك. ناهيك عن بهدلة المعلّم له واستهزاء رفاقه به وسخريتهم .

حياة لم تعد تطاق . فما العمل؟ وممّا زاد الطين بلّة أنّه عندما يعود إلى البيت، لاينتظرونه حتّى يتناول طعامه . بل يبدؤون بمساءلته مجرّد دخوله من عتبة البيت :

(قديش أخذت اليوم على الرياضيات ؟)

(ما عطونا العلامي بعد) يردّ عليهم ونظره في الأرض.

(طيّب .على العربي ؟)

(بعد ماصلّحش الأستاذ الأوراق). يقول لهم .

في أحد الأيّام قال في نفسه: (الشغلة بدّها حلّ.يا حياة ، ياموت) .

أقفل غرفته على نفسه ، وفتح كتاب التربية الزراعيّة على الدرس المطلوب وبدأ يستذكره ،ويعيد ويكرّر. يقسم الجملة قسمين ، يحفظ كلّ قسم على حدة ، ثم يعيد جمع القسمين معاً . يغلق الكتاب ويعيد استظهار ما قرأ ذارعاً الغرفة مئات المرّات جيئةً وذهاباً.

عند منتصف الليل ، أعاد الدرس بالكامل عن ظهر قلب . قفز عن الأرض شبرين لفرحته العارمة. لقد نجح أخيراً بحفظ الدرس . قال:غداً ساكون أوّل طالب يرفع يده ويسمّع الدرس على مرأى من الجميع.

راودته تلك الليلة أجمل الأحلام. رأى نفسه أستاذاً يتحكّم بالطلّاب ، والكلّ يتمنّى رضاه. كانت هذه الليلة الأولى التي ينام فيها نوماً عميقاً ولايستيقظ حتّى السابعة صباحاً . ارتدى ثيابه وذهب إلى المدرسة وكلّه شوق لإثبات وجوده وتسميع الدرس غيباً .

دخل المعلم الصفّ. تسارعت دقّات قلب سالم .

قال المعلّم (.يالله لنشوف .مين بدّو يسمّع الدرس اليوم؟).

رفع سالم يده فوراً .نظر المعلّم والطلاّب إليه وهم لايصدقون أنفسهم. (معقولي سالم رافع إيدو؟).

استجمع سالم كلّ ما يملك من قوّة وبدأ بتسميع درس الزراعة.

«زار معلّم الصفّ الخامس مزرعةً من مزارع مدينة حمص(فاصلي) التي تقع شمالي مدينة دمشق (شحطة) وأخذ معه مجموعة من طلاّب الصفّ الخامس

(نقطة) كانت مزرعة تحتوي على أشجار الليمون والتفّاح (اقلب الصفحة) التي كانت ترويها الساقية التي تأتي من نهر العاصي (فاصلي عليها نقطة). تناول المعلّم والتلاميذ طعام الغداء في المزرعة (شدي) وعند المساء(كسرة) عادوا إلى بيوتهم منهكين وتساءلوا إن كانوا سيزورن مزرعة أخرى الشهر القادم(علامة استفهام) .(انظر الشكل خمسي)

أنهى الدرس فرحاً بانتصاره وعدم نسيانه الفواصل والنقط ،وانتظر ردّة فعل المعلّم.

(قعود . حمار . الله لايعطيك العافية . انقلع رجاع لمحلّك و معش تفرجيني وجهك مرّة ثاني. قال انظر الشكل خمسي قال ! روحوا جيبولو الطرطور[1] ، روحوا جيبولو الطرطور). قال الأستاذ.

1) الطرطور: قبعة طويلة تصنع من الورق كانت توضع على رأس الطالب الكسول ليتمّ توبيخه من قبل زملائه.

طيّارة..هيّارة

بعد أن تطوّع العمّ أبو طيفور في صفوف الجيش الإنكليزيّ ، أصبح باستطاعته تعلّم الأحرف الإنكليزيّة..وبالتالي تمكّن من تهجئة بعض الكلمات البسيطة..

في أحد الأيّام بينما كان ذاهباً للالتحاق بقطعته في حلب.. لفت نظره ما كُتِب على الشاخصات..للتعريف بأسماء المدن باللغة الإنكليزية .فقرأ

Homs

Hama

Halab

ضحك في قرارة نفسه ضحكة من اكتشف شيئاً لم يسبقه إليه أحد ، وقال : (بالأثاري هاللغة الإنكليزية مافي أسهل من هيك ،أسهل من(شربة الميي) . ما عليك إلّا أن تقلب الحرف الأوّل من الكلمة العربيّة. إلى حرف..H...وبيمشي الحال ،مش أكثر. احتفظ بسرّه هذا إلى أن عاد إلى القرية ، حيث كانت ابنة أخته «عليا» تدرس اللغة الإنكليزيّة.

أحبّت «عليا» أن تداعب خالها وتختبر معلوماته بالمفردات الإنكليزيّة ، حيث كان يردّد على مسامعها دائماً أنّه بلبل بالإنكليزي .

قالت «عليا» : خالي مامعنى كلمة «كلب باللغة الإنكليزيّة ؟»

قال: كلب يعني هلب.

عظيم. عظيم. ردّت عليه..

وكلمة «شبّاك»

«شبّاك ؟» هبّاك.

ممتاز ، ممتاز .

وتابعت أسئلتها على النحو التالي:

عامود=هاعمود..

حديد=هديد

باب=هاب

أحسنت ، أحسنت ياخال .طيّب .قالت : «ومامعنى كلمة «طيّارة» ؟

قال بكلّ ثقة وهدوء : «طيّارة»يعني «هيّارة»

لم تعد عليا تحتمل الصبر أكثر. فقعتها ضحكة هههههه وقالت : «إنت مش معقول يا خال. صحيح إنو «الولد لو بار ثلثينو للخال» . عبقول أني لمين طالعة بلبل بلهنكليزي .

عمل نبيل

بعد أن استشهد البطل شهاب غزالي حمّال بيرق بلدة ملح في معركة الكفر بقيادة الباشا سلطان الأطرش ، تمّ دفنه في قرية الكفر ، في موقع قريب جدّاً من ساحة المعركة ، في سهل واسع تحيط به أشجار البلوط والزعرور والبطم. كانت الأرض ماتزال بِكراً ، ودفن في قبر متواضع تعلوه كومة من الحجارة البازلتيّة السوداء .هكذا كانت تُعمل القبور في ذلك الزمن.

مرّت السنون، حوالي خمسة عقود أو أكثر قليلاً. بعدها قرّرت البلدية في القرية أن تشقّ مجموعة من الطرق في الموقع المذكور.

ربّما نسيت الاجيال المتعاقبة قصة القبر وصاحب القبر البطل «شهاب غزالي» وذلك بسبب تقادم السنين.

علم رجل مسنّ يسكن في بيت بجوار القبر بالأمر. إنّه الشيخ المرحوم أبو عادل حمد عكوان ، الذي شارك في معركة العلمين في ليبيا والتي دارت بين الحلفاء ودول المحور.

لقد كان يعرف قيمة الشهداء والشهادة في سبيل الوطن ، ساوره القلق الشديد وقال في نفسه: ربما تقوم الجرافة بجرف القبر في طريقها. لن أدع ذلك يحدث مهما كلّفني الأمر.

انتظر حتّى حلّ الظلام على القرية النائمة ، أخذ صندوقاً خشبيّاً ذا غطاء ، ورفشاً متينة وضوايّة (فانوس قديم يعمل على زيت الكاز) وذهب باتّجاه القبر، انحنى

فوقه بكلّ خشوع ، ثمّ أخذ يزيح أكوام الحجارة ويضعها جانبا. أزال التراب المرصوص بالرفش . استمرّ بالعمل إلى أن وصل إلى الرفات.

(قدرتك عظيمي يا ربي). هكذا تمتم . وبدأ يتلو بعض الصلوات . رفع الرفات بكلّ رفق حتّى لا تتفتّت وأودعها الصندوق، أقفله وذهب به إلى مكان آمن بعيداً عن طريق الجرّافة ، قام بحفر حفرة جديدة، أنزل فيها الصندوق ، أهال عليه التراب ووضع فوقه الحجارة من جديد كشاهدة للقبر، ثمّ عاد إلى البيت مرتاح الضمير. وغطّ في نوم عميق.

تمر الأيّام وتمضي السنون مرّة أخرى متسارعة. يأتي أقرباء شهاب غزالي إلى قرية الكفر وبالتحديد إلى بيت المرحوم الشيخ أبي كمال جادو الكريم حديفة الذي كان مرجعاً يعود إليه الناس في حلّ المسائل الصعبة والمستعصية. يسألونه عن قبر شهاب غزالة: «هل لك ياشيخ أباكمال أن تدلّنا على قبر البطل شهاب غزالي؟» قالوا له.

«أنا لا اعرف بالضبط مكان القبر، لكنّني أدلّكم على الشيخ حمد عكوان، عنده ستجدون ضالّتكم.». أجابهم المرحوم أبو كمال جادو حديفة .

ذهب آل غزالة إلى البيت المذكور حيث رحّب بهم الشيخ أبو عادل حمد.

قال لهم: «إنّ ماتبحثون عنه أمانة في عنقي وأنا مازلت أحتفظ برفات البطل شهاب غزالي منذ عشرات السنين ، في حديقة بيتي. ودلّهم على مكان القبر الكائن بجانب بيته منذ حوالي ثلاثين عاماً.»

وجدوا ما كانوا يبحثون عنه . الصندوق وبداخله الرفات. أخذوه معهم إلى قرية ملح وأقاموا له ضريحا يليق به ،ليبقى إلى يومنا هذا شاهداً على بطولات

أبناء جبل العرب ومذكّراً بذلك الفارس المغوار «شهاب غزالي» الذي قال عبارته المشهورة : «هلّي بدّو يحارب فرنسا يلاقيني على الكفر» قبل معركة الكفر الشهيرة بدقائق .ومذكّرا بذلك العمل النبيل الذي قام به الشيخ أبو عادل حمد عكوان ذلك الفلاح الشهم ، وبإيعاز ممّا أملاه عليه ضميره فقط.

ذهب الحمار بأمّ عمرو

لا رجعت ولا رجع الحمار

كان لنا بستان جميل جدّاً يحوي الكثير من الأشجار المثمرة اللذيذة الطعم. كنّا نذهب أنا وإخوتي لحراسته من المارّة والرعيان. كان في البستان المجاور لبستاننا رجل مسنّ ، فقير الحال والمال لايملك إلّا هذا البستان الصغير ليعتاش من إنتاجه..وكان يأتي لحراسته مثلنا كلّ يوم. كان شكله غريباً، لاتستطيع أن تدرك معالم وجهه بسبب الندب التي تركها مرض الجدري على كامل جسمه.. حتّى إنّ تلك الجدري كانت قد أكلت معظم أنفه وفمه .عيناه غائرتان ووجهه تملؤه الأخاديد والتجاعيد ، غير متزوّج. ولايمكن لامرأة أن تقبل به زوجاً. لذلك كان قلّما يرتدي ثوباً جديداً . بل كانت ثيابه دائماً رثّة تكثر فيها الثقوب والرقع. لكنّه رغم كل شيء كان طيّباً ويحبّ اللغة العربيّة وموسيقاها الشعريّة، وكان في كلّ مناسبة يردّد بيتاً من الشعر أو جملة للإعراب كان قد حفظها أو التقطها من هنا أو هناك .

في أحد الأيّام كان «عبد المنعم» هذا ينام على ظهره ، ويداه معقودتان على بطنه يستمتع بقيلولة هنيّة تحت شجرة الجوز النديّة ، تهبّ عليه وتدغدغه نسائم الصيف الرقيقة. ربّما كان يرى حلماً أنّه يعيش في قصر منيف تحيط به الجنائن المعلّقة وتقوم على خدمته الجواري الحسان. وبينما هو في هذه اللحظة الرائعة.. إذ يراه من تحت الحائط مجموعة من المراهقين .صاروا يسترقون النظر اليه . يا لشقاوتهم وحبّهم للأذيّة ! لقد استكثروا عليه هذه القيلولة البهيجة !!

أمسك أحدهم حجراً كبيراً ورماه به بقوّة. فتح إحدى عينيه مرعوباً. وما إن فتح الأخرى حتّى انهالت عليه الحجارة من كلّ حدب وصوب ، حاول أن يقف ، لكنّه لم يملك الوقت لفعل ذلك ؛ إذ هجم عليه الأشقياء وبدؤوا يقفزون ويمشون على بطنه بنعالهم الثقيلة. حاول أن يردعهم ، لكنّهم ما ارتدعوا . هو لايستطيع ضربهم أو ردّهم عنه ، لكنّه ومن تحت الأنقاض قال لهم: « يا أولادي تعالوا ، تعالوا ، توقّفوا ، إسمعوني .هل بإمكانكم أن تعربوا لي هذا البيت من الشعر؟»

ذهب الحمار بأمّ عمر لا رجعت ولا رجع الحمار

توقف الأولاد عن أذيّته وبدؤوا يتساءلون عن معنى البيت وإعرابه. وهكذا، وبعد أن غفلوا عنه انسلّ ببطء وذهب حزينا مكسور الخاطر يندب حظّه العاثر.

موقف محرج

كثيراً مايؤدّي التشابه بالأسماء أو الألقاب إلى بعض المواقف المحرجة..

كان في قريتي رجلان يحملان اللقب نفسه «أبو فارس» .لكن شتّان مابين أبي فارس الرجل الميسور الحال ،الوجيه الذي تحسب له القرية ألف حساب والذي كان دائماً يرتدي الزيّ العربيّ المكوّن من قنباز أسود، وحطّة بيضاء منيّلي وعصبة فوقها ثياب من أفخر أنواع الأقمشة وهي دائماً نظيفة ومكويّة. (زعيم..يا عمّي).بالإضافة إلى ذلك ما يتمتع به من الجمال الرجوليّ. قامة مربوعة .عينان شهلاوان. شاربان منمّقان جيّداً .كلّ شيء فيه ينمّ عن المكانة الاجتماعيّة الرفيعة التي يملكها.

وبين أبي فارس الثاني الذي كان رجلاً فقير الحال والمال ، يرتدي الزيّ نفسه. لكنّ قنبازه مرقّعٌ، وحطّته قديمة. وحذاؤه لايكاد يخلو من ثقوب . وهويميل إلى القبح أكثر منه إلى الجمال . وكان أيضاً مربوع القامة. ورغم كلّ ذلك لم يفقد الشعور بعزّة النفس والكرامة.

في أحد أيّام الربيع وبينما كان أبو فارس الفقير يمشي في الطريق عائداً إلى بيته الكائن داخل القرية ،سمع من بعيد رجلاً يناديه (هيه ! يابو فارس ، يابو فارس نزال ،نزال لهون. معاوزينك).

لقد خَيّل للسيّد أبي محروس أنّه يرى في الطريق أبا فارس وجيه البلدة الرجل الثريّ ،وذلك بسبب ضعف نظره الشديد.

(مش فاضي إسّا .أبقدرش مييل. مشغول . اسمحلي هالمرّة) أجاب الرجل الفقير.

(لا ، لا ، ما بصير . بدّك تمييل !) أصرّ أبو محروس على دعوته.

(قلتلك أبقدرش إسّا. مرّة ثاني .مرّة ثاني). ردّ أبو فارس .

(غضب الله عليك إذا ما بتجي. وَلَوْ بتقعد تحت الحرام يازلمي ؟) . صاح أبومحروس من بعيد.

بعد هذه (العزيمي الكربي) .وهذا الإصرار الشديد على حضوره ، قال أبو فارس الفقير في نفسه: (عيب لازم تنزل ياولد . خاف يزعل علينا خيي بو محروس . ابيسواش غير ما إنزل).

انحدر أبوفارس الفقير باتّجاه الطريق الفرعيّ المؤدّي إلى بيت أبي محروس.دقّ باب المضافة. خطا خطوة إلى الداخل.

يا للعجب ! رأى الشيخ أبا حمد وعائلته يجلسون في المضافة أمام طعام ممدود على الأرض .كان الشيخ أبو حمد مدعوّاً لتناول الغداء بمناسبة سكناه في بيته الجديد المجاور لبيت أبي محروس وعندما اتجه أبو محروس لاستقبال أبي فارس وجيه القرية حسبما اعتقد ، صُدم صدمة كبيرة إذ اكتشف أنّه نادى أبا فارس الرجل الفقير. صار وجهه يتقلّب (طارات طارات) وامتقع بالاصفرار ،وبدأ الهمز واللمز من قبل الضيوف .

اكتشف أبو محروس غلطته وقال والخيبة بادية على وجهه :(ت..ف..ضل ! من رووس شفافه) .كان في ظنّه أنّه دعا إلى الوليمة أبا فارس وجيه القرية.

استشعر أبو فارس المسكين الموقف الذي لايحسد عليه.. والتفت إلى الضيوف وقال بمرارة:(يكون بعلمكن هه ! أني ما جيت بدون عزيمي أبداً . أني معزوم

عالغدا مثلي مثلكن. إنتو سمعتوا بذنيكن قديش بو محروس تّرتح فيي وكرّب عليي العزيمي !)

قفا بظهره ، واستدار باتّجاه باب المضافة وغادر المكان شاعراً بالمذلّة والخيبة والهوان وقفل راجعاً إلى بيته حسيرا .

أقول لك ياسيّد أبا فارس : لاتحزن ياسيّدي فلم يفتك شيءٌ من تلك الوليمة العجفاء .إذ بعد مغادرتك المضافة ، دخلت ابنة المعزّب الصغيرة مسرعة، ونظرت إلى الدجاجة الموضوعة فوق كومة من البرغل المدعوك بالملاحيّة

وقالت:(بيي ، بيي ! مش هاذي هيي الجاجة العورة هلّي كانت مكسورة ونايمي مبارح تحت الحيط ؟) .

نعسان آغا

دخل أستاذ التاريخ غرفة الصفّ.

وقف له الطلاب لإلقاء تحيّة الصباح عليه.

«صباااااح الخير». قال الطلاب بصوت واحد.

«صباح النور.تفضّلوا بالجلوس». ردّ الأستاذ

فتح دفتر التحضير. ثم فتح الكتاب على الدرس المطلوب ، واستدار إلى الوراء واتّجه نحو السبورة ليكتب الخطوط العريضة للدرس.

كان التلميذ «نعسان» يجلس في مؤخّرة الصفوف رغم كونه أقصر طالب في الصفّ. لقد اختار مكانه بعناية فائقة في زاوية مظلمة من زوايا الصفّ المكتظّ بالطلاّب والذين يبلغ عددهم حوالي خمسين طالباً.

حين بدأ الأستاذ «نجيب» يشرح الدرس ، أصغى إليه الطلّاب باهتمام .في هذه الأثناء بدأ رأس «نعسان» يدور دوراناً خفيفاً ، وبدأت عيناه تزوغان. شعر بالنعاس اللذيذ يسري في جسده. حاول أن يفتح عينيه مرّة تلو المرّة وينظر باتّجاه المعلّم لكنّه لم يفلح في ذلك . وسّع حدقتي عينيه أكثر لكنّهما عادتا للذبول مرّة أخرى.ظلّ على هذه الحالة لفترة قصيرة من الزمن ، يحاول فتح عينيه لكنّها تعودان وتنغلقان من تلقاء نفسيهما. لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه .تراخى .تهاوى . وضع مرفقيه تحت رأسه على المقعد وغطّ في نوم عميق.

بدأت الأحلام تتراءى له، رأى نفسه محمولاً على بساط الريح ، يحطّ رويداً رويداً في غرفة نومه ،مستلقياً على فراش وثير. ينام ،وينام ، إلى ما لانهاية.

كلّ ذلك والاستاذ نجيب مستمرٌ في شرح أفكاره والطلّاب منصتون إليه باهتمام.

أنهى الأستاذ درسه قبل خمس دقائق من الوقت المخصّص له.

قامت جلبة الطلاب وصعصعتهم وضحكهم. هرج ومرج. تغاضى الأستاذ نجيب عمّا يحدث من فوضى عارمة وتظاهر بعدم الاكتراث.

سمع «نعسان آغا» أصواتاً . فتح عينيه بهدوء. .لم يعلم أين وصل الأستاذ في شرحه الدرس.وقف متثاقلا. ورفع يده مستنكراً هذا الضجيج..وقال: أس.... تاااا...ذ

مابك يابني . ما ذا تريد.؟ قال الأستاذ نجيب .(أ..س..تاااا..ذ ! ما فهمناش شي من الدرس !)

أين نظّارتي ؟

فقد نظّارته فجأة ، لايستطيع القراءة أو الكتابة بدونها، بحث عنها في كلّ مكان..فوق السرير ،تحته. فوق المرآة . داخل الخزانة . بين الثياب.

ذهب إلى المطبخ .بحث عنها على سطح البرّاد ، داخل الغلقات ، بين الصحون وعلب البهارات.

قال في نفسه : دعني أبحث عنها في الحمام. فتّش في كلّ زاوية من زواياه ، بين البشاكير والصوابين ، لكنّه لم يجد شيئا .

عاد إلى مكتبه يائساً وقد شعر بالضيق والانزعاج . إنّه يحتاجها الآن لتكملة الحكاية التي بدأ بكتابتها منذ ساعة.

رمى نفسه على الكرسي بعد أن أضناه البحث وفقد كلّ أمل في أن يجدها.

رفع يده ليحكّ حاجبه ، اصطدم إصبعه بشيء قاسٍ . تلمّسه جيّداً .

(يا إلهي إنّها نظارتي !) . قال مذهولا.

فطنة مختار القرية

أثناء أحداث الشيشكلي في أوائل خمسينيّات القرن الماضي ، وفي زمن الانقلابات العسكريّة المتتالية التي وقعت في سوريا ، كانت مهنة «المختار» مهنة مهمّة جدّاً وكانت تعيض عن كثير من دوائر الدولة التي نراها اليوم، مثل النفوس ودائرة الأحوال الشخصيّة وغيرها. لذلك عندما كان الناس يختارون رجلاً يقوم بهذه المهمّة ،كان لابدّ من أن تجتمع فيه صفات مثل الشجاعة، الحكمة،الفطنة والذكاء والكرم. بالإضافة إلى ملكة التحدّث الجميل والمقنع مع الناس والمراجعين.

اجتمعت هذه الصفات كلّها لدى المرحوم أبي محمود الذي كان وقتها في الخامسة والثلاثين من عمره.

بالإضافة إلى صفاته الحميدة هذه فقد حباه الله زوجة رائعة. لقد كانت أخت الرجال. إنّها الستّ «شيخة» بنت الأصول الطيّبة والمحتد الكريم. كانت على صغر سنّها الذي لم يتجاوز الثلاثين عاماً، لا تكلّ ولا تملّ من تقديم كلّ مايلزم من كرم الضيافة ؛ أكان للشرطة أم للضيوف والمراجعين الذين يأتون من خارج القرية.

كانت تقدّم أشهى المأكولات التي تصنعها بيديها البارعتين ، كطبيخ المنسف العربيّ مع لحم الخاروف والكبّة المقليّة والمسلوقة والمقفّر بالسمن العربيّ . وعند الفطور أو العشاء تقدّم البيض المقليّ بدهن المعاليف مع كلّ أنواع الحواضر

الشهيّة ؛ السمن العربيّ ، الزبدةالعربيّة ، لبن بخيره ،مربّى التين والمشمش ، الزيتون مع الخبز العربي الشهيّ الذي كانت تخبزه بيديها. كانت تستقبل وتودّع الوفود الآتية إلى المضافة بوجه بشوش وصدر رحب.

وهكذا وفي أحد أيّام الصيف القائض ، بينما كان أبومحمود جالساً في مضافته على عادته مع مجموعة من رجال القرية يهرجون ويمرجون ،كان يجلس بصحبتهم الشاب «قاسم»الذي كانت تطارده الشرطة بسبب مناهضته هو ومجموعة من شبان القرية لحكم الشيشكلي. لقد دوّخ الشرطة ولم تستطع إلقاء القبض عليه. وفي احد الايام اقتحمت الشرطة دار المختار واتّجهت ناحية المضافة.

كانت الدوريّة كلّها من خارج المحافظة ولا تعرف أيّ شخص من الموجودين.

«صباح الخير» . قال قائد الدوريّة بوجه متجهّم عابس ينمّ عن روح العداوة والبغضاء.

(تفضّل ، تفضّل. تفضّل لهون !) . ردّ المختار.

صبّ المختار لهم القهوة المرّة كما هي العادة وقال لهم : (خير. خير . شو بتريدوا؟).

(عمندّور على شب اسمه «قاسم.». مطلوب للعدالة) .ردّ القائد بكلّ عنجهية.

(بنا مساعدتك ومساعدة أهل الضيعة يامختار) .

لكن المختار ، وبكلّ فطنة وذكاء ومن دون أن تتغيّر ملامح وجهه أو لونه وجّه أنظاره إلى قاسم وقال بصوت عال : (ياولد يا «محمد»: روح بسرعة .ركوض دوّر على قاسم . بدّك تجبلي ايّاه من تحت طقاطيق الأرض ، يالله ركوض بسرعة . مثل البرق).

ركض قاسم مسرعاً مثل البرق تاركاً رجال الشرطة ينتظرون عودته.

بعد فترة لابأس بها ظهر «قاسم» من بعيد راكضاً باتّجاه دار المختار ودخل المضافة وهو يلهث.

(هه..هاهو محمّد رجع).قال المختار .(شو صار معك ياولد ؟) .

وقف محمّد بباب المضافة بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه لاهثاً وعلامات التعب بادية عليه.

(يامختار ! الله وكيلك برمت البلد حكر ووكر ومالقيتلو أثر) .

افتعل المختار الغضب على محمّد وقال له :

(ولك يا محمّد ، أني ما بعمري كلّفتك بشغلي ونفّذتللي ايّاها أوشفيتللي غلّي. روح انقلع من هون روح . الله لايعطيك عافية .قفي من قبالي لشوف !)

ترك محمد أي «قاسم» المضافة منتصراً لكونه قد ضلّل الشرطة ومعجبا بفطنة المختار وذكائه وغادرت الشرطة قرية الكفر إلى السويداء خائبة ولم تعثر على قاسم قطّ .

كان ياما كان

عندما كنّا في سنّ الطفولة التي هي الآن بعيدة جدّاً في الزمن وقريبة جدّاً في الذاكرة. (حيث أنّ الذاكرة البعيدة لاتنسى أبداً). في تلك الآونة التي تبعد أكثر من خمسين عاماً من الآن ،كانت تتساقط الثلوج بكثرة في قريتنا الجميلة (الكفر) حيث لم يكن الإسمنت قد دخل إلى القرية من أجل أعمال البناء التي نراها اليوم بعد. بل كانت البيوت كلّها مبنيّة من الحجر البازلتيّ الأسود والطين المخلوط بالقش. والسطوح أيضاً كانت تُعمَلْ من الخلطة نفسها. وكنّا وعندما نستيقظ صباحاً بعد فترة نوم طويلة جدّاً..(حيث كنّا ننام مع الدجاجات بسبب عدم وجود كهرباء ،أوتلفزيون أو أي شيء يغريك بالسهر)، نستفيق على أصوات المواعيس التي كانت تجرّ المداحل الحجريّة المصنوعة يدويّاً في كل منطقة جبل العرب ، هذه الأصوات التي كانت تشبه إلى حدّ كبير صرير الأبواب المهترئة، كانت تترافق مع أصوات الرحت ، وهو عبارة عن مجرفة عريضة مصنوعة من ألواح الخشب ولها ذراع طويلة ، يقوم الرجال والأرامل و(هلّي ما عندها زلمي) بعمليّة جرف الثلج المتراكم على الأسطح ورميه إلى الأسفل. ثم تُرشّ السطوح بالعُورْ[١] وتُدحل عدّة مرّات وفي كلّ الاتّجاهات.

وهكذا بعد هذا العمل الشاقّ كانت تتراكم الثلوج في الدروب والزقازيق[٢] الملتوية التي تمتدّ بين البيوت . ومع استمرار تساقط الثلج ، وعدم ذوبانه تصبح

---

١) العُورْ: بقايا التبن الناعم جداً

٢) زقازيق : جمع زقزوق وهو الطريق الضيق جداً

سماكة الثلج مساوية لارتفاع السطوح . فيمشي الناس على سطوح المنازل لكي يصلوا إلى بعضهم البعض . وقرية الكفر مشهورة جدّاً بكثرة ثلوجها ، حتّى إنّها سمّيت (مزبلة السماء) ، لذلك لاتستغربوا أبداً..مجيء «زينة» أو «هدى»[1] لكن بثياب جديدة وتفكير جديد.

١) زينة وهدى : أسماء لعواصف ثلجيّة عام ٢٠١٥

ربوط الدب ، بيهرب

في شتاء ١٩٨٢ تزامن تساقط الثلوج الكثيف مع امتحانات الفصل الدراسيّ الأوّل حيث وصل ارتفاعها إلى أكثر من متر في قريتنا (الكفر).

الامتحان لن يؤجّل مهما كلّف الأمر . ارتدينا ألبسة الثلج المعهودة بما فيها جزمة البلا ستيك الطويلة الساق ، إذ لا أوان للأناقة الآن.

وصلنا إلى الثانويّة بعد جهد جهيد ووجدنا طلاّب الكفر وحبران كلّهم قد سبقونا. دخل الطلاّب قاعات الامتحان والثلج مازال يتساقط بشدّة ممّا أدى إلى إغلاق كلّ الطرقات المؤدّية للقرية . لحقنا بالطلاّ ب وكان دورنا في الطابق الثالث. دخلنا قاعات الامتحان بوجوه عابسة وقورة .

« صباح الخير.».

«.صباح النور.» ردّ الطلاّب وأسنانهم تصطكّ من البرد .

(ياالله لشوف ، كلّ واحد محلّه) . قلنا لهم.

كانت نوافذ القاعة تهتزّ من شدّة الريح والمطر ينسرب من بين زجاج النوافذ المكسّر متّجهاً نحو الأسفل على الجدار، ومشكّلاً مستنقعاً يصلح للسباحة تحت أرجل الطلاّب ومغطيّاً نصف أرض القاعة.

البرد يشتدّ والزمهرير يجمّد العروق والأوصال. اقتربت من المدفأة ، وياليتني ما اقتربت . إذ وجدت شعلة ضعيفة في قاعها كضوء السراج في حالة نزاع شديد

تحاول الارتفاع من الأعماق إلى الأعلى إنما دون جدوى .

(إنت يا حبيبي ! .لاتطلّع على ورقة رفيقك .بشلّحك الورقة هه ! .قعود على سوا) . قلت لأحد الطلاّب وعدت إلى المدفأة.

حاولت أن أمدّها بمزيد من الوقود حتّى تنشر بعض الدفء في الغرفة ،لكنّ رائحة المازوت القوية أزكمت أنفي ممّا اضطرّني لسدّه بطرف معطفي . نظرت للأسفل وإذ بي أرى مستنقعاً من المازوت تحتها . لاحول ولا قوّة إلاّ بالله . لم أعد أحتمل البرد القارس . أسناني تصطكّ ، ركبتاي ترتجفان وقدماي تتخدّران .

تركت القاعة لعهدة زميلي وركضت مسرعة إلى القاعة المجاورة، علّني أجد بعض الدفء هناك. فتحت الباب ، ويا ليتني لم أفتحه ! إذ وجدت الأستاذ ثائر يرتجف من البرد.

قلت له: (يا عمّي كيف فيك قاعد هون..عليم الله ربوط الدبّ بيهرب) . ورجعت مسرعة إلى قاعتي أجرّ أذيال الخيبة .

مضى قليلٌ من الوقت . سمعت صوت وقع أقدام مسرعة في الممرّ .عدت وفتحت الباب المخلوع مرّة أخرى ونظرت ؛ وإذ بالأستاذ ثائر يركض مسرعاً في الممرّ . (بسم الله ! شو باك يا زلمي ؟ ليش عبتركض هيك يا أستاذ ثائر ؟.خير إن شاء لله .شو صرلك ياعمي. شو صرلك ؟) .

ردّ وأسنانه تصطكّ بقوّة : (مش قلتيلي «اربوط الدبّ عندكن بالقاعة بيهرب». ها أني عبنفّذ كلامك وهربان عا لبيت من دون رجعة ، ونشالله عمره مايكون مراقبة) .

سَفَرْ

كان الوقت فجراً ومازال الضباب الكثيف يلفّ المكان . كنت أتململ في سريري وأسحب الغطاء لكي أغطي كلّ راسي وأشدّ البطانيات جيّداً إلى جسمي حتّى لاتضيع أيّة درجة حرارة حصلت عليها أثناء الليل ، عندما سمعته يقول : (أني نويت سافر بعد كم يوم) .

أحسست كأنّما سرى تيارٌ كهربائيٌّ في جسمي، وشعرت بوخز وألم في صدري. أدرت وجهي باتّجاه الحائط وتظاهرت بالنوم حتّى لايكتشفوا ما أشعر به... انهمرت الدموع من مقلتيّ بغزارة وشعرت ببرودة الوسادة تحت رأسي. كتمت مشاعري وبلعت دموعي وتناسيت همي وانقذني النعاس من كربي .

علامة ؟ لا علامة..!

أجرى مدرّس اللغة العربيّة اختباراً بسيطاً لاختبار ذكاء طلاّبه. كان السؤال على الشكل التالي:

هات أضداد الكلمات التالية:

طويل

سمين

أبيض

كبير

فكّر التلميذ «فهيم» بالإجابة. فركَ جبينه بشدّة لتخرج الأضداد المناسبة من رأسه . قطّب حاجبيه وبدأ يكتب بعد أن اكتشف ان الإجابة أسهل مما كان يتصوّر

طويل ، لاطويل

سمين ، لاسمين

أبيض ، لا أبيض

كبير ، لا كبير

فهيم ، لا فهيم

عندما أتى الأستاذ ليصحّح الأوراق صادف ورقة التلميذ «فهيم». احتار في أمره. ما العلا مة التي يستحقّها ؟ إنّه لايحبّذ إعطاء درجة «الصفر» للطلاّب ، مداراة لشعورهم. لذلك كتب في أسفل الورقة

(علامة لا علامة)

الحلم يصبح حقيقة

«قصّة زيارة المطرب الراحل وديع الصافي إلى قرية الكفر. بتاريخ ٢٠٠٩/٧/٢٤/ محافظة السويداء»

كان عاصم أخي الأصغر المدلّل يعشق المطرب الكبير وديع الصافي، وكان يقلّده باستمرار ويترنّم ويتدرّب على مواويله وأغانيه منذ كان طفلاً صغيراً ،وما من أحد في الأسرة يعلم ذلك ، حيث كان يصعد إلى الطابق العلويّ من بيتنا ويمضي ساعات طويلة وهو يغنّي له ولا يسمعه أحد. إلى أن حدث مرّة وأنا مارّة من تحت نافذة غرفته ، أن شدّني صوت شجيّ يصدر من شقوق النافذة . أرهفت السمع..يا إلهي !! إنّه صوت وديع الصافي . اعتقدت أنّه صوت مذياع أو آلة تسجيل تبثّ أغنية له. اقتحمت على أخي عاصم خلوته وفتحت الباب قليلاً . لم ينتبه إلى صوت صرير الباب واستمرّ بالغناء . ذهلت . صوت ولا أجمل . ركضت إليه وقلت : (سبحان من خلقك...وين مخبّي هالموهبة) .و(حلّفتو بالغصن والعصفور) أن يذهب ويتابع دراسته في مجال الطرب . لكنّه لم يفعل لأنّ المناخ العامّ لم يكن يشجّع على ذلك ؛ إذ يجب عليه أن يصبح طبيباً أو مهندساً.

ومنذ ذلك الحين أصبح الشابّ عاصم يحيي كثيراً من السهرات مع عائلتنا ومع أصدقائه ، حيث كنّا في كلّ مرّة نصفّق له ونعجب بصوته الرائع . إلّا أنّ الشيء الجميل في الحكاية أنّ أخي عاصم كان حلمه الدائم أن يرى أو يلتقي ولو من بعيد المطرب الكبير. لكن هيهات ! كيف له أن يراه ..؟ أين هو وأين وديع الصافي...؟ هذا في قرية الكفر وذاك في لبنان ومنها إلى أرجاء العالم كافّة. وهكذا

بدا الحلم مستحيلاً بالنسبة له .

تدورالأيّام وتذهب الأعوام ويستضاف وديع الصافي في مدينة السويداء، كُتبت له الإعلانات في شوارع المدينة.. طار عقل عاصم من الفرح . قال : سأدعوه إلى بيتي . ضحكنا. وقلنا له: هل يترك أهل السويداء وبيوتهم الفاخرة ويقبل دعوتك ؟ قال : سوف ترون.. قلبي يقول لي إنّه سيقبل دعوتي .وبالفعل استطاع عاصم أن يقابله ويطلب منه تلبية دعوته إلى الغداء ، وقبل وديع الصافي الدعوة بكلّ تواضع ،وأتى إلى قرية الكفر بصحبة ابنه طوني ،وابنته مارلين، وملكة جمال الأرز في ذلك الوقت سوزان سمعان، مع مرافق خاصّ بالمطرب الكبير، وسائق من مدينة السويداء.

اقتصر الحضور على أهل البيت من آل أبوسيف وبعض الأصدقاء المقرّبين، إذ طلب منّا أن تكون زيارته على مستوى العائلة فقط لأنّه كان متعباً من رحلته إلى مدينة السويداء.

كان الاستقبال رائعاً. طلبنا منه الغناء، فلبّى الطلب بكلّ سرور، ثمّ طلبنا من عاصم أن يكسر حاجز الخوف ويغنّي أمام العملاق..وهذا ما حدث بالفعل.. وأعجب وديع الصافي كثيراً بصوته وأصاخ السمع ، ثم صفّق له وقال: آاااه.... آاااااه....أحسنت حبيبي.. أحسنت.

وهكذا تحقّق حلم أخي عاصم..فقد رأى وديع الصافي وغنّى أمامه أغنيته الشهيرة ..»يابيتنا ال خلف الضباب « . ثم غادر القرية الساعة السادسة مساءً بمثل ما استقبل به من حفاوة وتكريم تاركاً لدينا شعوراً وكأنّ القرية قد زارها أحد القدّيسين.

أفضل وأرخص حل

في سبعينيّات القرن الماضي كانت توجد في قريتي مدرسة إعداديّة واحدة مصمّمة كمدرسة ابتدائيّة ، وعندما تقرّر إحداث تعليم إعداديّ تحوّلت إلى مدرسة إعداديّة .

كانت تضمّ غرفة إدارة يتقاسمها كلّ طاقم المدرسة والمراجعين وأولياء الأمور ، لدرجة أنّنا في كثير من الأحيان لم نكن نجد مكاناً للجلوس، فنذهب إلى بيوت الجيران لتمضية وقت الفرصة.

بالإضافة إلى غرفة الإدارة كان هناك غرفة لأمانة السرّ وغرفتان للصفّ السابع واثنتان للصفّ الثامن وواحدة للصفّ التاسع فقط لاغير. أمّا الباحة فكانت مليئة بالصخور والحجارة من كلّ الأحجام . وكان بمحاذاة هذه الصخور الرائعة الأشكال مساحات معقولة من المناطق السهلة الترابيّة ،التي كانت تتحوّل في أوائل نيسان إلى مايشبه المروج الصغيرة ينبت فيها العشب الأخضر، وأزهار البرقوق الأحمر والأقحوان الأبيض..وورودٌ صغيرة من كلّ الألوان.

كانت هذه الحديقة البكر ، البهيجة تسعفنا في الأيّام الدافئة كي نلقي بعض الدورس في الهواء الطلق . لكنّ الطامّة الكبرى هي عدم وجود مراحيض ، لا من النوع البدائيّ ولا الحديث .

إنّما وبسبب وجود الكروم والحقول بجانب المدرسة، وبعض الجيران المتعاطفين استطاع الطلّاب أن يقضوا حاجتهم هناك.

تفاقمت المشكلة وأصبح الأمر ملحّاً. لذلك تمّ الاتّفاق بالاجماع أن نطرح المشكلة على مدير التربية عندما يأتي لزيارة المدرسة.

جاء اليوم الموعود .هيّأنا الضيافة اللائقة بمدير التربية والوفد المرافق له، وارتدينا أجمل الثياب .وصل مدير التربية. رحّبنا به كالعادة ، وبدأت الخطابات.(منه خطاب ومنّا خطاب) ، حتّى وصلنا إلى الموضوع المراد طرحه. بدأنا بطرح المقترحات والحلول .

«ماذا تقترح يا رفيق.»..قال مدير التربية.

«أقترح بناء دورة مياه خاصّة بالمدرسة». ردّ أحد الرفاق.

«هلّق ما في ميزانيّة . هذا صعب الآن» .ردّ مدير التربية.

قال رفيق آخر: «نستأجر مكاناً عند الجيران.».

«كمان هذا مرفوض وغير مستحبّ». قال مدير التربية.

«نقضي حاجتنا في البيت قبل المجيء إلى المدرسة» قال معلّم يجلس في المقدّمة.

قال مدير التربية : (أني ما عندي عصا سحرية للحلّ. دبّروا حالكن !) .

وصلت الأمور إلى حدّ العراك. واذ برفيق يجلس في مؤخّرة الصفوف يرفع يده ويقول بصوت مرتفع: «ياجماعة ، ياجماعة ! وجدتها ! وجدتها !»

انفرجت أساريرنا وأستدرنا نحوه متلهّفين لسماع الحلّ ...قلنا : «هات اقتراحك يارفيق فقد كدنا نتقاتل».قال: أمّا بالنسبة للطلّاب ، (خليهن يروحوا يقضوا حاجتهم في البريّة).وأمّا نحن معشر المدرّسين ، (فكلّ واحد يجيب نونيتو معو). صفّقنا له وقلنا : «برافووو...برافووو..هذا هو أفضل وأرخص حلّ».

بيت من الشعر يصلح لكلّ زمان ومكان

في ستينيّات القرن الماضي ، أقامت قرية»الضبعة» احتفالًا مهيباً بمناسبة عيد الشجرة.

في هذا الاحتفال يحضر أناس كثرسواء من المدينة أو من القرى المجاورة . تجمّعت الحشود من كلّ حدب وصوب في ميدان القرية ، وجُلبت غراس الصنوبر والسرو ليتمّ زرعها بعد الاحتفال، كما زيّنت أبواب الدكاكين وحيطانها بشتّى أنواع الزينة ، وأصبح كلّ شيءٍ جاهزاً لصعود مختار القرية ليلقي خطبته العصماء على الجماهير.

صعد المنبر مزهوّاً بحطّته البيضاء وعقاله المنكّس إلى إحدى جانبي رأسه. كان قد كتب الخطاب على ورقة كونه لايجيد القراءة كثيراً ،لكنّه قال في نفسه : يجب أن أبدأ الخطاب ببيت من الشعر يلهب مشاعر الجماهير ويحمّسهم ،وبذلك يصبح الخطاب مؤثّرا وأكثر فخامة.

ركّز العقال والحطّة من جديد و تنحنح ثم شرب رشفة ماء لينجلي صوته. صمت الجمهور بانتظار الخطاب. (زتّ الإبرة بتسمع رنّتها) . مال برأسه يميناً وشمالاً وبدأ خطابه بهذا البيت :

وإنّما الأمم الأشجار ما بقيت   وإن هم قُطعت أشجارهم قُطعوا

انفجر الجمهور بالضحك وصفّقوا له كثيراً ودُهشوا من قدرته السريعة على تغيير بيت الشعر الذي هو بالأصل هكذا:

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الأسير

بعد معركة الكفر بحوالي الشهر وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وعاد الناس إلى ممارسة أعمالهم اليوميّة ، وفي أواخر شهرآب ، أخذ المرحوم أبو حمد شبلي ناصر سلّة القصيب ،وتوجّه إلى كرمه الكائن في (كعب القليب) ليجلب العنب . عندما همّ بدخول الكرم سمع أنينا متقطّعاً يصدر من بين أشجار السنديان القريبة من الكرم . «آه..آه..آه..».

أذهله الأمر وشعر بخوف شديد. خطا خطوتين أو أكثر باتّجاه الصوت ، وضع يده على أذنه لكي يسترق السمع أكثر. يا إلهي ! فقد فوجيء بعسكريّ فرنسيّ سنغاليّ أسود البشرة لايقوى على الحراك إلّا بشقّ النفس ، كان قد هرب من المعركة وضلّ طريقه مثخناً بجراحه. شعره أجعد أشعث ومعفّر بالتراب وثيابه ملطّخة بالدماء والأتربة وجسمه شديد الاتّساخ. لقد اقتات على الحصرم والأعشاب حتّى استطاع أن يبقى على قيد الحياة.

عندما رآه الشيخ أبوحمد شبلي على هذه الحال أشفق عليه . حمله على ظهر حماره وأخذه معه إلى بيته الكائن في قرية الكفر. ساعده على الاستحمام. نظّف جراحه وعالجها . أطعمه وسقاه وتركه ليأخذ قسطاً من النوم .

علم أهالي القرية بالأمر. تسارعوا لزيارته ، حاملين معهم الطعام والشراب. بقي الجنديّ في بيت أبي حمد شبلي مدّة شهرين حتّى شفي تماماً من جراحه واستعاد بعضاً من عافيته .

بعد مضي هذه الفترة على إقامته في القرية ، أتى بعض من وجهاء القرية إلى بيت أبي حمد شبلي وسألوا الجندي : (شو بتريد منا بعد ؟) .

قال بالفرنسيّة : « لن أنسى فضلكم ما حييت. إن الذي قدّمتموه لي يبلغ حدّ الأسطورة ، ولاأريد منكم إلّا أن توصلوني إلى حدود الأردن وبعدها أستطيع أن أتدبّر أمري » .

أعدوا الخيول والزاد والماء وبعض المال. وأسرجوا له حصاناً خاصاً ولحق بكوكبة من الرجال الأشدّاء . اتّجهوا جنوباً ناحية حدود الأردن. توقّف الركب بعد مسيرة شاقّة ومضنية . عندما وصلوا إلى نقطة الحدود الأردنيّة . نزل الجندي عن صهوة الجواد. أخذ الزاد والماء والمال. شكرهم جزيل الشكر وقال : «سأروي قصّتي هذه للاجيال القادمة ، لأولادي وأحفادي وسوف أخبرهم أنّه يوجد شعب في جنوب سوريا يُسمّى بنو معروف لم يعاملني أبناؤه كعدوّ أسير ، بل آووني وداووا جراحي وأطعموني وكسوني. أريد من العالم كلّه أن يتعلّم منهم أخلاقيّات الحروب ومعاملة الأسرى.»

عمّي بوفارس(الضبع)

كانت تكثر حكايا الغوليّة والساحرة والضبع ، عندما كانت تتساقط الثلوج وتسدّ الطرقات في ليال شتويّة ، ليس فيها من وسائل الإنارة إلّا سراج الزيت، الضوّاية، قنديل الكاز واللكس عند الناس الميسوري الحال. كانت تتكرّر حكايات مفادها أنّ زيداً من الناس قد أكله الضبع ، أو فلا ن من الناس وجد ضبعاً وهو عائد إلى منزله في ليلة ظلماء، فسبعه الضبع وصار يناديه : (هدّيلي يا خيي . هدّيلي يا خيي !) .

يقال أ نّ الإنسان في هكذا حالة يفقد الإدراك الصحيح ويتبع الضبع إلى مغارته، فيقوم الضبع بافتراسه (لفرفس عظامك قبل لحامك) هكذا يخاطب الضبع فريسته. كنّا نقوم نحن الأطفال الصغار بشدّ اللحاف إلى فوق رؤوسنا ونقطع أنفاسنا ونحن نستمع لمثل هذه الحكايا . وكانت فرائصنا ترتعد خوفاً من أن يهجم الضبع علينا من الأبواب المهترئة ويفترسنا.

والسؤال الذي خطر ببالي بعد هذا العمر المديد : هل حدث أن حضر أحد من الناس مأتماً لرجل أكله الضبع ؟ أم أنّ تلك الحكايات كانت تحكى للأطفال لمجرّد تخويفهم حتّى يناموا؟ حيث أنّ عمليّات التخويف والضرب كانت من أكثر الطرق المتّبعة في تربية الأطفال.

أنا شخصيّاً لم أسمع المنادي أو الميكروفون ينعى شخصاً عند الصباح ويقول :

(إنّا لله وإنّا إليه راجعون، انتقل إلى رحمته تعالى فلان ابن فلان الذي أكله الضبع !) .

سلامتو

عندما كنت طالبة في جامعة دمشق ، كنت أسكن أنا وشقيقي الأكبر في شقة في شارع المجتهد.

في صباح أحد الأيّام الربيعيّة رنّ جرس الباب على غير عادة. كان أخي قد غادر المنزل مبكّراً ليلتحق بعمله.

ركضت مسرعة لكي أفتح الباب . اصطدمت بباب المطبخ وسقطت على الارض بسبب السرعة والخوف من أن يكون الطارق آتياً بخبر مزعج من عند الأهل في الجبل ، حيث لم يكن حينها يوجد أيّ نوع من الاتّصالات . رنّ الجرس مرّة أخرى وبشكل أسرع وأقوى من المرّة الأولى .

فتحت الباب بسرعة والارتباك بادٍ على وجهي ، وإذ بفوزي صديق أخي وابن بلدتي على الباب وعلى وجهه إمارات الحزن والأسى.

(صباح الخير سلوى !) .

(صباح النور. تفضّل .تفضّل .خير انشالله !) .

(لا ، لا. إسّآ مستعجل .وينو خيّك . محتاجو .ضروري) .

(خير انشالله ! شو في؟ شغلتلي بالي. خيي طلع من الصبح على الدوام. شو في، بحياتك ؟).

قال بوجوم: (توفّى جاركن الشيخ بو معدّى وعطاكي عمره وبنّا نروح نشارك

بالعزا).

كان أهل البلدة كلّهم يحبّون الشيخ أبا معذّى لطيبته وتواضعه ومعاملته الحسنة لهم ؛ بالإضافة لكونه مايزال صغيراً في السن . إنّه الآن في الخامسة والخمسين من العمر. كان خبر وفاته صاعقاً ومحزناً بالنسبة لي .

ارتبكت وتلعثمت من وقع الخبر وقلت :

(لاه...لاه..لاه..لاه...شو صرلو ؟ .ياحويني عليه وعلى شبابه . لاحول ولا قوة إلّا بالله ..سلامتو...سلامتو !) .

زمَّ فوزي شفتيه بشدّة إلى بعضهما لكي يكتم ضحكة كادت أن تكون مدوّية، وشعر أنّ من واجبه ابتلاعها حفاظاً على جدّيّة وتراجيديّة الموقف، وقال بعد أن أصبح غير قادر البتّة المرور مرور الكرام على هذا الجواب :

(قال سلامتو ، قال ! ما مات وشبع موت الزلمي .ليك على هالجواب .ليك !) . ادار ظهره وصعد الدرج باتّجاه الشارع مقهقهاً بأعلى صوته بعد أن كان قبل قليل في غاية الحزن واللوعة على وفاة الشيخ أبي معذّى.

اللصّ الظريف

تسلّل «ساري» اللصّ ذو الأربع عشرة سنة خلسة عند الصباح إلى بيت «أم حسن» المحاذي لبيته . دخل المطبخ على رؤوس قدميه. جال بناظريه في كلّ أرجاء المطبخ. لم تقع عينه على شيء يستحق الذكر لكي يسرق . لذلك قرّر أن يتسلّق إلى سقيفة المطبخ. تعربش ببطء على الجدار مستعيناً بكرسيّ حتّى وصل إليها .

كانت «أم حسن» قبل دخول اللصّ قد وضعت قِدراً من الحليب على النار ليتمّ غليه ، وذهبت لإتمام أعمالها المنزليّة ناسية موضوع القَدر والحليب .

أصبح «ساري» الآن على السقيفة . انبطح على الأرض وصار يزحف على رسغيه وركبتيه كي لايصدر أيّة حركة تؤدّي إلى اكتشافه من قبل» أم حسن».

كم كان سروره عظيماً عندما رأى السقيفة مملوءة بكلّ أنواع المؤنة المعلّبة والمصنوعة في البيت مثل السردين ، تونة ، زيت ، مكدوس ، مربّى ، أطقم كاسات وصحون . فتح كيساً كبيراً (أبو قلم أحمر) كان قد جلبه معه وبدأ يضع الأشياء في داخله بكلّ رويّة وهدوء . نظر إلى الأسفل ليرى إن كان أحدهم قد دخل المطبخ .

يا إلهي ! الحليب يفور بقوّة على الغاز وينسكب على أرض المطبخ .

عندما رأى ساري ذلك صاح بأعلى صوته :

(يا خالتي أم حسن ، يا خالتي أم حسن .عجّلي .عجّلي. فاروا الحليبات على النار، فاروا الحليبات عالغاز) .

مصدر قلق

كان أبو معضاد شيخاً جليل القدر، استلم دينه في وقت مبكّر نوعاً ما ، لذلك وجب عليه أن يُطلق لحيته وشاربيه . و بعد أن أصبح جدّاً لأربعة أحفاد صارت لحيته ، ما شاء الله ، طويلة تصل إلى صدره .لكنّها احتفظت بلونها الأسود لكونه ما يزال فتيّاً . وبالرغم من صغر سنه، فقد كان تقيّاً وورعاً جدًّاً، يعمل في الزراعة ليأكل لقمته من تعب يمينه وعرق جبينه. لايأكل مال الدولة أبداً أبداً ، لأنّه حسب قناعته مالٌ حرامٌ.

كان عندما يعود من العمل ، يرتاح ويتناول طعام الغداء، وفي المساء يتابع قراءة وحفظ الحكمة ،ويضع رأسه على الوسادة وينام قريرالعين مرتاح البال حتّى الصباح . في أحد الأيّام وبينما كان يتلو الصلوات والأشعار دخل حفيده الصغير وجلس قبالته ، وبدأ ينظر إليه ويتفرّس في وجهه ، مركّزاً نظره على لحيته السوداء الطويلة والكثيفة . بعد قليل قال الصبي:

(جدّي ،جدّي ! إنت بس تنام وين بتحطّ لحيتك ، فوق اللحاف ولا تحت اللحاف؟).

تفاجأ الشيخ.بهذا السؤال الذي لم يخطر على باله قط .

عندما حان وقت النوم ووضع رأسه على المخدّة ، وضع لحيته فوق اللحاف ثم وضعها تحت اللحاف . لاحول ولا قوة إلّا بالله . غيّر وضعية نومه . تقلّب يميناً ويساراً. لكنّه لم يلقَ جنبه الراحة. ظلّ يتقلّب في فراشه إلى ساعة متأخّرة من

الليل ، لكنّ النوم جافاه. حاول أن يجمع لحيته ويضعها تحت ثيابه ، لكنّها بدأت تدغدغ جسمه ولم يتحمّل ذلك . ربطها ، رفعها أنزلها .أين يذهب بها ؟ لم يعرف أبو معضاد طعم النوم منذ ذلك الحين

وأصبحت لحيته مصدراً للقلق طيلة حياته .

بتهرّ ولاد من عيونها

توفّيت أمّ هزّاع تاركة من الأولاد عشرة . خمسة ذكور وخمس إناث، كان معظمهم قد تزوّج .

حزن أبو هزّاع حزناً شديداً على أمّ العيال ، وذرف من الدموع مالم يذرفه أحد من الرجال على فراق زوجته ، وأصابه اكتئاب وصدمة أخافت أولاده من أن يلحق بأمّهم .

لم يمض على حالته هذه أسبوع حتّى استفاق من صدمته .(خزى إبليس وصار ينقّش مغزلو. ويسري من بكاكير الله على قرى جبل العرب)

(صبحك بالخير يابو هزاع..شو باك يازلمي حايص ومحتارة حيرتك ؟..وين ساري على هالصبح.؟).سأله جاره أبو هلال.

(والله وصفولنا وحدي بهالمقرن الشرقي . بتعرف مش حلال نظل بلا مرا . ماعاد بيسوالي .تأخّرت كثير . ياخيي ، أعزب دهر ولا أرمل شهر) . ردّ أبو هزّاع.

(ومن وقتها ما كان يعود يجيبه لبو هزاع قعود، وبلّش فيها درز من العفينة على حبران ، قبلي على عرمان ، على ملح ، على الرشيدة . بعدين غرّب تغريب على العجيلات ، ونفّذ من مجدل الهنيدات . بس ما مشي الحال وما توفّقش. رجع على بيته بديرة الرهبان، على بنى إنّو يسري بكرا سروي ويعمل جولة ثانية).

زاره صديقه ابو نايف في المساء بعد أن لاحظ حيرته الشديدة وقال : (يازلمي

لوين عبتشرّق وبتغرّب) .

(عليم الله إنّو بنت جيرانا فدوى، بتشيل النغصة من القلب والتطليعة فيها بترد الروح ، ومعثّرة وبنت حلال ومن بلدنا . شو رايك يابوهزّاع ؟)

عندما سمع أبو هزاع هذا ، فتّح عينيه وفنجرهما وصار يتحرقص حرقصة. ركّز عصبته وفتّل شاربيه ، ولم يصدق ما سمعته أذناه .

تابع أبو نايف كلامه وقال : (لو بتدوّر الجبل حكر ووكر مش راح تلاقي مثلها. والأحسن من هيك إنها فرفورة وبعدها صغيرة وفتية وبتربيها على إيدك وبتهرّلك ولاد من عيونها هرّ) .

لم يكذب ابو هزاع الخبر وتمتم في نفسه : (العمى وين كانت متخبّيي فدوى هذي وغايطة عن بالي) . وقال : (أني أبطلعش من تحت خاطرك خيي بونايف ونشالله مش راح خلّيك إلّا مبسوط) .

بعد أسبوع كانت فدوى الفرفورة عنده بالدار المعمورة . وعاش العمّ أبو هزاع عمراً جديداً يتمنّاها لكلّ (سديق، وهرّتلو فدوى الفرفورة خمس ولاد بشيلوا النغصة من القلب . قاسم وفرحان وسليمان من الصبيان وسليمة وسلميّة من البنات . وعاشوا باللذة والنعيم ويطيّب عيش السامعين) .

الرصد

تبدأ رحلة الرعب لدى «سلمى» ابنة الاثنتي عشرة عاماً عندما تركت قريتها الراقدة أسفل الجبل تضاء على ضوء قنديل الكاز الخافت ، ولايعكّر صفوها إلّا نباح كلب هنا وعواء ذئب هناك..تركتها لتذهب إلى المدينة لإتمام المرحلة الإعداديّة .

كانت قد سكنت مع أختها وأخيها الأكبر منها سنّاً في حارة قديمة جدّاً ، بنيت في زمن اليونان والرومان وكثرت فيها الطرقات الضيّقة والبيوت الحجريّة السوداء المبنيّة فوق خانات معتمة وعديمة التهوية. وتتخلّل حاراتها الزواريب الملتوية. كانت هذه الحارة بخاناتها القديمة، وحسب اعتقاد أهل المدينة مرتعاً ومسكنا للعفاريت والرصد.

في ليلة من ليالي الشتاء العاصفة المثلجة، ذهبت أختها الأكبر منها سنّاً إلى النوم باكراً، وذهب أخوها للدراسة عند أصدقائه ، كعادتهما دوماً تاركَين سلمى وحيدة دون مدفأة، مع ضوء خافت ينبعث من لمبة متدلّية من السقف. كان عليها إتمام دروسها وفروضها المدرسيّة في الليل حين تخمد الضوضاء من المكان ويصبح الجوّ ملائماً للدراسة.

اندسّت تحت اللحاف القديم ، وأخذت وضعيّة القرفصاء لكي تستطيع الكتابة محاولة التكوّم على نفسها قدر ما تستطيع لتجمع قليلاً من الدفء حولها.

ما إن فتحت سلمى الكتاب لاستذكار دروسها حتّى بدأت تسمع أصواتاً غريبة

تحت الغرفة قرقعة ، رفس ، وقع حوافر . تسارعت دقّات قلبها وسقط الكتاب من يدها . يا إلهي !! إنّه الرصد . خُيّل إليها أنّه سيثقب أرض الغرفة وينقضّ عليها ويتلبّسها فوق أكتافها.

غطّت رأسها وقطعت أنفاسها وتجمّدت في مكانها ، حاولت أن تنام علّها تنسى ما هي فيه، لكنّها لم تفلح . العفريت لم يتوقّف عن الطرق . السماء في الخارج تمطر بشدّة، والثلج يتساقط بكثرة. شعرت بعطش شديد ولايوجد ماء في الغرفة. الخابية موجودة تحت ، أسفل البيت على كعب شجرة التوت المعمّرة مقابل باب الخان الذي يسكنه الرصد مباشرة .

لاتستطيع أن توقظ أختها ،لأنّها إن فعلت فسوف تصرخ في وجهها وتضربها في الصباح . «ياربّي ، ساعدني !» . توسّلت إليه ولم تعد تتحمّل العطش أكثر . استجمعت قواها وقرّرت أن تأخذ الطاسة وتملأها من الخابية . فتحت الباب بكلّ هدوء. سكون مطبق وظلام دامس .

تسلّلت خارج غرفتها،ثم نزلت درجتين إلى أن أصبحت بجانب الخابية . همّت برفع الغطاء المصنوع من القش ؛ فإذا بجنّي يهبش وجهها ويتشبّث بشعرها ويصرخ. «واع..وااق..وق..وق.ووق..»

رمت الطاسة وجرَت باتّجاه الغرفة. تعثّرت بحجر كبير.(دخيييلللك ..يا إمممميي) . صرخت بصوت مخنوق. (إجاني الرصد .إجاني الجان !) .لم تسمع إلّا صدى صوتها . وقعت على الأرض وتبلّلت ثيابها بالماء والوحل.

لم تعرف كيف وصلت إلى الغرفة واندسّت في فرشتها. غلبها النعاس ، ونامت نوماً بشعاً تخللّته نوبات من الصراخ غير الواعي والهذرمة المتقطعة .

تمييز عائليّ

كان «سند» و «كاظم» من أنبل شباب الضيعة حسناً وجمالاً ، وتربية وعلماً وأخلاقاً. يتشابهان بالشكل كثيراً . طول فارع ممشوق و عيون خضراء ، شعر أشقر كثيف وبشرة بيضاء لامعة كالأوروبين . بالإضافة إلى ذلك كان «سند». (دبّيك) وراقص من الدرجة الأولى .بينما كان «كاظم»..يتمتّع بصوت شجيّ يشبه صوت وديع الصافي. لكنّ الفرق الوحيد كان أنّ «سنداً»ينتمي لعائلة كبيرة العدد، ومعروفة على مستوى الجبل ، بينما كان «كاظم» ينتمي لعائلة صغيرة العدد وغيرمعروفة لكنّها محترمة.

كان الاثنان يعملان في أيّام العطل الصيفيّة بأعمال طلاء البيوت لكي يؤمّنا مصروفيهما الشخصيّ ويعينا والديهما في تخفيف الأعباء المنزليّة ، شعور رائع يدلّ على نبلهما وحبّهما للاعتماد على النفس.

في أحد الأيّام الصيفيّة ارتدى «سند» شرواله الأخضر الفستقيّ الملطّخ بكلّ مايخطرعلى بالك من ألوان ،أحمر ، أصفر ، أبيض ، خرابيش ، بقع ملوّنة وحراماً قديماً ملطّخاً كذلك بشتّى الألوان وحذاءً قديماً كان يشحطه شحطاً على الأرض ونظّارات سوداء لكي تقيه سقوط الطلاء على عينيه .

فعل «كاظم» الشيء نفسه وتوجّها إلى القرية المجاورة للعمل لدى السيّد «أبي فرزان».

بدأآ العمل بهمّة ونشاط ومرح ، كان يتخلّله بين الحين والآخرنوبات من الضحك

الشديد ، ومقاطع غنائيّة جميلة يغنّيها «كاظم» مترافقة مع دبكات ورقصات بديعة من قبل «سند».

بعد قليل دخل السيّد «أبو فرزان» ليتعرّف عليهما ويتفقّد العمل.

(يعطيكن العافي ، شباب).

(الله يعافيك يا عمّي) .

توجّه العمّ «أبو فرزان» بناظريه باتّجاه «سند» وقال: (ابن مان إنت عمّي.؟) .

(أني ابن متعب الحمدان.) . ردّ «سند».

(إنت ابن أبو غالب متعب ؟ يا حيّا الله ، ياحيّا الله . بو متعب ماغيرو ؟ والسبع تنعام منّك ومن بيّك ومن كلّ بيت الحمدان . أماني ، أماني ، تسلّملي على بيّك وتبوّسلي ياه بين عيونو !) .

(بيوصل سلامك .تسلم ياعمّي). ردّ «سند»مبتسماً.

ثم توجّه أبو فرزان بنظره باتّجاه «كاظم» وسأله السؤال نفسه :

(وإنت عمّي. ابن مان ؟)

ردّ كاظم بكلّ أدب واحترام وقال:

(أني ابن بوهلال حسن الوقيّي) .

(أمممم ، أممم) . ردّ أبو فرزان بكلّ سخرية واستخفاف .

(لكان قلتلي إنت من بيت الوقية ها ؟ وإبن بو هلال ؟ ومن هن بيت الوقيي هذول دخلك ؟ أني بعمري ماسمعت بهالعيلة من قبل ! قال بيت الوقية ، قال !) .(وقفا بظهره) مقهقهاً بأعلى صوته.

اقتلاع الجذور

عاش الشيخ أبو حمد في بيت مبنيّ من أحجار البازلت السوداء المنتشرة بكثرة في جبل العرب ، ومكوّن من مضافة وغرفة خاصّة بالعائلة وبيت (للطحش).

كان يحيط بالبيت أرض ديار مبلّطة برقائق حجريّة غير مشذّبة، تتوسّطها شجرة توت معمّرة زرعها جدّه.

لقد ورث هذا البيت عن أبيه. ولد وترعرع وتزوّج وأنجب أولاده الستّة فيه. كان هذا البيت كلّ شيء بالنسبة له. يأتي الرجال عندما يسمعون دقّة المهباج، ويشمّون الرائحة الزكيّة المنبعثة من القهوة البرجاسيّة التي كان يغليها على نار الحطب. يأخذون رشفات زكية منها عنده كلّ صباح ويتبادلون أطراف الحديث، ويتناقلون الأخبار عن بطولات سلطان الأطرش والثوّار إبّان معاركهم ضدّ المستعمر الفرنسيّ.

كان له مع كلّ حجر من أحجار هذا البيت حكاية ورواية. وقد أصبحت هذه الدار ومحتوياتها جزءاً لايتجزّأ من كيان ووجدان أبي حمد ، لدرجة أنّه أبى أن يبدّل مخدّته المحشوّة بالريش بأخرى محشوّة بالديباج .

في أحد الأيّام ، جاء ابنه البكر حمد بصحبة متعهّد من القرية. بدأا الأحاديث فيما بينهما وكأنّهما يعقدان اتّفاقا ما. تجوّلا في جنبات الدار ،حارا ودارا. تقدّم الشيخ أبو حمد من ابنه وسأله:(خير ياابني ، شو في .شو بكن حايصين حوالي هالدار ؟).

ردّ حمد بكلّ برود ولامبالاة :

(بنا ننسف الدار ، ونعمّر مطرحها بناية).

أحسّ أبو حمد بالغثيان والقشعريرة ، ونظر إلى حمد نظرة الأب الذي لاحول له ولا قوة وليس له سلطة أو كلمة بعد مابلغ من العمر عتيّاً وقال:

(بس صبور عليي لموت يابيي وعمال هلّي بدّك اياه . أني روحي وذكرياتي وذكريات جدودي بهالبيت. برضاي عليك. لاتهدم البيت).

وأكثر ما حزّ في نفسه أن تقوم الجرّافات باقتلاع شجرة التوت المعمّرة ، حيث كان أبو حمد يكرّر باستمرار وعلى مسمع من أولاده : إيّاكم يا أولادي أن تقلعوا شجرة التوت هذه ، حياتي مرتبطة بحياتها. إن قلعتموها فسوف أغادر هذا العالم.

(أني استأجرتلّك شقّة .جهّز حالك إنت وإمّي.بكرة رح نترك البيت) قال حمد لأبيه .

عند الصباح قامت أمّ حمد بجمع أغراض زوجها ، ووضعتها في حقيبة التنك العتيقة ، ووضعت حاجياتها وثيابها في الصندوق المطعّم وبدأت عملية الرحيل إلى الشقّة الجديدة .

عندما وضع أبو حمد رجله على عتبة المضافة، وهو خارجٌ منها لآخر مرّة في حياته سقطت الدموع على خدّيه ولحيته البيضاء ، وكاد أن يهوي على الأرض رغم تمسّكه بعكّازه ومساعدة أم حمد له.

لم يستطع أبو حمد أن يتأقلم مع حياته في الشقّة الجديدة ، وأصيب باكتئاب وحزن عميقين، ولم يعد بمقدوره الخروج لرؤية أصدقائه ، وهم كذلك ، بسبب

صعوبة الصعود على الدرج. قلّ طعامه. شعر وكأنّه كالأسد المحبوس والمكبّل بالأغلال. بدأت قواه تخور، وأصبح كشعلة سراج تتلاشى رويداً رويداً حتّى تنطفئ.

لم يطل الوقت كثيراً ، إذ في ليلة من ليالي الشتاء العاصفة ، قال لأمّ حمد بصوت ضعيف بعد أن شعر بضيق شديد في تنفسه :

(ب....ع....ث...يلي...ورا..حم..د...بسر...عة).

أرسلت أم حمد بطلب ابنها بسرعة البرق.

لم يدر حمد كيف ارتدى ثيابه وركض مسرعاً. صعد الدرج المؤدّي إلى الشقّة وفتح الباب بيديه المرتجفتين لاهثاً من شدّة الخوف والهلع.

(خير.خير يا إمّي .شو با بيّي ؟ شو صرلو؟.).ودخل مسرعاً باتّجاه غرفة والده ليرى ماذا حدث له وليطمئن عليه.

كان الأوان قد فات.

كان أبو حمد قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبل وصول حمد. صرخ حمد صرخة اليائس وقال:

(آه..آه....ياريت يابيّي سمعت كلامك وما خلّيتك تترك بيتك . ياريت يابيي كان يومي قبل يومك وما سكنّتك بهالشقّة !).

يمكنكن اشتقتولي !

قرّر «أبو مرعي» المقيم في إحدى قرى لبنان أن يزور أقرباءه المقيمين في قرية من قرى جبل العرب الشرقية. حزم أمتعته وأخذ معه التين المجفّف والزعتر البرّيّ، والشيح والخرّوب والزيتون، ومطرة من زيت الزيتون والكعك ، وبعض الأطعمة غير الموجودة في الجبل.

كان ذلك قبل ستّين عاماً من الآن ،حيث لم يكن يوجد إلّا (بوسطة) وحيدة تغادر حاصبيا في الليل وتصل السويداء في الليل أيضاً.

كانت الرحلة شاقّة ومتعبة ، وبعد عناء وصل أبو مرعي إلى القرية ، وحطّ الرحال عند قريبه «أبي مثقال.»

كانت فرحة «أبي مثقال» وعياله كبيرة جدّاً ، ورحّب بقريبه أفضل ترحيب.كان الوقت أوّل يوم من كانون الأوّل.

في اليوم التالي أقام أبو مثقال وليمة غداء مكوّنة من ديك عربيّ مع الملاحية ،والبرغل والسمن العربي، دعا إليها الجيران والاقارب كما هي العادة وكما يمليه عليه الواجب. في الليل عمرت الأفراح والليالي الملاح وغنّى أبو مرعي الميجنا والعتابا بصوته اللبنانيّ الجميل وأطرب الجميع .

كان الجوّ يزداد برودة وأصبح المطر مدراراً، والثلوج تتساقط بشدّة ، إلّا أنّ ذلك لم يمنع الجيران والأقارب من تأدية الواجب ودعوة أبي مرعي إمّا للعشاء أو للغداء أو للفطور. بعدها كان ينام دائماً في بيت أبي مثقال قرير العين.إلّا أنّ

الأحوال كانت صعبة ، والفقر شديد، والأمور عسيرة على الناس ، حيث لا كهرباء ولا ماء داخل البيوت المصنوعة من الحجر والطين، والمكوّنة في أحسن الأحوال من مضافة لصاحب البيت والضيوف ،وغرفة لبقيّة أفراد العائلة المكوّنة من عشرة أفراد وما دون . وحلول ضيف في الشتاء وبمثل هذه الظروف كان مسألة محرجة جدّاً.

استطاب أبو مرعي المقام ، وبقي على هذه الحالة لمدّة شهرين (من بيت اشقع لبيت ارقع) وعلى أهلا وسهلا وحيّ الله .

لكنّ أبا مثقال وأم مثقال ضاقت بهما الحال. لقد استنفدا كلّ مؤونة البيت التي كانا قد خبّآها لأيّام الشتاء الضيّقة. (الطحينات صاروا من تالي والحطبات قللو كثير).كما أنّ أقارب أبي مثقال ضاقوا به ذرعاً .وأصبح أهل القرية (يلطّشون) كلّما رأوا أبا مثقال ، وأصبح محطّ تعليقاتهم ومزاحهم .

(شو بعدو ما فلّش بو مرعي يا...؟) سأل أحدهم.

(لك شو هالضيف الثقيل؟) قال آخر .

(شو كيف حال هالشوفاني خيي بومثقال ، بدوش يزيح عاد؟).

وكلّهم أهون من أمّ مثقال حيث قالت لزوجها في إحدى الليالي:

(شوف بومثقال ،طفح معي الكيل وما عاد فيي متحمّلي أكثر ،دير بالك..هه !)

(يا فيي يابو مرعي ! أني فاللي وتاركتلك البيت لعند أهلي ومش راح إرجع لمنّو يزيح عنّا . العمى على هالحالي .أفّ..يا..!)

تأزّمت الحكاية كثيراً وأصبح الوضع لا يطاق. (لكن مافي ولا شدّي بتدوم). إذ بعد ماهلّ شباط ومضي شهران على إقامته في بيت بومثقال ، استيقظت الاسرة

على صوت (كركشة).

أسرع أبومثقال إلى المضافة (ليشوف شو صار) ، فوجد أبا مرعي يضبضب أغراضه .

(شو خير يابو مرعي ،ليش عبتضب غراضك؟). قال بومثقال.

(البلاد اشتاقت لأهلها ياخيي وبدكن تسمحولي عاد .إن الله راد بكرة بدّي ودعكن ولولا كثرة هالثلج كنت ناوي ظل عندكن للربيع ، بس يالله الأيّام لقدّام ويوم من يوم قريب.) .ردّ أبو مرعي .

أسرع أبومثقال ليزفّ الخبر لأمّ مثقال والأولاد.وقال في نفسه : (ضيف ليلي ماعمّر بلد والصبر مفتاح الفرج).

(شفتي ياإمّ مثقال . أخيرا الله فرجها علينا . هذا بو مرعي عبيقول بدّو يفل. شفتي ، لو صبرتي وحّدتي) .

لم تصدق أم مثقال ما سمعته أذناها . وماكان أشد سرورها عندما انزاح هذا الكابوس عن كاهلها. لذلك زهبته بالزبيب والدبس ومن الموجود ، ثم أودعوه البوسطة، وحمّلوه أطيب السلام إلى الأهل والأقارب . تمتم أبو مثقال قائلا: (درب يسدّ مايردّ) .

بعد حوالي أسبوع حيث ازداد تراكم الثلوج كثيراً في القرية.

جاء صديق أبومثقال إليه مسرعاً يطرق باب المضافة بقوّة.

(خير ، خير . شو في؟ بوجهك حكي يابو تيسير) .أسرع بومثقال وفتح باب المضافة.

(انشالله خير. بس بديش خوّفك كثير. مبارح كنت بالسويدا وقالولي إنو في إلك

برقية مستعجلي جدّاً جدّاً ولازم اليوم قبل بكرة تروح تجيبها !). ردّ بوتيسير.

(ياحول الله ! شغلتلي بالي يازلمي . ما قلّكش من وين ؟) . سأل أبومثقال.

(لا ، لا. ما بسلّموها غير إلك شخصيّاً ، وبدّك تبصم عليها كمان) . أجابه أبوتيسير

كان الوقت مساء ولم يعد بإمكان أبي مثقال أن يذهب الى السويداء لاستلام الرسالة .

لم يغمض له جفن تلك الليلة ؛ إذ غزت رأسه الأفكار السوداء المخيفة ، وقال في نفسه : (انشالله مايكون حدا من قرايبنا صايرلو شي لا سمح الله !) ، ولم ينتظر حتّى يبزغ الفجر بل ركب (البوسكليت) والظلمة تلفّ المكان، والمطر المصحوب بالثلج مازال ينهمر بغزارة . ولم يكن بمقدور السيّارة الوحيدة التي تذهب إلى المدينة أن تاتي اليوم بسبب سوء الطقس.

أمضى معظم الطريق راجلاً، وقليلاً منه راكباً على الدرّاجة. وبعد معاناة أربع ساعات مضنية متتالية من المسير ، وصل إلى المدينة وظلّ متوجّهاً بسرعة إلى البريد بعد أن بلّله المطر .

بدأت دقّات قلبه تتسارع ، وحرارته ترتفع خوفاً من مضمون الرسالة.

دخل الغرفة المخصّصة لاستلام البرقيات وأعلن عن اسمه . أعطاه الموظّف الرسالة وطلب منه أن يضع بصمته ، ففعل.

خطف أبومثقال البرقية من يد الموظّف خطفاً ، وأسرع إلى خارج مبنى البريد ليقرأها. إ لعل فيها شيئاً خطيراً !

شقّ المغلّف الخارجيّ ثم بدأ بشقّ الظرف الأصغر.

ياللعجب! لم يجد داخله أيّة ورقة ، بل وجد صورة شخصيّة قديمة و(مجعلكي) بالأبيض والأسود كالتي توضع على الهوية . وضع نظارته ليرى ملا مح الوجه بوضوح .وإذ به يرى صورة «أبي مرعي» يا إلهي !) .

(ليكون صرلوا شي الزلمي.لاسمح الله!) . قال أبو مثقال ثم قلب الصورة على قفاها باستعجال ،وإذ به يجد العبارة التالية :

(قلت لحالي بتكونوا اشتقتولي . هذي صورتي بتنوب عنّي).

(المشتاق إليكم جدّاً..جدّاً..أخوكم . «أبو مرعي»   )

شعر أبومثقال بدوار شديد في رأسه ، ووخز في صدره، وسقط على الأرض مغشيّاً عليه ولم يجد نفسه إلّا في المستشفى.

فضول

في ستّينيّات القرن الماضي ، فتحت الكويت أبواب السفر للشباب من كلّ أنحاء البلاد.

عاد الشابّ «مرزوق» بعد خمس سنوات بصحة جيدة مصطحبا معه مسجّلة وقليلا من النقود

عندما علم العمّ «بو تركي» بقدومه ، ذهب منذ الصباح الباكر ليسلم عليه بعد هذه الغيبة الطويلة في دولة الكويت .

(صبّحكن بالخير ياجيرانا..الحمد لله على سلامتو مرزوق. شلونو وشلون صحته. عليم الله ! اشتقنالو كثير) .

في هذه الأثناء كان دخل مرزوق حاملا معه المسجّلة .

(يا حيّالله عمّي بو تركي . يا حيالله .مشتقلك كثير عمي بو تركي ، الله خبير!).

الحمدلله على سلامتك ياابني. كيف حال ما تقضالك يامرزوق؟انشالله توفّقت بهالسفرة؟) . قال بو تركي.

(الحمدلله ياعمّي ،بنعمي .بنعمي) . ردّ مرزوق.

(قديش جايب معك مصاري ياعمّي؟..١٠٠ الف؟

(الحمد لله ، الحمدلله. مستورة). ردّ مرزوق.

(قديش ياعمّي ياتركي ؟ تسعين ألف؟).

(مستورة .مستورة) ردّ مرزوق ولم يعطه رقماً محدّداً.

ازداد فضول أبي تركي كثيراً وقال:

(طيب ، سبعين ألف ؟).

(لا ، أقل شوي) . ردّ مرزوق.

(طيب ، خمسين ألف ؟).

(لا ، لا ، أقل شوي عمّي بو تركي).

(لكان تلاثين ألف !)

(أقل ، أقل) .ردّ مرزوق بخجل .

(معناتها ، جايب معك عشرين ألف !)

(لا د لا ، أقل ، أقل) .

بدا الفضول وحبّ الاستطلاع شديداً على وجه أبي تركي وقال منفعلاً:

(عشر تألاف ليرة سوري ، وحرام عليك إذا بتقول لأ) .

سامر

كان «سامر»..كلّما خرج من البيت يقول لأمّه قبل ما يطلع: (بدّك شي يا إمّي ؟) .

فتردّ عليه بكلّ حبّ وحنان: (لا يمّي بديش شي .بدّي سلامتك ياحبيبي!) .

قبل ان يذهب إلى المدرسة: (بدّك شي يا إمّي ؟) .

(لا ! ياعيوني .لو بدّي شي كنت قلتلك !) .

(إذا بدكن شي أني جاهز ، أتستحوش منّي هه ، جميلتكن على حالكن نْطرا) .

وقبل ان ينام:

(بدكن شي ، محتاجين شي ؟) .

(لا ياتقبرني بديش غير تكون مرتاح ومبسوط . روح نام ياسندي. نوم الهنا نشالله) .

كانت أمّ سامر تقف على رأس السيبة وتنظف سقف المضافة ، لكنّها نسيت ان تأخذ سطل الماء الموضوع على الأرض معها .

مرّ سامر في هذه الاثناء من المضافة ، وكعادته نظر إلى إمه وقال :

(بدك شي يمّي ، محتاجي شي ؟) .

ردت عليه وقالت : (آ ، يمّي آ ، بحياتك ، بدّي كلّفك ياعيوني بلكي تناولني

سطل هالميي . ليك وينو ! عاكعب السيبي !) .

(حلّي عني ،مش فاضي !) . رد سامر وخرج من الدار ولم يعد حتى مغيب الشمس عندما انهت أمه أعمال (العزالي) .

الله لايردّو !

كانت أمّ فوّاز امرأة خفيفة الظل وتحبّ الفكاهة كثيراً، ولاتحبّ التصنّع والظهور بمظهر السيّدات المتكبّرات والمدّعيات .بل كانت دائما تتصرّف على سجيتها. تلقي بخفة روحها أينما ذهبت. تحبّ كلّ الناس ولم تشتم أو تسبّ أحداً من الناس طيلة عمرها.

في إحدى الليالي الظلماء الباردة حيث كان الثلج يصل إلى الركبة، شعرت أمّ فوّاز بالملل الشديد . لاكهرباء ولا دفء ، وزوجها كان قد توفّي منذ زمن بعيد ، وأولادها قد سافروا وبقيت هي وابنتها (جوليا) وحيدتين في البيت.

قالت لها : (قومي ولوو يمّي لنروح نسهر عند جارتنا أم تركي .منّو منقشعها لأنّه إلنا شي عشرين يوم ماشفنهاش ، ومنّو منشربلنا كاسة متّي ومنقطّع هالسهرة).

سُرت جوليا كثيراً وقالت لها : (يالله قومي لنلبس أواعينا ونروح . بس خلّينا نتّصل فيها بالتليفون ، لعلّها مش بالبيت).

(مسّيكي بالخير خالتي إمّ تركي، بنّا نجي نسهر عندكن أني وإمّي إذا فِشْ عندكن مانع).

(أهلا وسهلا ! بتشرّفوا إيمتا مابتجوا). ردّت أمّ تركي ، وأسرعت بارتداء لباس العزاء الأسود «تنورة عربي ومملوك أسود مكسّر، وفوطة يشما شديدة البياض»، وتلثّمت وجلست بجانب المدفأة بانتظار قدوم أمّ فوّاز وابنتها.

رنّ جرس الباب، فأسرعت أمّ تركي لكي تفتحه بعد أن تلثمت واتّخذت هيئة من

سيقدم لها العزاء ، وكان نظرها يتّجه نحو الأرض احتراما للموقف.

(مسّيكي بالخير يختي إم تركي).قالت أمّ فوّاز، والضحكة بادية على وجهها.

(مسيكي بألف خير. تفضّلوا.تفضّلوا !) . ردّت أمّ تركي .

مشت نحو غرفة (القعدي) بخطاً بطيئة ، ومسحة من الحزن والوقار ظاهرة على وجهها. .لكنّ أمّ فوّاز لم يلفت نظرها أيّ شيء من كلّ هذا، أو أنّ شيئاً غيرعاديًّ قد حدث في بيت جارتها أمّ تركي . بل لحقت بها متبسمة وفرحة على عادتها ، ثم جلست على الفراش المحشّو بالكرارة قبالة ام تركي تماما .

مدّت أمّ فوّاز رجليها القصيرتين ونزعت جواربها ووضعتها تحت الفراش ، وكادت قدماها القصيرتان أن تصبحا في حضن أمّ تركي ، وبدأت بالكلام :

(دخلك يا إم تركي ،ليش ماعدناش شفناكي ولا عدتي طلّيتي علينا .العطش اشتقنالك كثير. ولوّ هيك الجيران بتكون ؟). كلّ ذلك وهي تبتسم وتضحك غير منتبهة للباس العزاء.

ردّت أمّ تركي بكلّ حزن وقالت: (ولو ياخالتي إمّ فواز..ليش ماعرفتيش إنّو توفى جدّي..ما أني صرلي عشرين يوم بالمشنّف عند أهلي ومبارح بعدني جيت)

ردّت أم فوّاز ضاحكة: (شو قلتي ؟ توفى جدّك ؟ قديش عمره دخلك).

ميت (١٠٠) سنة يا خالتي ام فواز .

(ميت سنة . أا.الله لايردّو..نشالله) قالت أمّ فوّاز.

(يه ، يه ، يه .شو عبتقولي يا خالتي إمّ فواز ؟ هذا جدّي ،هذا جدي. ولوّو!)

ردّت أمّ فوّاز وقدماها ماتزالان أمام وجه أمّ تركي وأمام حضنها مباشرة وهي

ماتزال تضحك :

(يابو براهيم دخلك ! ميت سنة ؟ .آ ،، الله لايردّو !).

كان أولاد أم تركي الشباب والبنات شاهدين على كلّ هذه المسرحيّة الكوميديّة.

عندما سمعوا كلام أمّ فوّاز ، انفجروا جميعا بالضحك بما فيهم أمّ تركي. قالت لابنتها. (.قومي يمّي قومي جيبيلنا عدّة هالمتّة . انشالله عُمْرو ما يكون حزن. جدك زلمي شبعان من عمره ومحلولي بينا وبين خالتك أمّ فوّاز) . قامت أمّ تركي شلحت الأسود والفوطة، ولبست القلابيّة والإشارب، وانقلبت السهرة للتندّر وذكر نهفات (عمّتكن أمّ فوّاز) وخاصّة هذا الموقف الأخير عندما ظنّت أمّ تركي أنّ أمّ فواز وابنتها جوليا قد جاءتا للتعزية بالمرحوم جدّها.

الله يرحمك ياستّي !

خطر ببالي أن أكتب عن حياة المرأة على دور حياة ستّي ومقارنتها بحياة المرأة اليوم.

كانت المرأة في جبل العرب لها طريقة بالعيش فرضتها عليها طبيعة المنطقة، وعاداتها وتقاليدها التي كانت تختلف نوعا ما عن أخواتها في بقية أرجاء سوريا.

لم تكن الفتاة تدخل المدرسة إلّا ماندر،وإن فعلت فإنّها كانت تتعلّم على يد شيخ لتحفظ كتابة الأحرف وتهجيتها بقصد أن تستطيع أن تكسر(تفكّ حروف) في كتب الحكمة.

حين تصل عمر الرابعة عشر أو الخامسة عشر ؛ كانت تتزوّج من أوّل خاطب لها، لأنّهم كانوا يعتقدون أن أوّل نصيب هو الأكثر بركة ،ولم يكن لها رأي في اختيار شريك حياتها ، حيث كان هذا الأمر من شأن الأهل ،ومن المعيب عليها أن تقع في حبّ أيّ شابٍّ ، وإذا علم الأهل أن ابنتهم تحبّ شابّاً ما؛ فإنّهم سرعان ما يزوّجونها برجل آخردرءا للقيل والقال.

عندما تصبح في بيت زوجها تأخذ معها جهازها المكوّن من بدلة عربي مع قميص أبيض مزهّر تحتها وتوابعها وقليلاً من الحاجيّات البسيطة ،ويجلب لها زوجها الصندوق المطعّم لتضع فيه أشياءها لتبدأ رحلة التعب والشقاء.

ولكونها كانت تتزوّج صغيرة السنّ ، وبسبب عدم وجود موانع للحمل من جهة ، واعتبار تحديد النسل حراماً ومعارضة لإرادة الله ، فقد كانت المرأة تلد ما يصل

أحياناً إلى أربعة عشر ولداً ، أقلّها خمسة أو ستّة أولاد.

ماهي الأعمال اليوميّة التي كانت تقوم بها..؟؟

كان عليها أن تستيقظ مع طلوع الضو لكي تغسل أكوام الغسيل يدويّاً وبالصابون فقط ..حيث لم تكن موادُّ التنظيف الحاليّة متوفّرة ... كانت تدعكها وتفرفكها كلّ قطعة على حدة ، ثمّ تقوم بغلي البياضات في طنجرة ألمنيوم كبيرة مع برش الصابون على نار الحطب ، وتضع الثياب الملوّنة في وعاء ثانٍ..وبعد الانتهاء من عملية التشطيف والعصر تقوم بنشرها على حيطان الدار والأشجار، لتجفّ تحت أشعّة الشمس.

هذه العمليّة كانت تستغرق من ثلاث إلى أربع ساعات، ثم تقوم بعدها بكنس أرض الدار الترابيّة والمليئة بالأحجار بمكنسة القشّ التي جلبتها من (مروج الريح) البعيدة عن البلدة . بعد ذلك تقوم بإطعام (الطرش : البهائم والحيوانات من غنم وماعز وأبقار) ، وتحلبها وتصنع اللبن والجبن . ثم تقوم بإطعام الدجاجات ولمّ البيض من تحتها ، بعد ذلك تقوم بتنظيف حظيرة الأغنام وتنظف خمّ (قنّ) الدجاجات ، وتطعم الحمار وتنظّف تحته ، لكونه وسيلة النقل الوحيدة في كلّ بيت ، مع وجود الجمال والخيول في أحيان كثيرة .

وهكذا لم يكن لديها الوقت لترتاح أبداً ، حيث عليها أن تحمّم الأطفال الصغار، وبعدها تبدأ بتحضير طعام الغداء الذي هو غالباً ما يكون : مجدّرة ،كشك،طبيخ صايط ، مخلوطة ، معكرونة بكشك ، طبيخ حمص ، عميشة ، شيش برك ، طبيخ ملاحيي ، كشكية ، وغيره .

يكون تناول الغداء المطبوخ على الحطب عند الساعة الرابعة مساءً ، يعني غداء بعشاء ، حيث لايعود من الضروري تناول العشاء؛ لأنّ العائلة تذهب إلى النوم

باكراً جدّاً (مع الجاجات كما يقول المثل الشعبي) وذلك بسبب التعب والإرهاق الشديدين طيلة النهار، فالكلّ يعمل ..صغيراً كان أم كبيراً . ماعدا الأمّ التي كان عليها أن تعجن العجين وتروّجه (تعمله على شكل كرات صغيرة) وتغطّيه، لتقوم في الصباح الباكر بخبزه على البرباص(أوراق شجرة السنديان اليابسة) الذي كانت تقوم بتجميعه من تحت أشجار السنديان الموجودة في الحرش المجاور للقرية، وتعبّئه في أكياس خيش كبيرة وتجلبه إلى البيت على ظهر الحمار.

بالإضافة لهذا العمل الذي يتكرّر كلّ يوم كان على المرأة أن تقوم بكثير من الأعمال الشاقّة الأخرى ، منها خياطة الملابس ووجوه الفرش والمخد والملاحف ، وحياكة الصوف في الشتاء لكلّ أفراد العائلة ، وتركيب الملاحف وتقطيب وجوه الفرش والمخدات ، وترقيع الثياب الممزّقة ، وتنظيف البيت وتكليسه بالكلس الأبيض والنيل الأزرق . هذا كلّه بالإضافة إلى أعباء الولادة والحمل وتربية الأطفال، ورعاية الزوج وأهله، ووالديه وأخواته ، من دون أن تنسى أهلها.

تعود إلى تطبيع المقابي(خلط روث الحيوانات بالماء وجعله على شكل كرات وتجفيفه بالشمس والاحتفاظ به للشتاء من أجل التدفئة).والذهاب إلى الحقول والكروم ولمّ الزبارة (جمع مخلّفات تقليم أغصان العنب) وتعزيل الكروم من الحجارة ، والمشي خلف الفلّاح للتدبير(إزاحة دوالي العنب عن طريق الفدّان ، لكي يتمكّن الفلّاح من حراثة الأرض الموجودة تحت الدالية وحكرها) . ومن بعدها الذهاب مع زوجها إلى قطف العنب، أو إلى البساتين لزرع الخضراوات وسقايتها وتعشيبها، وقطفها، وتقديدها. ثم عليها بعمل المؤونة للشتاء : بندورة مقدّدة ..لوبياء. كوسا ،دبس بندورة ، دبس عنب ، زبيب ، تين يابس..إلخ..إلخ..

تقوم من بعدها بعمل الكشك والكثا..والدهن والسمن العربيّ...كما كان عليها

أن تقوم بعمليّة صويل القمح (تنظيفه بالماء من الأتربة والحصى)..ثم سلقه وتجفيفه ، وتنقيته من الحصى ، ثم أخذه إلى جاروشة البرغل لجرشه والحصول على البرغل.

بالإضافة إلى كلّ هذه الأعباء المرهقة، كان عليها أن تشارك في مناسبات القرية من أعراس ومآتم ، ومبادلة الزيارات بين الجيران وأهل القرية . حيث أنّ الكلّ يعرف الكلّ . ولم تكن تنسى واجباتها الدينيّة أبداً ..حيث كانت تداوم باستمرارعلى الذهاب إلى المجلس كلّ ليلة اثنين وجمعة ولا تقبل أن تنام قبل أن تقرأ بعض الرسائل من كتاب الحكمة .ومن بعدها تقرأ الفاتحة وهي مرتدية الفوطة البيضاء باستمرار. وتنام متّكلة على الله ومتضرّعة إليه أن يحمي أولادها وعائلتها من شرّ (اللايذات).هكذا كانت حياة المرأة الريفيّة في أربعينيّات وخمسينيّات القرن الماضي في جبل العرب.

غسّلولووو،، غسلولوو!

استيقظت المعلّمة «انتصار» عند الساعة الرابعة صباحاً ، وكان عليها أن تؤدّي كثيراً من الأعمال المنزليّة، قبل أن تذهب إلى المدرسة كما هو حال أغلب العاملات والموظّفات أينما كنّ في قطّاعات الدولة.

بدأت بتحضير الطعام أوّلًا ،لأنّه الأهمّ ، ثمّ قامت بتنظيف البيت وترتيبه. في هذه الأثناء كانت قد سخّنت الماء ووضعت الغسيل في اللكن ، وأضافت له برش الصابون وبدأت بدعكه بكلتا يديها. حيث لم تكن قد امتلكت غسّالة أوتوماتيك بعد. بعد ذلك قامت بغلي الملابس البيضاء في سطل الغسيل المصنوع من التوتياء ، وأعادت تشطيفه بالماء البارد. وغسلت الملابس الملوّنة ووضعتها على حدة ، ثم أسرعت بتنشير الغسيل على الحبال. كلّ ذلك نفّذته بسرعة البرق .

لبست ثياب العمل بسرعة فائقة بعد أن غسلت وجهها ، وذهبت إلى المدرسة مشياً على الأقدام، مشّطت شعرها في الطريق ووضعت قليلاً من الماكياج..

دخلت غرفة الصفّ مسرعة ، حيث أصبحت الساعة الثامنة تماماً .

- صباح الخير يا أولاد !

- صباااااح النووووور ياآنستنا المحبووووبة .

- (يالله ياشاطرين ، مين حافظ الدرس اليوم مليح..؟) .

- (نعم آنسة. أني حافظ الدرس عن غيب !) . قال «أحمد» بعد أن رفع إصبعه

للأعلى .

(ياالله..ياشاطر.سمّعنا لنشوف !) .

بدأ أحمد يسمّع الدرس بقراءة سليمة ودقّة كبيرة وبدون أيّة غلطة ممّا أثار إعجاب المعلّمة «انتصار» وحماسها.

بعد أن أنهى التسميع ، صفّقت بكلتا يديها، وأشارت إلى الصفّ أجمع، وقالت بصوت مرتفع :

(عفااااك ، عفاااك)

(غسّلولووو ، غسّلولووو !).

تنذكر ، ما تنعاد

في أحدى أيّام شهر حزيران ارتديت ثيابي ، وحملت حقيبة يدي وكتبي ، وتوجّهت باتّجاه الساحة العامّة قاصدة مكان وقوف باصات النقل العامّة التي تنقل الركّاب إلى مدينة السويداء . كانت الساعة السابعة صباحاً ، وعليّ أن أصل إلى ثانويّة الفتاة الساعة السابعة والنصف للالتحاق بأعمال تصحيح أوراق الشهادة الإعداديّة.

وجدت أن كلّ باصات الكفر قد امتلأت بالركاب والموظّفين والطلّاب حتّى الباب، ولم يعد هناك متّسعٌ لأيّ راكب على الإطلاق حتّى ولو كان وقوفاً .

انتظرت قليلاً وإذ بباص مكتظّ آخر مقبلٍ من ناحية الجنوب ، مكتوب عليه «السويداء...صلخد».

لم يعد الوقت يحتمل التأخير. أشرت للسائق بيدي ووقفت أمام الميكرو تماماً لأجبره على التوقّف ممّا اضّطره لفعل ذلك .

(يختي ،فش معي ولا محلّ . إذا بتحبّي تطلعي عالواقف..أهلا..وسهلا فيكي) قال السائق .

قلت له: (آ ، بطلع . شو بدي ساوي ،مضطرة).

وبالفعل صعدت إلى الميكرو ، ووقفت بجانب الباب شاكرة ربّي على حصولي على هذا المكان. تحرّك الميكرو باتّجاه المدينة وأدار السائق المسجّلة على أغنية ظريفةتقول كلماتها:

«طفران مفلّس طفران

فاضي قلبو هالجزدان[1]».

انسجمت مع الأغنية للحظات ، وعندما وصلنا إلى قرية الرحى ، فتحت سحّاب حقيبتي لأجهّز أجرة الطريق وأقدّمها للسائق عند نزولي . مددت يدي إلى عمق الجيبة.(يه ، يه . يه .مافي مصاري.) . فتحت السحّاب الصغير ، كذلك لم أجد شيئاً . عدت إلى السحّابات الجانبيّة ، إلى زوايا الحقيبة وثناياها ، بين مناديل الكلينكس والأقلام لكنني لم أجد ولا مليماً واحداً.

أحسست بالعرق البارد يتصبّب منّي. جلت بناظريّ على الركاب علّني أجد شخصاً واحداً أستطيع أن أشرح له الموقف، وأطلب منه أن يقرضني بعض النقود؛ فلم أعثر على واحد ، فالكلّ غرباء ولا أعرف أحداً منهم.

مظهري لايدلّ على أنّني متسوّلة لأقول للسائق: (من مال الله) ولا محتالة تتظاهر بأنّها لاتملك النقود لكيلا تدفع الأجرة.

رأيت الأمر في غاية الإحراج والمهانة أن اقول للسائق عندما أهمّ بالنزول: (فش معي مصاري) .وإن فعلت..أقلّ كلمة سيقولها (اللعمى شو في ناس زنخة وما بتستحي على حالها ، عالم ما فيهاش دم. ومن هالحكي).

استمرّ الميكرو في المسير وبدأ الركّاب بالنزول .توقّف بمحاذاة المستشفى ، ونزل منه عدد لابأس به ، كانت المحطّة الأخيرة عند الفندق السياحيّ . عندما جاء دوري في الدفع وأصبحت بجانب السائق ، فتحت حقيبتي من جديد وتظاهرت بالبحث عن المال لأعطيه الأجرة.

---

١) جزدان : حقيبة صغيرة للنقود

في هذه اللحظة الحرجة ، صعد شابّ إلى الباص. لم أنظر إليه بسبب انشغالي بحالي وأحوالي . أصبح قريباً جدّاً منّي.

(صباح الخير آنسة سلوى ،كيفك وكيف صحّتك) .ووضع كلتا يديه على حقيبتي.

(حرام إذا بتدفعي ! ولو بنّا خدمي تحرز). قال الشاب .

لم أصدّق ما سمعت. ما أكرمك أيّتها السماء ! من أين أرسلتِ لي «نبيل معروف» ذاك الطالب النبيه الذي كنت قد علّمته وهو في الصف السابع منذ عشر سنوات؟ .

ومن باب المجاملة قلت له: (لا ، لا ، ياعيب الشوم منّك. لاتكلّف حالك .لاتكلّف حالك!) لكنّه أصرّ بشدّة وأخرج النقود من جيبه ، وأعطاها للسائق قائلا له:

(واصل عن الآنسة سلوى).

تصليح

عندما ذهب أبوعليّ الرجل المسنّ إلى فرنسا في زيارة لابنه الذي استقرّ هناك للعمل منذ زمن؛ كان عليه أن يرتدي الثياب نفسها التي يرتديها في القرية، وفي كلّ المناسبات. وبما أنّ العادات والتقاليد تعيب على المرء أن يغيّر زيّه أثناء السفر، وخاصّة مثل حالة أبي عليّ الشيخ المحترم والمعروف عند أهل القرية بتقواه وهيبته ؛ فقد ذهب مرتدياً كامل زيّه الجبليّ المعروف لدى «الاجاويد» الذي هو الشروال المقصّف من الأمام والخلف، والضيق الأرجل من تحت، مع (قنتشيّة) سوداء ، وقميص أبيض تحتها ، وحطّة بيضاء ، وعصبة معقوصة من الأمام فوق الحطّة وشدّة (حذاء) طريّة سوداء اللون يشحطها شحط ، وكاعبها (ثانيها) من ورا بكعب رجله.

بعد أن أقام مدّة شهرعند ابنه الأعزب ؛ اتّسخت ثيابه. فقال له ابنه : اخلع ثيابك يا أبي لأرسلها لك إلى المغسلة ، فسوف تعود نظيفة ومكويّة على أحسن ما يكون..

فعل الأب ذلك ، وأخذ الابن الكيس إلى المغسلة.

في اليوم التالي ذهب الابن وجاء بالثياب مغسولة ومكويّة على أحسن مايكون .

فتح الأب الكيس ليأخذ الثياب ويعلّقها في الخزانة ، فوجد داخل الكيس ورقة مكتوب عليها كلامٌ باللغة الفرنسيّة..

نادى أبو عليّ ابنه وقال : (تعال قرالنا شو مكتوب بهالورقة...»يا علي» !) .

أخذ «عليّ «الورقة وقرأ وترجم إلى العربيّة:

١-غسيل...عشر فرنكات

٢-كوي....ثلاثون فرنكاً

٣-تصليح...خمسون فرنكاً

فتح أبو عليّ الكيس ليرى نتيجة العمل ، وإذ به يرى الشروال قد أصبح سراويلا على الطراز الفرنسي .

حسنة مخفيّة

في فترة الخمسينيّات والستينيّات من القرن الماضي ، كان الفقر شديداً في كلّ أنحاء سوريا بما في ذلك منطقة الجبل عندنا . كان الناس يعتمدون على الزراعة البدائيّة والرعي ، وكان أحسن فلاّح موسمه السنويّ لايتعدّى الأربعمئة ليرة سوريّة سنويّاً. ومع كثرة عدد الأولاد ، كان مردود الموسم بالكاد يكفي لشراء الكسوة من عند سليمان بوسعدى ، نايف بوخليل ، يوسف نعيم ، صابر بوسعدى ، مزيد نصر وبو وليد. (أهمّ التجّار في مدينة السويداء في ذلك الوقت).

انعكست هذه الظروف كثيراً على الشباب ، لذلك سافرت النسبة الكبيرة منهم إلى لبنان للعمل من أجل لقمة العيش . ونسبة أخرى أقلّ إلى فنزويلا وبقية دول العالم. ومن تبقّى من الشباب بقي يعمل في الأرض . والقلّة القليلة منهم ذهبت لتلقّي العلم في مدينة السويداء. وهذا الرعيل الأوّل من المتعلّمين عانى أشدّ ماعانى من الفقر. وهناك مئات الحكايات والأحداث التي عكست ذلك الواقع المرير في تلك الآونة . أذكر منها هاتين الواقعتين :

الأولى : عندما طلب «زيد» مصروف الشهر من والده ليذهب إلى السويداء ، قال له والده: (خوذ يابيي..هذول خمس ليرات أجرة البيت ، وهذي نصّ ليرة مصروفك الشخصيّ ، وعمال فيهن بشرفك وضميرك..وبدّيش وصّيك أكثر من هيك، ما بدّها بعزقة الشغلي هه ! وهذي شنتة زهاب ، فيها خبز، وعظامي ، وبرغل وعدس ، وزبيب وشوية كشك . روح يابيي .الله ينجحك !) .

الثانية : امرأة جويّدة (متديّنة) أرادت أن تتحسّن ببعض من مالها وهي أيضا فقيرة. وضعت مبلغا من المال في جزدان ، وذهبت به إلى أحد كراجات القرى المجاورة. وجدت شاباً توسّمت فيه الخير، فقالت له:

(لوين رايح ياخالتي..؟).

(رايح على بلدة .».الضبعة.» في شي قوليلي ؟).

(بدّي منك توصلّي هالجزدان أمانة للمجلس . حسنة لله ووجه الله) . قالت المرأة. (بس بدي ايّاها حسنة مخفيّة وما تقول مين عطاك ايّاها أبداً ،أبداً ومنكسب الأجر ..أني وياك يا خالتي).قالت المرأة.

(معلوم ، حلّت البركة. خلص بتعتبري الأمانة وصلت) . قال لها الشابّ .

(بعد ماقفت المرة بظهرها وراحت) ، قال الشابّ مخاطباً نفسه: (ياما انت كريم ياربّ .من وين الله بعثلي هالمرا . كنت طالع عالبلد وما في معي أجرة الطريق. وكنت ناوي اترك المدرسة .أكيد المجلس مش أحقّ منّي بالحسنة . ياولد خوذ المصاري إلك ورجاع عالمدرسة. وهيك بتكون عملت أكبر حسنة مع أكبر فقير بقريتك ، ورب العالمين غفور رحيم والمسامح كريم) .

ستين قولة وِشت ولا كلمة ناولو

عندما ضاقت الأحوال بأهالي قرية « الضبعة » ، قلّ معها تقديم الولائم في الأعراس والمآتم والمناسبات الاجتماعية ، بل انعدم . انعكس هذا الوضع السيّئ على كلاب القرية المذكورة بشكل كبير. إذ قلّما تقام وليمة إلّا ويحسب حساب هذه الكلاب منها ، فيرمى لها في كلّ مرّة ماتبقّى من العظام التي مايزال عليها بقايا لابأس بها من اللحم ، أو بقايا الطبيخ.

تفاقمت الأمور أكثر وأكثر على الكلاب ، وأصبح الأمر لايطاق بالنسبة لها حتّى إنّ أكبر كلب فيها وأقواها أصبح كلّما ذهب إلى بيت من بيوت القرية باحثاً عن أيّ شيء حتّى ولو كسرة خبز هجم عليه أصحاب المنزل حاملين العصيّ والهراوات صارخين في وجهه:

(وِشت ، وِشت يا سايب!) .

فيهرب المسكين مبتعداً عن البيت خائب الرجاء.

بعد طول تفكير ومشاورة مع بعضها اتّفقت الكلاب بالإجماع على ترك القرية، والذهاب إلى المدينة حتّى تتحسّن الأمور، بما في ذلك كبير الكلاب. لكنّها اتّفقت فيما بينها على إرسال واحد منها ليستطلع الوضع في المدينة ، ويخبرها ماذا عليها فعله بعد ذلك ، لكي تترك القرية .

في صباح اليوم التالي تمّ اختيار الكلب «أبو الليل» ليقوم بالمهمّة ، لكونه فتيّاً وسريع العدو.

انطلق أبو الليل مسرعاً حتّى وصل المدينة ، وبسبب حاسّة الشمّ القويّة لديه عرف مكان دكّان أكبر جزّار في المدينة ، فتوجّه إليه بسرعة البرق .

لم يخطئ المكان أبداً ، وعندما اقترب قليلاً انبعثت رائحة اللحم من الدكّان وسال لعابه بشدة، وصار يقترب قليلاً قليلاً من الباب حتّى وصل إلى العتبة. همهم وعوى عواء خفيفاً يشبه العسعسة. وبدأ يهز ذيله بقوّة ذات اليمين وذات الشمال مستجدياً بنظرات عينيه الصغيرة الجزار أن يرمي له قطعة من اللحم أو الدهن أو حتّى ماتبقّى من أمعاء وأقدام.

عندما رآه الجزّار واقفاً أمام دكّانه اربدّ وجهه واستشاط غضباً ونادى على عامله الذي كان يحمل ساطوراً حادّاً ،والعياذ بالله ،وقال له :(ناولو ، ناولو ،.ياولد !) .

لم يكذّب العامل خبراً حيث رمى الكلب «أبو الليل» المسكين بالساطور بقوّة من داخل المحلّ رمية قويّة لامست وجهه وكادت أن تقطع رقبته.عوى الكلب عواءً شديداً وولّى هارباً والدماء تنزف من عينه وخدّه وتسقط على الأرض .

ظلّ أبو الليل يركض حتّى وصل إلى قرية الضبعة منهك القوى . توجّه رأساً إلى بيدر البلدة حيث كانت كلاب القرية مجتمعة تنتظر عودته لتأخذ منه الخبراليقين . عندما وصل إلى البيدر يلهث وينزف أسرعت الكلاب جميعها لملاقاته ، بما فيها الكلب الكبير وبدأت تسأله عن الأخبار والأوضاع وعمّا حدث له في المدينة، أخبرهم بالقصّة كاملة عن أوضاع المدينة السيّئة ، والطريقة التي عامله بها أهل المدينة وكيف ضربوه بالساطور الذي كاد أن يودي بحياته ، حزنت الكلاب على ما جرى لصديقهم أبي الليل وعلى الوضع السيئّ وما آلت إليه الأمور وقالت: (يا عمّي ، ستّين قولة وِشْتْ ولا كلمة ناولو).

بعد هذه الحادثة بقيت الكلاب في قرية الضبعة تنتظر أن تتبدّل و تتحسّن الأحوال وما زالت تنتظر .

لصّ ظريف آخر

كان الشاب «عوكر» يتقاسم غرفة مستأجرة في المدينة مع بعض رفاقه من شبّان القرية بسعر زهيد . قاموا بشراء بعض الأثاث : سجادة ، صوفايتين ، بعض البطانيّآت والمخدات ، تلفزيون أبيض وأسود صغير ، مكنسة قش وما شابه

كان جميع الشباب يشتغلون في هذه المدينة بالفاعل ، يعني كلّ يوم بيومه. (وخدمتكي ، بلقمتكي) .

يئس «عوكر» من هذه الحياة البائسة، حيث أنّ كلّ مايحصل عليه بالكاد يكفي أجرة بيت وثمن خبز . لذلك قرّر السفر خارج البلد ، لكنّه لم يكن يملك ثمن بطاقة السفر، وأهله ياعالم بالحال لايملكون شيئاً ولايستطيعون مساعدته.

فكّر وقلّب الموضوع من كلّ جوانبه حتّى استقرّ رأيه على حلّ.

قال في نفسه: الصديق عند الضيق (وهلّق إجت عازت رفقاتي) .

انتظر حتّى خرج أصدقاؤه ، ثم ذهب إلى أقرب مكتب سيّارات ، واستأجر سيّارة سوزوكي وأتى ليلاً إلى الغرفة.

فتحها بالمفتاح الذي لديه وبدأ بنقل الأغراض الموجودة فيها ، وتحميلها في السيّارة ولم يُبْقِ على شيءٍ البتّة

عندما عاد أصدقاؤه إلى الغرفة وجدوا ورقة كبيرة مرميّة على الأرض ، وقد كتب عليها مايلي:

(زرناكم وما وجدناكن وأخذنا هلّي الله قدّرنا عليه) .

صديقكم المشتاق دائما وأبداً

«عوكر المهاجر»

زوجة الشهيد

في تلك الليلة الحزينة من ليالي تمّوز ؛ ضمّها إلى صدره بقوّة وطبع على جبينها قبلة لعلها كانت الأخيرة. كانت تحمل ابنتها الرضيعة الوحيدة التي رزقت بها قبل عام . قال لها: « لقد قالت لي العرّافة إنّني لن أعيش طويلاً ، ولديّ إحساس غامض لكنّه عميق أنّي لن اعود من هذه المعركة أبداً ، لذلك أوصيك يازوجتي الحبيبة وأستحلفك بالله وبحياة ابنتنا الغالية إن تحقّقت نبوءة العرّافة واستشهدت في أرض المعركة أن تتزوّجي من رجل آخر ، وهذه هي وصيتي لك. عديني أنّك ستنفذينها».

«كفانا الله شرّ ماتقول يازوجي الحبيب . كفانا شرّ ماتقول ! ما هذا الكلام الذي أسمعه منك الآن . بعيد الشرّ عنّك. بعيد الشرّ عنّك ألف مرّة» .قالت له.

قال لها: «إنّني أخاف على هذا الجمال البديع من عيون الرجال، ومن أقاويل الناس. أخاف عليك من نسمة الهواء ، وكيف لي ألّا أخاف وأنت ماتزالين صبيّة في مقتبل العمر لم تبلغي العشرين بعد . أرجوك أن تحفظي ما قلته لك..أرجوك..!»

حمل طفلته الصغيرة وضمّها إليه وقبّلها وشمّها على وجنتيها الناعمتين ، وأرجعها إلى حضن أمّها..

ركب حصانه وامتشق سيفه ، وذهب يسابق الريح لا يلوي على شيء للالتحاق بقطعته العسكريّة، ملبيا نداء الوطن لطرد المستعمر الفرنسيّ البغيض من الديار الغالية.

بكت زوجته بكاءً مريراً ، كذلك فعلت الطفلة الصغيرة ، ثمّ غلبها النعاس واستسلمت للهواجس والكوابيس حتّى بزغ الفجر.

لم يمض على بدء المعركة يومان حتّى جاءت الأخبار تحمل نبأ استشهاد الزوج ، وتحقّقت نبوءة العرّافة ، وكان الذي كان.

كان وقع الخبر كالصاعقة على زوجة الشهيد ، لكنّها سلّمت أمرها لله ورضيت بالقدر. وحلفت إنّها لن تعرف الرجال من بعده صوناً لذكراه العطرة. لكنّ الرياح تجري بما لاتشتهي السفن . حيث كان للأهل والأقارب رأيٌ آخر . كانت أمّها تنظر إليها ولطفلتها الرضيعة بحسرة وأسى وتقول في نفسها:

« كيف لها أن تربّي طفلتها وتكمل حياتها وحيدة ؟ جمال ربّانيّ ، قدٌّ أهيف ميّاس، وشعر أشقر طويل، وعيون خضراء كلون المروج السهليّة، وخصر نحيل . وفوق ذلك كلّه وقار وأخلاق عالية. إنّها لم تبلغ العشرين بعد»

نظرت إليها بحسرة..لكنّها أضمرت شيئاً في قرارة نفسها ، يجب أن يصان هذا الجمال البديع من عيون الرجال وكلام الناس. قالت في نفسها: «يجب أن تتزوّج بابن عمّها ، لزمها ، هو الوحيد القادر على حمايتها وتربية ابنتها.»

فاتحتها بالموضوع . رفضت الفكرة رفضاً قاطعاً ، بعدها اجتمع الأقارب بتشجيع من والدها وأصرّوا على الفكرة ، وأجبروها على القبول.

لم تكن لها القدرة على مجابهة رأي الجماعة ، فرضخت للأمرالواقع ، وقبلت الزواج بابن عمّها . لقد نفّذت وصية زوجها مكرهة. إذ بقيت فترة طويلة من الزمن تعيش في صراع داخليّ مرير مع ذاتها ، بين حبّها الأوّل لزوجها الشهيد الذي لم تستطع نسيانه أبداً ؛ بل بقي عالقاً في ذاكرتها على مرّ الأيّام،وعهد

قطعته على نفسها ولم تستطع تنفيذه وهو عدم الزواج برجل آخر ، وبين شعورها بالواجب تجاه ابن عمّها الذي رعاها ورعى ابنتها، وقدّم لها كلّ ما بوسعه ليدخل إلى قلبها السعادة.

هكذا تقبّلت قدرها ، لكنّها لم تنس أبداً زوجها الشهيد ، الذي قدّم روحه فداءً لتراب الوطن.

رحم الله الشهداء الذين سقوا بدمائهم الزكيّة أرض الوطن .

حلم مستحيل

ليت الذي يأتي يعيد إليّ أحلامي المسروقة ، فاللصوص نزعوا نوافذ بيتي بعد أن سرقوا سريري ووسادتي ، وتحت الوسادة كان «الحجاب»الذي كتبته ولفّته أمّي بيديها الناعمتين، لتبعد عيون الحاسدين عنّي.لكنّ اللصوص سرقوه ، وفي سلّة المهملات رموه، فلم أعد أذكر خطّها السحريّ الجميل ،بعد أن فارقتني وأنا طفل صغير، ولم يعد بمقدوري أن أتذكّر ملامح وجهها الحنون الرائع.

يقولون إنّي أشبهها..وحسبي ذلك. لكنّ البحث عن صورة لها كان هاجسي .

بحثت وبحثت حتّى أعياني التعب. كنت أريد أن أضع صورتها، وأجلّلها بالسواد، وأكحّل عيني بمرآها الجميل.

لو وجدت صورة لها كنت أنوي أن أهديها لأحفادي الذين قد أراهم حين يعاد إليّ سريري ومخدّتي وأبوابي ونوافذي المسروقة...لكن هيهات !

إنّه حلمي المستحيل.

حمد

كان حمد الذراع اليمنى لجناب البيك . لايفارقه لحظة واحدة ، رجل ضخم، قويّ البنية، مفتول الذراعين ،عريض المنكبين ، أسمر اللون . عيونه سوداء كحيلة، تلمع من بعيد كعيون النسر المترقّب دائماً والمستعد للانقضاض على فريسته. له شاربان أسودان كثيفان فتلهما ومسّدهما بعناية فائقة. يميل إلى الطول أكثر منه إلى القصر. يرتدي القمباز البنيّ المشدود على الخصر بنطاق عريض من اللون نفسه ، وفوق القمباز جاكيت مقلّم بنيّ وأسود ليتلاءم مع لون الثياب ككلّ ، وجزمة مصنوعة من الجلد الطبيعيّ، ذات ساق عالية خاصّة بركوب الخيل .

كان فارساً بكلّ ماتعنيه الكلمة ، وتليق به مرافقة البكوات . مكانته هذه أعطته نوعاً من الحصانة ، وأصبح الناس يرهبون جانبه ، ويحسبون له ألف حساب . ويا ويله ويا سواد ليله من يتجرّأ على البيك أو على ممتلكاته . حيث كانت نعمة الله ستزول عنه ، وربّما يحين أجله. إذ أنّ مجرّد إشارة واحدة من البيك تجعل حمد يهجم كالليث على العدو ، بلا رحمة ولا شفقة . لقد أصبح هذا الشابّ كلّ شيء بالنسبة للبيك ، يدلله ، يغدق عليه الأموال ، وأصبح يرافقه كظلّه، لايتركه لحظة واحدة .

في يوم من الأيّام بينما كان وجهاء المنطقة مجتمعين في مضافة البيك المبجّل ، يتداولون في شأن مهمّ من شؤون الرعيّة ، وكلّ كبير ووجيه وشيخ (بقدّ راي شكل) أحبّ حمد أن يشارك في الأمر وأبدى رأيه على عادته ، لكنّ رأيه هذه المرّة ولسوء حظّه لم ينل إعجاب البيك، بل بدا الغضب الشديد على وجهه،

وللحظة عاد حضرة البيك إلى طبيعته المتعجرفة وعنجهيّته ناسياً بطولات حمد، ومواقفه الشهمة، ودفاعه المستميت عنه ، وقال له بكل تكبّر، وأمام هذا الجمع من الوجهاء : (ولك ياولد ! إنت مين سمحلك تحكي قبل وليّ نعمتك ، مين؟).

عندما سمع حمد البيك يقول له : (ولك ياولد) فارَ دمه وغضب غضبا شديدا لكنه لايستطيع ان يرد على جناب البيك في هذه اللحظة ، وربما يكلفه ذلك حياته ٠لذلك كتم غيضه ، وبلع الإهانة وقال في نفسه :(لابدّ ما تجي الساعة المناسبة وآخذ بثاري منّك يا جناب البيك!) .

في احد الأيام قال البيك : (يالله ياحمد ..هيّيلي حالك بنّا نروح نطلّ على البيدر غربي البلد) .

(آ معلوم) . قال حمد .

جهّز حمد حصانه وحصان البيك و ذهبا سوية ليتفقدا البيدر بعيدا عن القرية.

وصلا إلى البيدر وترجلا عن ظهور الخيل . قال البيك مخاطبا حمد : (شو شايفلي هالبيدر السنّي يا حمد ؟) ، ناسياً الإهانة التي سبّبها لحمد أمام وجهاء القرية.

نزل حمد عن ظهر حصانه ، وهجم على البيك ورماه أرضا وضربه ضربا مبرحاً حتى كاد أن يقتله وهو يردد : (أني بينقلّي « ياولد»..يا جناب البيك ؟ أني بينقلّي يا ولد ؟ .بعدو ما خلق هلّي بدو يهين حمد يا حضرة البيك !) .

وبعد ما شفى غليله وانتقم لكرامته المهانة ، فطن حمد لحاله وقال : (العمى أني شو عملت ؟ إسّا الخبر بينتشر بالبلد وبيجوا أهل البيك بيذبحوني)

ركب حمد حصانه وترك البيك مرميّا على الأرض بين الحياة والموت.

صار الحصان يسابق الريح متوجها الى المقرن الشرقيّ وحط الرحال عند شيخ من شيوخ المقرن .

(أني داخل عليك ياشيخ. انطرا أني يمكنّي ابتليت بلوي ما اني قدّها وجاي التجي عندك . أني عيلتي صغيرة وما في وراي حدا ، وأني بوجهك ياشيخ !). قال حمد.

(لاه ، لاه ، لاه ! ولك شو هالخملي هلّي خملتها يارجال ؟ أني مابقدر إحميك ابدا ، أني مش قد عيلة البيك. هذي شغلي فوق طاقتي وعواقبها وخيمة .روح عمّي روح. شغلتك كبيري كثير ونتيجتها الذبح. بيللي الله يرضى عليك ،كفينا شرّك ودبّر حالك). قال الشيخ.

(هيك لكان ! طيب ياشيخ ! .استور ما شفت منّي ،وبترجاك خلّي هالسرّ بيني وبينك وهذا أني راح أترك هالبلاد وروح على وجهي والجلا ، على بلاد الله الواسعة).

أعطاه الشيخ بعض الزاد والماء ، وركب حمد حصانه وغادر إلى بلاد الله الواسعة، (بلاد تحطّو وبلاد تشيلو . لاعاد بيقدر يرجع على بلده ولا عاد بيقدر يحكي قصّته لحدا).

ربما ذهب إلى عرب البادية وعاش بينهم وتزوّج منهم ، أو تاه في الصحرا وقتله الجوع والعطش ، أو صادفه أحد الوحوش الكاسرة وافترسه . (وراح حمد، وراح سّره معه) .

شيء من الذاكرة

عندما تركت «صالحة» قريتها النائية، وأتت إلى المدينة لأوّل مرّة لتتلقّى العلم في كبرى ثانويّاتها ؛ كانت أصغر بنت في الصفّ السابع. رأت نفسها في عالم جديد غيرعالمها القرويّ البسيط الذي كانت معتادة عليه ، فطرقات المدينة متداخلة والبيوت متشابهة. أمّا المدينة فقد بدت لها شديدة الاتّساع والتداخل، وبدا بيتها المستأجر في الحارة الغربيّة القديمة من المدينة بعيداً جدّاً. ومن الصعب جدّاً بالنسبة لها أن تعود إليه من دون أن تضيع . لذلك بعد أن أوصلتها أختها إلى المدرسة عند الصباح ، وتركتها تعود إلى البيت بمفردها عند انتهاء الدوام ؛ شعرت بالخوف الشديد ، وعندما خلت باحة المدرسة من الطالبات خرجت من بوّابة المدرسة الغربيّة وهي ترتجف . إنّها هنا في المدينة ولا تعرف فيها احدا وعمرها لايتجاوز الأحد عشر عاماً .

أسرعت الخطا ، وحاولت أن تتذكّر معالم الطريق الذي مرّت منه عند الصباح . تذكّرت أنّه يوجد قوس حجريّ أثريّ . سمعت أختها تقول: هذه هي «المشنقة». مشت ومشت تبحث عن هذا المعلَم . دار رأسها وفقدت الاتّجاهات . لم تعد تعرف الشرق من الغرب لكنها تذكّرت أنّ أختها قالت إنّهم يستأجرون غرفة في الحارة الغربيّة القريبة من ساحة تدعى «ساحة بوّز» في حارة بيت حاتم وبالتحديد عند ستّي إمّ فضل الله مقابل دكّان يونس نعيم ، لكن كيف لها أن تعرف كلّ ذلك الآن.

دخلت من طريق و خرجت من آخر ، تمرّ بدكّان هنا لتخرج من زابوق هناك.

أحسّت أنّ الوقت اقترب من المغيب . انطبق قلبها. هي لاتملك ساعة لتعرف الوقت وفقدت الأمل في أن تجد البيت . بكت بكاءً مريراً ، لكنّها حاولت أن تخفي دموعها قدر المستطاع حتّى لاتلفت إليها الأنظار.

بينما هي في هذه الحالة المأساويّة من الخوف الشديد إذ بها تسمع صوتاً يناديها من الخلف. استادرت ناحية الصوت وإذ بها ترى شابّا غريباً لاتعرف عنه شيئاً يقترب منها ويقول: مابك ياصغيرة ! لماذا تبكين ؟

قالت : «لقد أضعت الطريق إلى بيتي..أنا بنت من الريف وعهدي جديد بطرقات المدينة.. وهذه أوّل مرّة أعود فيها إلى البيت بمفردي» . مسحت دموعها وتنهنهت ولم تدرِ ماذا تفعل.

«هل لك أن تذكري شيئاً عن معالم الطريق المؤدّي إلى بيتك؟ « قال الشاب.

قالت : «كلّ ما أعرفه أنّه يمرّ من المشنقة. ساحة بوّز بجانب دكّان يونس نعيم ،حارة بيت حاتم عند ستّي أمّ فضل الله حاتم» .

ضحك الشابّ وقال: « تعالي ياصغيرة تعالي ! سأقوم بتوصيلك إلى حيث تسكنين. لكن عليك أن تنظري بتمعّن وتحفظي معالم الطريق جيّداً حتّى لاتتوهي مرّة أخرى.هيّا ، اتبعيني » .

صحيح أنّ خوفها زال نسبيّاً ، لكنّها ورغم صغر سنّها انتابها إحساس بالقلق والخوف من جديد من أن يخدعها هذا الشابّ ولا يقوم بتوصيلها إلى البيت خاصّة أنّ أمّها كانت توصيها الحذر الشديد من الغرباء . كانت تقول لها دائما: «إيّاك أن تنظري يميناً أو شمالًا أو تتلفّتي إلى الغرباء وخاصّة الشباب منهم . (حطّي عينك بالأرض وظلّك ماشي من البيت للمدرسة ومن المدرسة للبيت.إيّاكي

ثمّ إيّاكِ يابنتي !) .لكن ماكان بوسعها الآن إلّا أن تتبع هذا الشابّ متّكلة على الله راجية أن تكون العواقب خيراً.

مشى أمامها وتبعته . يبدو أنّها ابتعدت كثيراً عن البيت ، لكنّها كانت تحاول جاهدة أن تحفظ معالم الطريق وقلبها يدقّ ويتسارع إلى أن توقّف الشابّ أخيراً وقال لها مشيراً إلى البوّابة الحجريّة التي يعلوها حنت رومانيّ منحوت من البازلت : « هذا هو بيت ستّي أمّ فضل الله..هيّا أسرعي وادخلي قبل أن تغيب الشمس» .

لم تصدّق أنّ هذا الكابوس قد انزاح عنها. شكرت الشاب ودخلت البيت مسرعة، لتجد أختها وقد اعياها البحث عن صالحة.

كانت أختها قد أعدّت الغداء المكوّن من شوربة العدس المطبوخة على بابور زيت الكاز مع عروق خضراء من الرشاد و صحن زيتون يابس ولبن قطيع مع خبز تنور أحضروه من القرية ، والكلّ موضوع على سدر ألمنيوم مهترئ الحواف.. عندما رأت صالحة الطعام الشهيّ بدأت بالتهامه من شدّة الجوع ، ونسيت هذا اليوم المريع الذي مرّعليها.

مرّت السنون ودارت الأيّام وتخرّجت صالحة من الجامعة ، وتمّ تعيّينها في إحدى القرى النائية. عندما دخلت الإدارة لتستلم العمل وجدت أستاذاً في المدرسة يجلس قبالتها. تفرّس في وجهها عدّة مرّات لدرجة أنّه أحرجها ثمّ بعد كثير من التردّد قال لها :» أكيد أنّك تستغربين وتتساءلين لماذا أنظر إليك وأتفرّس في وجهك» .

قالت : « نعم، بالتأكيد» .

قال : «عندما دخلت الإدارة ونظرت إليك ذكّرتني بفتاة صغيرة ، كانت تائهة في المدينة أثناء عودتها من المدرسة إلى البيت . كان ذلك منذ زمن بعيد...بعيد...!

انتفضت في مقعدها ، وقالت له: بالله عليك اسرد لي هذه الحكاية !

أعاد عليها القصّة بكلّ تفاصيلها ، وهي مصغية إليه بكلّ جوارحها ، وكأنّها تستعيد مقطعاً من شريط سينمائيّ . عندما أكمل الحكاية ، قالت بكلّ أسى: « إنّ تلك الفتاة الصغيرة التي أوصلتها إلى بيتها بعد أن تاهت لعدّة ساعات في طرقات المدينة القديمة ذات الأقواس والأعمدة الرومانيّة هي أنا ، الجالسة أمامك . «صالحة التائهة».

«إمّ غطّاس»

كانت «إمّ غطاس» امرأة قاسية القلب والملامح ، لها قامة طويلة وخصر ضامر، ووجه متطاول وخدود قاسية عظامها بارزة. عيونها كعيون الحدأة المستعدّة دائما للانقضاض على فريستها. لها حاجبان سوداوان كذيل العقرب الأسود ، أنف معقوف للأعلى، وفم رقيق الشفاه يفصح عن أسنان تبدو شديدة البياض بسبب لونها الداكن ، الذي ازدادت سمرته بسبب تعرّضها المستمرّ لأشعّة الشمس في الصيف والرياح والبرودة الشديدة في الشتاء . يداها قاسيتان متجعّدتان كجلد التمساح لكثرة الأعمال القاسية التي لاتليق بامرأة . ترتدي دائماً اللباس العربيّ الأسود الملطّع مع طربوش على الرأس يخلو من أيّة ليرات ذهبيّة بسبب فقرها الشديد..تغطّيه فوطة يشما عتيقة وعصبة معقودة خلف رأسها لتثبيته.

بالإضافة لملامحها القاسية ، كانت امرأة سليطة اللسان يهابها ويتحايدها ليس نساء القرية فقط، بل أقوى رجالها ، لدرجة أنّ جارها أبا منصور قرّر أن يبيع بيته ويسكن في حارة أخرى تجنّباً للمشاجرات المستمرّة التي كانت تفتعلها معه. أمّا زوجها فقد كان رجلاً مسكيناً فقير الحال والمال ،قصير القامة ، ضعيف البنية، نحيل الجسم وفوق ذلك كان أعرجاً .

كانت أمّ غطاس هي من تحرث الأرض، وتعمّر الحيطان ،وتنقل الحجارة الثقيلة من مكان إلى آخر ، وتقلّم الأشجار، وتجمع الحطب. بينما زوجها المسكين كان مجرّد مرافق لها.هي تركب على ظهر الحمار وهو يتبعها دون أيّ اعتراض.

في إحدى المرّات غلط وقلّها : (يامّ غطاس ! تعبت من المشي وراكي . فيكي تركبيني شقلة على هالحمار لمنّي ريّح إجري شوي؟) .

(تركب رقبتك نشالله . بكفّيش أني رايحة إفلح عالزمالي وأنكش وعزّل وعبعيّشك وبعيّش ولادك . صحيح إنّك أبتستحيش على حالك) .

سكت المسكين وقال : (انكنّك ما إنتي).

قالت : (تضرب منك لهالعيشي هلّي معيّشني يّاها !) .

قال خائفاً : (تضربي إنتي) .

قالت : (سكوت ومعش تردّ جواب. حكاك وفكّ حناك !) .

(يفك حنكك إنتي) .هذه المرّة ، ردّ بصوت منخفض كي لاتسمعه .

قالت : (انشالله بقبرك يابو غطّاس وارتاح منّك) .

(انشالله إنتي) .قال في نفسه هذه المرّة .

هكذا كان أبو غطّاس يردّ عليها كلّما كانت تشتمه. «انكنّك ما إنتي» أو تضربي إنتي. او يتمتم تمتمة حتى لاتسمعه ، وعندما يعود إلى البيت كان يقوم بالأعمال الهامشيّة مثل تصليح ببّور الكاز ، تكنيس أرض الدار ، إطعام الطرشات وإدخالها إلى الحظيرة ، تنفيض الفرشة أو تنشير الغسيلات..إلخ..إلخ...

في إحدى ليالي الصيف تركت أمّ غطّاس زوجها ، وذهبت لتحضير العجين في غرفة المونة الملاصقة للغرفة التي تنام فيها هي وأبو غطّاس، وتركت باب السرّ مفتوحاً بين الغرفتين بينما فرش أبو غطّاس فرشته واندسّ تحت اللحاف لينام .

جاءت باللكن ووضعت فيه الطحين والملح والخميرة والماء، وبدأت بتخليط

المزيج جيّداً وبدأت تعجنه وهي تغنّي بعض الأغاني بصوت منخفض . بدأت بتقطيع العجين إلى كرات ورميها على الميزر المغطّى بالطحين . ثم بدأت بترويجها جيّداً ، وتصفيفها بشكل منتظم ومتراصّ بجانب بعضها بعضاً في اللكن.

سمعت صوت زفرة تلاها شهقة قويّة من الغرفة المجاورة . تركت العجين وذهبت لترى مصدر الصوت.

قالت : (بو غطّاس ! يابو غطّاس ! بعدك مانمتش ؟ تنام مثل ماأنت نشالله) .

لم يردّ أبو غطّاس.

اقتربت منه أكثر وقالت : (عامل حالك نايم ؟ فيق ! فيق !) .

كذلك لم يحصل أيّ ردّ من بو غطّاس .

اقتربت أكثر وقالت : (.يه ، يه .شوباك مش عبتردّ .لتكون متت يابو غطّاس. بتعملها .إسّا مش أوانك .قوم ! قوم ! قوم عاونّي شوي !) .

لكنّ بوغطّاس لم يتحرّك..

(يه ، يه . شو صرلو هالزلمي ؟) . اقتربت أكثر وانحنت فوق رأسه..

أمسكت بيديه وتحسّست وجهه وقدميه. كانت باردة كقطع الجليد.

وضعت أذنها على صدره ، لقد اختفت دقّات قلبه ولم يعد هناك أيّ أثر للتنفس أعادت العمليّة عدّة مرّات. كانت النتيجة نفسها. لقد انقطع التنفّس وتوقّف النبض تماماً .

تأكّدت أمّ غطّاس الآن أنّ زوجها المسكين قد فارق الحياة. لم يكن يوجد في البيت غيرها حيث أنّ كلّ أولادها يسكنون في بيوت منفردة.

ما أقساك يا أمّ غطّاس ! لم تشعر بأيّ حزن، ولم تصدر أيّ صوت أو تقل أيّة كلمة، بل أغمضت عينيه وفمه وألبسته ثياب المنيّة، وردّت الغطاء عليه وذهبت لتكمل عمليّة العجين. بعدها نامت حوالي الساعتين، ثم استيقظت بعد أن اختمر العجين . أخذته إلى التنور، خبزته على مهل وهي تردّد بعض الأغنيات بصوت غير مسموع . أنهت عمليّة الخبز ثم غطّته بالمشمّع . وصعدت إلى البيت واستحمّت ولبست ثيابها السوداء (وبو غطّاس ملقوح جوّا لحاله) ثم فتحت الباب حيث أصبحت الساعة الآن السابعة صباحاً .

وقفت في أرض الدار وصاحت : (يا جيرانّا ! يابو منصور ! يامّ يوسف ، ياعالم ! تعوا شوفو شو صرلي ، تعوا شوفوا شو صرلي ! بو غطّاس مات ! بو غطّاس مات !) .

طارت الفكرة

كان يجلس إلى طاولته التي تكوّمت فوقها الأوراق والمسوّدات والكتب باحثا عن بداية مناسبة لروايته الجديدة التي سيسميها : «صرخة في آخر النفق».

وضع يده اليسرى على جبينه ، وأمسك قلمه بيده اليمنى.

هه ! هاهي الكلمات تهبط عليه كالوحي ، وتبعتها كلمات . لعل عروسة الرويّ قد قرّرت زيارته أخيراً . انسابت الكلمات كجدول ماء رقراق في السطر الأوّل من المسوّدة وبدأت الفكرة التي طالما انتظرها تتهادى كعروس في ليلة عرسها . غمره الفرح العارم . أكمل السطر الأوّل وبدأ بالثاني فالثالث والرابع .

في زحمة أفكاره هذه ، فُتح باب الغرفة الملفّعة بالسكون بقوّة وعنف ، واصطدمت درفة الباب بالحائط الحجريّ ، وسُمع صوت صرير.

سقط القلم من يده ، وخفق قلبه .

دخلت مزمجرة ووقفت في منتصف الغرفة . وضعت يديها على خاصرتيها وزعقت فيه:

لماذا أنت هنا ياهذا ؟ ألم أقل لك منذ الصباح أن تغادر، لأنني سأنظف البيت وأعيد ترتيبه . ثم لماذا لم تجلب لي أدوات الطبخ والتنظيف التي أوصيتك عليها ..ها..لماذا ؟(شو بدي آكل وإشرب من ورا كتبك ورواياتك .؟) .ألا أستحقّ منك التفاتة أو كلمة ؟ دع هذه الكتب والحكايات تكفيك إذاً ! لقد أشبعتنا كلاماً . كلاماً فارغاً فقط . إنّ أشعارك ورواياتك لاتهمّني ولاتعني لي شيئا بعد اليوم !) .

صفقت الباب خلفها وغادرت . لملم أوراقه بصمت بعد ان طارت الفكرة التي انتظرها منذ زمن بعيد .

ميّل اشربلك كاسة شاي

في كلّ قرية ، وربّما في كلّ مدينة ترى هنالك نموذجاً من الرجال طريفاً كل ّالطرافة. لدرجة أنّ وجوده يصبح ضرورياً بحكم العادة، فهو نوع مسلٍّ ويبعث على التفكّر.هذا الإنسان أينما ذهبت تجده أمامك. إذا ذهبت إلى الفرن تجده، إلى محطة البنزين تجده ، رغم أنّه لايمتلك سيّارة. إلى بائع الحليب أو الخضرة تراه يتبعك ، ويسلّم عليك وكأنّه يعرفك منذ زمن بعيد .يسأل عن ثمن الخضرة ولا يشتري شيئاً منها.

إذا ركبت الميكرو إلى المدينة . تجده جالساً في مقدّمة الباص . في المدينة يتسكّع حتّى منتصف النهار ويعود إلى بيته في القرية ليتغدّى وينام ، ثم يستأنف الجولات المكوكيّة. كما أنّك في الطريق تراه. إن حصل فرح يكون أوّل المهنّئين ، وإن حصل عزاء يكون أول ّالمعزّين . والأغرب من ذلك وقوفه لساعات طويلة في ساحة القرية الرئيسيّة. (حاططلك إيديه ورا ظهره ، وحاطط إجر لوَرا وإجر لقدّأم) . يتأمّل (الرايح والجاي) . وإذا تعب يقف على قدم واحدة ، أو يجلس على حجر هنا أومصطبة هناك .

كان أبو ناهي واحداً من هؤلاء ، يتواجد دائما في ساحة البلدة

في تأملاته هذه ، لفت نظر أبو ناهي موظفا في البلدية غريبا عن الناحية ، كا ن على مايبدو رجلًا محترمًا وأنيق المظهر ويأتي كلّ يوم بالميكرو وينزل في الساحة. وعند انتهاء الدوام يعود أدراجه إلى قريته البعيدة.

سأل أبو ناهي عنه بطريقته الخاصّة ، وعلم أنّ اسمه أبو محمود من قرية «النسمي العليلي»البعيدة عن هذه الناحية.

-(السلام عليكن خيي بومحمود..كيفك وشلونك وشلون هالعيلة ؟ نشالله مش عبتتعب بهالوظيفي ؟ خيي شرّف صوبينا ارتحلك شوي ومنشربلنا كاسة شاي بتبعيّتك . محسوبك ، خيّك بوناهي. ساكن هون..هه..قريب كثير من البلديّة. تفضّل . عليك جيري !..).قال بوناهي.

(ريتك دايم خيي بوناهي.ريتك دايم .انشالله بالأفراح !). ردّ أبو محمود

اعتذر أبو محمود عن قبول الدعوة بكلّ لباقة ولطف، لكن يبدو أنّه كان لشخص أبي ناهي وقعٌ حسنٌ على قلبه ، واستلطفه كثيراً وأعجب به كثيراً وقال في نفسه: (ياعمّي ! شو هالزلمي الآدمي هذا الله يكثّر من أمثاله. لازم شي مرّة روح أعملوا زيارة . عيب صار عازمني كثير المخلوق) .

تكرّرت دعوات أبي ناهي للسيّد أبي محمود لكي يميّل ويشرب الشاي عنده ، وصار بينهما مايشبه الصداقة .

خرج ابو محمود نهار الخميس باكرا من مكتبه متجها نحو ساحة البلدة . نظر إلى المكان الذي يقف فيه أبو ناهي أثناء قيامه بعمليّاته التأمليّة للمارّة والموظّفين وجده كالعادة جالسا على حجر (وحاطط إجر على إجر وعبيسبّح بمسبحته الحمرا..وعبيصفّر صفير مثل صوت العصافير) .

اقترب أبو محمود منه والفرح بادٍ على وجهه وسلّم عليه بحرارة ..وقال: (مرحبا خيي بوناهي ! انترى اليوم الخميس وهرعني خلّصت دوام وماعاد عندي شغل ولقيتها مناسبي معي إنّي روح أعملّك زيارة. منشربلنا كاسة شاي ومندردشلنا

شوي بمعيتك).

-(يا ميّت حيّالله ومرحبا ..ياميت حيالله هلا فيك..أهه..هيك بدّي ايّاك من الأوّل تقبل العزيمة. يعني مابتعرف قدّيش أني مبسوط بهالخبريّة. بس بدّي منّك طلب زغير بلا أمرٍ عليك . استنّاني شوي هون .واصل مشوار صغير وراجعلك ، ابطوّلش عليك .إصحك تفلّ هه .أماني). قال له أبو ناهي.

-(يالله..أني عبستنّاك هون لترجع). قال أبومحمود.

ذهب أبوناهي حتّى اختفى عن ناظري أبي محمود. وبقي أبو محمود واقفاً ينتظر عودته ، معتقداً أنّه ذهب ليجلب شيئاً ما للقيام بالواجب.

انتظر ربع ساعة..نصف ساعة..ساعة..لكنّه لم يرجع.تمشّى في الساحة التي خلت من المارّة، والركّاب ، والباصات.. نظر من بين المباني والطرق المؤدّية إلى الساحة لعلّه يرى أبا ناهي ، لكن هيهات ! تقول فص ملح وذاب .

ملّ أبو محمود الانتظار وأصبحت الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يظهر أبو ناهي .عجيب امر هذا الرجل !! ضحك أبو محمود في قرارة نفسه وقال :(ابو ناهي هرب وعطاني ذيل البعير . ههhe ! الله يسامحك على هالمقلب . الله يسامحك). أستقلّ ابو محمود آخر نقلة في الميكرو وعاد إلى قرية «النسمي العليلي» مندهشا أشد الدهشة ، لكنه لم يعد يلمح أبا ناهي جالسا في ساحة القرية يتأمل الداخلين والخارجين من البلدية . ولم يكرر له الدعوة لشرب كأس من الشاي قط .

شمّ ولا تذوق

كان «مرهج» موظّفاً من الدرجة العاشرة ،يأتي من قريته النائية إلى المدينة الساعة السابعة صباحاً في الميكرو باص الوحيد الذي يمرّ من كلّ المقرن القبلي ويصل عند الساعة السابعة والنصف . كان طريقه إلى المكتب يمرّ بجانب مطعم (أبو العزّ)الفاخر وفي طريق العودة كان عليه أن يمرّ به أيضاً .

عند الصباح لم يكن لديه مشكلة من المرور بجانبه ، حينما يشتمّ روائح الطعام الزكيّة التي كانت تنبعث من نوافذ وباب المطعم . حيث إنّه يكون قد تناول اللقمة بلبن القطيع المغمّسة بزيت القطن الأحمر اللون ، مع بضعة عروق من الرشاد أو الهندباء البريّة كالمعتاد . أمّا عند انتهاء الدوام فهنا كانت المأساة. كانت رائحة اللحم المشويّ والفرّوج والسجق والكباب تزكم أنفه ، وعصافير بطنه تزقزق وترفرف وتلحّ عليه كي تسدّ رمقها من الجوع الشديد.

لم يكن بمقدوره أبداً أن يتغدّى في المطعم أو أن يشتري اللحم المشويّ فراتبه المحدود بالكاد يكفي لإطعام أولاده الأربعة .

لكن إشتهاءه اللحم المشويّ كان شديدا . كيف العمل وهذه الروائح الزكية تفوح في كل مكان ؟ قلّب الأمر في فكره مراراً وتكراراً..وبعد عناء طويل توصّل إلى حلّ أرضاه كثيراً، ولم يكلّفه شيئاً يذكر.

صار يشتري الخبز الساخن من الفرن القريب ويقف على الزاوية المقابلة للمطعم المذكور قبالة الدخان المنبعث من المناقل التي يشوى عليها اللحم،

يقسم قطعة خبز،يضعها في فمه ، ثم يعبّ نفساً عميقاً من تلك الأَبخرة ، ثم يقوم بمضغها وابتلاعها ببطء متخيّلا نفسه يأكل اللحم المشوي . وكان يكرّر العمليّة حتّى يشبع ، ثم يشرب الماء من قارورة أحضرها معه من القرية، ويمسح يده وفمه بأكمام قميصه ويعود أدراجه إلى القرية . تكون امرأته في هذه الأثناء في أنتظاره على الغداء . بعد أن يدخل بيته، ويرتاح قليلاً تبادره بالقول:

(طبختلك عميشى[١] يابومرهج .تعال اتغدا!) .

(الحمد لله ، الحمد لله . تغدّيت لحم مشوي ومش جوعان أبداً..أبداً .يسلموا إيديكي) . ردَّ عليها . غضبت إم مرهج وصرخت في وجهه :

(كيف إلك نفس تاكل لحم مشوي بدون ولادك يازلمي ما استنغصتلناش ؟) .

(إلّا ماستنغصتلكن يا مرا ؟ انشالله المرّة الجاي بوعدك إنّي جبلكن معي شي كيلو لحم مشوي . لحم خروف يعني . هذا خروف طالع جديد . إسمو : خاروف «شمّ ولاتذوق»).

خطي منشان الولاد، خليهن يغيروا عن درسهن شوي . كلّ يوم عميشى.. عميشى؟٠ يقطع بذارها ، نشالله!) .

---

١) العميشى : برغل ناعم مسلوق يرشّ عليه الكشك ويضاف إليه السمن أو الدهن أو القليّة والملح والفلفل ويؤكل مع البصل النيّء وبدون خبز .

فكرة لم تخطر على بال أحد

عندما كنّا أطفالًا في المرحلة الابتدائيّة ، وفي بداية العام الدراسيّ ، طلب الأستاذ منّا أن نجمع ثمن كتاب الجغرافيا ، لتشتريه المدرسة لنا. كان ثمنه في ذلك الحين ليرة سوريّة واحدة.

دفع كل طالب ليرة واحدة للمعلّم إلا زميلي «سعد».

قلنا ربّما لايملك ثمنه الآن وسوف يجلب النقود غداً.

بعد أسبوع أحضرت المدرسة الكتاب ، ووزّع المعلّم الكتب علينا إلا «سعدا» فإنّه لم يحصل على كتاب لأنّه لم يدفع ثمنه.

عندما انتهى الدوام وتوجّه كلّ واحد منّا إلى بيته رأيت سعد يلحق بي ويقول:

مرحبا سلمى . هل لك أن تعيريني كتابك الجغرافيا الجديد هذه الليلة فقط .

تعجّبت لطلبه هذا ، ولكنّني لم أرفض بل أعرته الكتاب ، على أن يجلبه في الصباح.

في اليوم التالي تغيّب سعد عن المدرسة ، لكنّه أتى في اليوم الذي تلاه وقد جلب لي كتاب الجغرافيا .

مرحبا سعد . لماذا تغيّبت عن المدرسة البارحة ، ولم تحضر لي الكتاب.؟ قلت له.

قال: لقد بقيت البارحة طيلة النهار وطيلة الليل في البيت ولم أغادره لحظة

واحدة .

لماذا يا صديقي ؟ ما الذي جعلك تفعل ذلك..؟

قال لقد اشتريت دفتراً جديداً من الدكان ،وأتيت به إلى البيت ، وقمت بنقل كتاب الجغرافيا (من الغلفي للغلفي) ، ولم أترك الفهارس أو الصور ، الخرائط ، الفواصل والنقط وعلامات التعجب وكل ما يوجد في الكتاب .

اتسعت عيناي من شدّة الدهشة وقلت له:

- لماذا فعلت هذا ، يا هذا ؟

قال: الكتاب ثمنه ليرة سوريّة واحدة ، بينما الدفتر ثمنه نصف ليرة .وأكون بذلك قد وفّرت على نفسي نصف ليرة . ألا يستحق توفير نصف ليرة هذا العناء ؟

«كيفني معك ياسلمى ياصديقتي ؟»

خدعة

كان أبو الفضل فلّاحاً ثرياً عنده الكثير من كروم العنب والتفّاح ،وسهول القمح والشعير والحمّص. بالإضافة إلى بساتين الزراعات الصيفيّة . ومن بين هذه الممتلكات الكثيرة بقي عنده مساحة كبيرة من الأرض غير مستصلحة مليئة بالأحجار من كلّ الحجوم وكلّ أنواع الأشواك والنباتات العشبيّة الضارّة والصعبة الاقتلاع.

في يوم من أيّام حزيران ، بعد أن أغلقت المدارس الابتدائيّة أبوابها ، رأى أبو الفضل مجموعة من الأولاد الصغار يلعبون في الساحة الضيقة القريبة من بيته لعبة كرة القدم. كانوا قد نصبوا شباكاً بسيطة على قدّ الحال. واشتروا كرة خاصّة بهذه اللعبة التي يعشقها الأطفال قبل الكبار. لكنّ ضيق مساحة الساحة كانت تنغّص عليهم متعتهم وفرحهم باللعب.

سمع أبو الفضل الأولاد يتكلّمون بصوت عالٍ ويقولون : (ياريت عنا شي شقفة أرض نعملها كرة قدم).

تقدّم أبو الفضل من الأولاد وقال :

(اسمعتكن عبتقولوا ياريت عندكن قطعة أرض كبيري تعملوها ملعب كرة قدم. ليكوا عمّي ، أني عندي قطعة أرض غربي البلد . بس بدّها عزالي . روحوا عمّي عزلوها وعملوها ملعب على كيفكن . الله خبير إنّها ما بتغلا عليكن).

فرح الأولاد الصغار فرحاً شديداً، وصاروا ينطّون ويتقافزون في الهواء كالفراشات

والعصافير المغرّدة.

في الصباح الباكر ، تجمّعوا في الساحة الصغيرة يحملون الرفوش ، والمناكيش، والمجارف، والقفف المصنوعة من الكواتشوك ، وانطلقوا في مسيرة جماعيّة إلى حقل العمّ أبي الفضل. لم ينسوا أن يأخذوا معهم الزوّادة والماء. كما أنّ أبا الفضل ذهب معهم ودلّهم على القطعة المذكورة وعاد إلى منزله.

بدأ الأولاد بالعمل يتعاونون جميعاً على قلع الحجارة الكبيرة والمتوسّطة ،ثمّ دحرجتها باتّجاه أطراف الكرم. كما التقطوا كلّ الحجارة والحصى الصغيرة بأيديهم الطريّة ، ونقلوها بالقفف إلى جانب الجدار، ثم مهّدوا الأرض ورصّوها، وهيّؤوها جيّداً لكي تصبح ملعباً مناسباً . ظلّوا على هذه الحالة حتّى مغيب الشمس.

كدّهم التعب ونزفت الدماء من أصابعهم الصغيرة بسبب قساوة الحجارة والبحص ، لكنّ فرحتهم بإنهاء عمليّات التعزيل وتهيئة الأرض لتصبح ملعباً أنستهم تعبهم . ناموا تلك الليلة قريري الأعين على موعد في الصباح؛ لينصبوا الشباك ويضعوا الخطوط الرمليّة البيضاء واللمسات الأخيرة على ملعبهم المرتقب.

لم يستيقظوا باكراً في اليوم التالي بل غطّوا في النوم حتّى الظهيرة بسبب تعب يوم البارحة.

بعد أن استيقظوا من نومهم اجتمعوا أيضاً في الساحة الصغيرة مصطحبين معهم الشباك وكرة القدم والرمل الأبيض لتخطيط الملعب.

ركضوا يسابقون الريح..وهم يتدافعون ويغنّون بأعلى أصواتهم : هيّا..هنا.. أبطاااال الملاعب...مارادونا..هيّاااا..انطلق !

عندما وصلوا إلى قطعة الأرض التي قاموا بتعزيلها ، وجدوا أبا الفضل قد سبقهم

إليها ، وقام بحرثها على العزّاقة قبل طلوع الفجر. فِلاحة عميقة ، نحو ٢٥ سم تحت سطح الأرض.

يا الله ! ماذا رأوا ؟ هل هذه هي قطعة الأرض التي قاموا بعزالتها البارحة ؟ لم يصدّقوا أعينهم. معقول أن يكون أبو الفضل قد خدعهم؟ ياللعار!!!

كم كانت خيبة الأولاد شديدة. بدؤوا ينظرون في وجوه بعضهم بعضاً ،غير فاهمين قصد أبي الفضل من فعلته هذه . خيّم عليهم السكون ، وحملوا الشباك والكرة وعادوا يجرّون أذيال الخيبة والحسرة ، ليكملوا لعبهم المعهود ، في الساحة الصغيرة الضيّقة الموجودة بجانب بيت أبي الفضل، قليل النخوة والفضل .

ستين ليرة..لستين سنة .ون كان !

أراد العم ابو أحمد ان يشتري «شماخاً»[1] جديداً بعد أن أصبح الشماخ القديم.مهترئاً جدا وبه كثير من الثقوب والعيون التي جعلت البرد يلسع رأسه بشدة في الشتاء..ويحرقه حرقاً في الصيف..هذا بالإضافة الى انه.أصبح يخجل من الظهور أمام الناس في أي مناسبة..لأن خصلات شعره أصبحت تطل من الفتحات الكبيرة وجزءاً من صلعته الأمامية اللامعة بدأ بالظهور من المساحات المهترئة منه.

رثت زوجته الثقوب والعيون عدة مرات..لكن في المرة الأخيرة فشلت فشلاً ذريعاً في سد أو ترقيع أي ثقب مما دعاها للغضب الشديد.

صاحت من شدة القهر في وجه أبو أحمد المسكين وقالت:(روح اشتريلك شي شماخ جديد من عند «يوسف» ألله يلعن هالعيشة ، والله يقطع الفقر ، ولوو يازلمي ! ون ذكرت الله!).ورمت الشماخ القديم في وجهه وسقط على الارض.

لايملك أبو أحمد ولا (متليك مصدي) من ثمن الشماخ. وما عليه إلا ان يذهب إلى البائع الوحيد في القرية والذي يبيع كل شيئ ، إلى العم «يوسف» ، وسوف يستدينه ديناً الى ما يشاء الله.

(صباح الخير عمي يوسف !). قال ابو احمد

(صباح النور). هنا أربد وجه العم يوسف وتغيرت ألوانه لعلمه أن أبو أحمد

١) الشماخ: غطاء للرأس يلبسه الرجال.. العرب حصرا..ونسميه بالعامية..حرام .

فقيرٌ جداً ..وقرأ في عينيه أنه آت لإستدانة شيئ ما ،كما هي العادة .

(تفضل ، تفضل !) . لم يقل له يابو أحمد لكونه قد اغتاظ من دخوله الى الدكان.

(شو بتريد ؟).قال العم يوسف وهو عابس الوجه .

(بدي شماخ ، حرام يعني . هذاك المطوي هنيك على الرف الفوقاني). وأشار بيده الى شماخ مقطع أسود وأحمر من النوع الغالي الجيد.(قديش حقو عمي يوسف ، قديش.؟). قال أبو أحمد.

استغرب العم يوسف ان يطلب أبو أحمد شراء هذا الشماخ بالذات..حيث انه يعرف انه (مشحوط وعايف حاله) وقال مستهزءاً وضامراً في نفسه ان يغلي السعر كثيرا حتى لايشتريه أبو أحمد:

(هذا؟ الاسود المقطع بالأحمر؟هذا ياسيدي بستين ليرة. بس) .

كان أبو أحمد وكل أهل القرية يعلمون أن ثمنه لايتعدى العشر ليرات سورية فقط . ومع ذلك قال له ابو أحمد: (نزللي إياه ،عجبني كثير ، وبدي اشتريه. سجلو على الحساب عمي يوسف ، ،سجلو !) .

قام العم أبو يوسف مضطراً بوضع الشماخ في صرة من القماش مستغربا جسارة أبو أحمد وجرأته على شراء شماخ بهذا السعر رغم فقره المدقع ، ثم همز ولمز وتأفف وناوله إياه.

أخذ أبو أحمد الشماخ مبتهجاً به وصار يلبسه ويتفتل في طرقات القرية وزواريبها.

استغرب أهالي القرية كثيراً وتساءلوا..كيف استطاع أبو أحمد ان يشتري هذا الشماخ الثمين وقالوا: (أكيد في إن بالموضوع)

تقدم منه بضعة من رجال القرية وقالوا له متهكمين :

(مبروك الشماخ ياأبو أحمد. مبروك..بقديش اشتريتو ، عدم المؤاخذي .مبين عليه ثقيل كثير).

قال أبو أحمد : (بستين (٦٠) ل.س . بس).

(أف ، أف ،يالطيف ! شو عبتحكي انت ؟ يادوب حقو عشر ليرات سورية ياراجل. أكيد العم يوسف ضحك عليك وصلخك بالسعر صلخة مرتبي . انشالله ربنا بهوونها ؟ شو ستين ليرة وما ستين ليرة يازلمي ؟) .قالوا له.

نظر أبو أحمد إليهم بكل استهزاء وثقة وقال : (ستين ليرة لستين سنة ، ون كان!)

فرحة ومرحة

اجتازت «فرحة ومرحة» الصفّ الحادي عشر العلميّ بصعوبة بالغة (شحط). وكادتا أن ترسبا في صفّيهما. لم تستطيعا التراجع. أو تقبلا بشماتة الناس فيهما فاستمرّتا في صفّ البكالوريا العلميّ. هنا بدأت المعاناة الحقيقيّة. لم تتقبّلا أو تهضما دروس الرياضيات العجفاء أبداً أبداً . وأصبح هذا الدرس بمثابة كابوس أو فيلم رعب. كانتا تجلسان جنباً إلى جنب على المقعد. واحدة منهما تأخذ إغفاءة والثانية تراقب الأستاذ القدير (منير) حتّى إذا التفت ناحيتها قامت . «فرحة.». بلكش «مرحة» ..لتستفيق وتتظاهر أنّها تتابع الدرس بانتباه شديد. وهكذا كانت «فرحة»و «مرحة». تتبادلان الأدوار حتّى ينتهي درس الرياضيات.

كلّما توالت الدروس تفاقمت المشكلة أكثر.لذلك قرّرتا أن تقوما بالهروب من دروس الرياضيات حصراً وهكذا كان . كانت «فرحة ومرحة» تسرعان إلى الصفّ الكائن في الطابق العلويّ قبل دخول الأستاذ ، وتأخذان حقيبتيهما وتنزلان الدرج بسرعة البرق و(تمّزقان بخفية الكرعوب) من جانب غرفة الإدارة الكائنة على كعب الدرج مباشرة حيث كانت المديرة تراقب عن كثب كلّ من يخرج أو يدخل إلى غرف الصفوف. لكنّ «فرحة و مرحة» كانتا تنجحان كلّ مرّة في عمليّة الهروب بأعجوبة ، إلا ّفي تلك المرّة عندما كان الأستاذ «منير» صاعداً إلى صفّ البكالوريا العلميّ ، فإذا به يصطدم بـ «فرحة و مرحة» ، ويضبطهما هاربتين من حصّة الرياضيات وهما تحملان حقيبتيهما.

(يا ماشا الله يا ماشاء الله...لوين رايحيين من غير شر ؟) . قال الأستاذ «منير»

ردّت كلّ من «فرحة و مرحة» بصوتٍ واحدٍ..

(أستاذ ، أستاذ .كنّا نازلين نعيّطلك لأنّك تأخّرت عن الدرس) .

(طيّب إذا نازلين تعيّطولي من الإدارة ليش ماخذين شنتاتكن معكن يا سندي؟)

.قال الأستاذ منير. وساقهما أمامه إلى الصف عنوةً.

الواعظ والنسوة

طلب الواعظ من النسوة اللاتي كان يقوم بوعظهن من وراء ستار مرّتين كلّ أسبوع أن يجبن على السؤال التالي :

(ما معنى « شقلون..بقلون».؟)

فكّرت النسوة كثيراً في معنى الكلمتين ،ولم تتوصلن إلى إجابة صحيحة . وقلن له من وراء الستار : لقد كعينا ياحضرة الواعظ ، ولا نعرف الإجابة. نرجو منكم شرح هذين المصطلحين الشائكين . إنّ عقولنا قاصرة بل عاجزة عن إدراك ماتخفيه الأحرف من معاني عميقة غير مدركة.

ردّ الواعظ بصوت خافت وبكلّ خشوع :

شقلون :يعني الشقاء و

بقلون : يعني البقاء .

سجدت النسوة وخشعن بوجوههن إلى الأرض، وصعقن من شدّة الاندهاش والتعجّب من ذكاء الواعظ وبكين بكاءً شديداً من شدة التقوى .

حكاية فأر

استيقظ الفأر الصغير عند الفجر شاعراً بنشاط كبيرهذا اليوم ، يختلف عن بقية أيّامه المنصرمة. أحسّ بطاقة خلاّقة تسري في عروقه. انسلّ من داخل جحره وتوقّف عند مدخله الكائن تحت الأرض وهمّ بالخروج.. تنسّم هواء الصباح العليل، واشتمّ رائحة النباتات الزكيّة التي يفوح عطرها في أرجاء حديقة المنزل. انطلق بسرعة البرق ،ليبدأ عمليّة البحث عن قوت يومه.

توجّه إلى الصحن الموجود تحت شجرة التفّاح ، والمخصص لطعام القطط والكلاب الذي تعوّد أن يأتيه آخر كلّ ليلة، ليقتات على ماتبقّى من طعام . وما إن همّ بفتح فمه ليأكل قطعة جبن متعفّنة موجودة على الصحن حتّى انقضّ عليه القطّ اللعين الذي كان يراقبه منذ الصباح ، ومنذ أن رآه يطلّ برأسه الصغير من الجحر.

أفلت الفأر الصغير بأعجوبة من القطّ وهرب مسرعاً إلى جحره ، وظلّ مختبئاً طيلة اليوم خوفاً منه.

لم يكن لديه ما يأكله داخل الجحر وشعر بجوع شديد لم يعد يحتمله. قرّر الخروج من الجحر مرّة أخرى للبحث عن الطعام. تسلّل ببطء إلى أن وصل إلى مدخل الجحر، وكعادته عندما تنفّس الهواء الطلق انطلق بسرعة البرق متوجّهاً هذه المرّة إلى قنّ الدجاج علّه يجد شيئاً يأكله. لكن لسوء حظّه وجد أفعى رقطاء فاغرةً فاها ، منتظرة أيّة طريدة تعبر المكان لتبتلعها. لذلك فرّهارباً من وجهها ، لايعرف أين يتّجه. حار ودار في أرجاء الحديقة ، تارة يرتطم بجذع

شجرة، وتارة يدخل في شقّ في جدار حجريّ. وبينما هو يجري وكأنّما ضُرب على رأسه ؛ رأى باب المنزل مشقوقاً قليلاً فدخله مسرعاً باتّجاه المطبخ.

قال في نفسه : الآن أنا في أمان ولن يستطيع القطّ أو الأفعى النيل منّي بعد الآن. سأعيش بجوار صديقي الإنسان ولن أعود أبداً إلى حياة البؤس والبحث المستمرّ عن الطعام والخوف القاتل من القطّ والأفعى.

اختبأ الفأر الصغير في إحدى خزائن المطبخ ،منتظراً حلول الظلام وذهاب العائلة إلى النوم ليبحث عن الطعام لأنّه لايريد إزعاجهم.

عندما هدأت الأصوات داخل البيت ، وتأكّد الفأر أنّ الجميع قد ذهب للنوم انسلّ رويداً رويداً إلى كيس وضعت فيه صاحبة البيت فتافيت الخبز وبقايا الطعام والجبن ، وبدأ بقضم الطعام بأسنانه الصغيرة يغمره الفرح العارم لأنّه وجد الطعام والأمان.

في هذه الأثناء ، استيقظ الأب ودخل المطبخ ليشرب كأساً من الماء ، سمع صوت قرقشة وقضم. توجّه بنظره إلى مصدر الصوت ورأى الفأرالصغير داخل الكيس.

معقول أن يدخل هذا الفأر اللعين إلى.مطبخي ؟قال الأب في نفسه ، واستشاط غضباً وكاد أن يُجنّ. أسرع باتّجاه غرف النوم . أيقظ زوجته وابنه الكبير وكلّ أفراد العائلة ،وجلب العصيّ والكشّاطات والشحّاطات وتهيّأ للهجوم على الفأر الذي أحس بما يجري حوله ، فتكوّم على نفسه وأخذ جسمه يرتعد ويرتجف خوفاً ممّا سيحدث له.

في هذه الأثناء جلبت الزوجة اللاصق المخصّص للفئران ووضعته على قطع من الكرتون، ووزعتها على عتبات الأبواب الداخلية لكي يلتصق بها الفأر في حال

فشل زوجها في قتله بالعصا أو الشحّاطة.

أمّا الابن الأكبر فقد جلب جزمة سوداء بلاستيكيّة ذات ساق عالية، ووضعها على مدخل الباب الرئيسيّ للبيت ، ووجّه فتحتها باتّجاه الداخل.

وقف الجميع في المطبخ في حالة استنفار كامل ، كلٌّ شاهر سلاحه ، على أمل قتل الفأر. حمل الأب عصاه وانقضّ على الفأر الذي مازال يرتعد في الزاوية. لكنّ الضربة أخطأت الهدف وهرب الفأر من بين قدميه ، وبحركة التفافية ذكيّة استطاع الفأر أن يتجنّب اللاصق الموجود على عتبة الباب ، وظلّ متوجّهاً إلى الباب الرئيس. عندما وصل هناك رأى فتحة الجزمة السوداء، دخلها مسرعاً معتقداً أنّها جحره الموجود في الحديقة ، وقبع في داخلها فرحاً بنجاته من هذه العائلة التي أرادت قتله.

رأى الابن الكبير الفأر وهو يدخل الجزمة ، حمل الجزمة ووضعها خارج المنزل وتركها حتّى الصباح.

في الصباح توجّه إلى مكان الجزمة ، ونظر بداخلها فوجد الفأر الصغير جثّة هامدة.أخذه بعيداً ورماه للقطّ الذي كان مايزال ينتظر الفأر حتّى يخرج. هجم القطّ على الفأر المقتول وابتلعه دفعة واحدة.

فرحت العائلة فرحاً شديداً بانتصارها على الفأر. ودهشت كلّ الدهشة ،كيف استطاع هذا المخلوق الصغير الذكيّ الإفلات من القطّ والأفعى الرقطاء ، ومن ضربات العصيّ والشحّاطات وتجنّب اللاصق ، بينما فشل فشلاً ذريعاً في تجنّب الجزمة السوداء .

حكاية لم تكتب بعد

قصة حقيقية روتها لي جدّتي:

كان «حسين بدوي» والد جدّتي «محمودي بدوي» شابّاً من بلدة حاصبيا في جنوب لبنان، قد اتّخذ من الجبال والجرود المجاورة لبلدته مسكناً له،حيث كان رجال الدرك العثمانيين يلاحقونه ويبحثون عنه في كلّ أرجاء المنطقة فلا يجدون له أثراً. كان من الشباب المطلوبين لدى الدولة العثمانيّة بسبب مقاومتهم لها وثورتهم على حكمها الجائر الذي أصبح لايطاق. كان يترك بيته الذي يشبه الكوخ الصغير بسبب فقره المدقع قبل طلوع الفجر، وقبل أن ينقشع الظلام ، يذهب إلى مخبئه المتنقّل تارة في سفوح الجبال العالية ، وتارة في الجرود بين الجروف الصخريّة والمغاور، وتارة أخرى إلى الوديان السحيقة والمعاصي المخيفة المعروفة في لبنان ، ويعود آخر الليل لينام في كوخه القرويّ البسيط. لم يكن يصطحب معه سوى زوّادته المكوّنة من بعض الأرغفة من خبز الشعير وحفنة من زيتون حاصبيا اللذيذ، ومطرة ماء، وعصا غليظة لها رأس كبيرمكوّر يسمّونه « الدبَسَة». كان يحتاجها كثيراً أثناء تجواله لصدّ هجمات الوحوش الضارية التي تسكن الغابة الموحشة. بقي على هذه الحال مدّة طويلة من الزمن .

أمّا بالنسبة لجنود الاحتلال فكان «حسين بدوي» كذرّة الملح التي ذابت وتبخّرت بالفضاء، ولم يُعثر له على أثر. ومن شدّة غيظهم منه قرّر الجنود المكلّفون القبض عليه أن ينكّلوا بزوجته وطفلته «محمودة» ذات العشر سنوات التي ستصبح جدّتي لأمي «أكابر» فيما بعد .كانت الزوجة الشابّة قد رزقت للتو بابنها الذكر

«علم الدين.» وكانت ماتزال نفساء ، ترضعه من صدرها العامر، فقد أكرمها الله بحليب وافر كافٍ لإشباع طفلها الرضيع ويزيد عنه أحيانا.

في يوم من أيّام الصيف القائظ سمعت أمّ «علم الدين» وقع حوافر خيول تقترب من كوخها الصغير، غطّت صدرها العامر بسرعة بعد أن كانت ترضع طفلها، وتلثّمت بفوطتها البيضاء، وأنزلتها حتّى غطّت عينيها تحسبّاً لأيّ هجوم طارىء من قبل جنود الاحتلال الملاعين ،كما كانت عادتهم دوماً بدهم بيوت الفقراء والفلاحين من أبناء المنطقة لإلقاء القبض عليهم ورميهم في غياهب سجونهم القذرة والتنكيل بهم.

اقتربت الخيول من الكوخ وتوقّفت أمام الباب الخشبيّ المتآكل ، ونادى أحد الجنود الأتراك بأعلى صوته :

«.ياحرمي ! ياحرمي ! اخرجي من كوخك اللعين وقولي لنا أين زوجك الكلب وإلاّ سترين نجوم الظهر أنت وابنتك هذه.» قال الجندي الذي مازال راكباً على ظهر الحصان حاملاً بارودته التي أخافت «محمودة» الصغيرة وبدأت تصرخ وتبكي بكاءً شديداً ، ممّا جعلها تلتصق بأمّها النفساء ،وتتمسّك بأطراف ثوبها الأسود خوفاً من أن يختطفها الجنود القساة.

«وحقّ السماء ! لا أعلم أين هو ، لو علمت لقلت لكم ، أنا لم أره منذ فترة طويلة من الزمن.»...ردّت أمّ علم الدين .

«أنت كاذبة أيّتها الملثّمة ولا تقولين الحقيقة.»..ردّ الجنديّ اللعين ، وصوّب البارودة باتّجاه الطفلة .

حاول الجنديّ أن يستدرجها في الكلام مترافقاً بالتهديد والوعيد لها ولطفلتها،

لكنّه لم يأخذ منها لاحقاً ولاباطلاً ، ثم حاول ابتزازها والضغط عليها بعد أن يئس من أخذ أيّة معلومة عن مكان زوجها.

صرخ في وجهها مرّة أخرى وقال: «.ولك ياحرمي ...قومي عمليلنا رزّ بحليب..لن نغادر البيت إذا لم تطعمينا الرز بحليب.»..

«ومن أين لي الحليب ياحضرة الجندي...فأنا فقيرة جدّاً لا أملك معزاة أو غنمة حلوب لأطبخ لكم الرز بحليب ..ألا ترى فقري المدقع ؟»

«بدّك تعملي رزّ بحليب ورجلك فوق راسك.»..ردّ الجندي ولكزها برأس حربة البندقية.

ازداد صراخ «محمودة» وزادت من التشبّث بأمّها، وصرخ الرضيع في حضن أمّه. وقهقه الجنود بأعلى أصواتهم ،وصاروا يصولون ويجولون في حوش الكوخ ، ويوجّهون بنادقهم..تارة نحو الرضيع وتارة نحو الأمّ والطفلة .

«لن نبرح هذا المكان حتّى نأكل الرز بحليب ، دبّري حالك..هذا ليس من شأننا». ردّ الجنديّ التركيّ.

احتارت المخلوقة في أمرها، وفكّرت كيف لها الخلاص من هذه المحنة التي حلّت بها. نظرت إلى الجنود من تحت فوطتها وحملت رضيعها وقالت :

«طيّب انتظروني هنا قليلاً وسوف آتيكم بالرز بحليب»

تركت الكوخ و»محمودة «الصغيرة ماتزال متشبّثة بطرف ثوبها..

واختفت عن أنظار الجند .

بعد فترة من الزمن ظهرت الزوجة الشابّة ، ومعها معجنة من الفخار مملوءة

بالرز بحليب. اقتربت من الجنود وقدّمتها لهم ، وقالت : «هاكم ما طلبتم. تفضّلوا كلوا طعامكم».

زعق الجندي في وجهها وقال : «أيّتها المرأة ! أنت كاذبة..ألم تقولي إنّك لا تملكين عنزة أو نعجة حلوب ؟ كيف صنعت الرز بالحليب أيّتها الضالّة..أتحاولين خداعنا..؟»

خطف معجنة الرز بحليب ووضعها على الأرض ، ودعا رفاقه وبدأوا بالتهام الرز بلقيمات الخبز.

«آه...ما أطيب هذا الرز ، أنا لم أذق مثله في حياتي» . قال الجنود لبعضهم .

عاد الجندي النذل ونكز «أمّ علم الدين» بعقب البارودة وقال : «ستقولين لنا كيف تدبّرت أمورك وكيف صنعت هذا الرز اللذيذ ، وإلّا سأقتل طفلك».

«طيب..طيب..سأقول لكم ، لقد ذهبت إلى العريشة الكائنة خلف كوخي وحلبت ثديّ ، وصنعت منه هذا الرز. هذا ما حصل ، هل تصدقونني الآن ؟.هذه هي الحقيقة.»

ذهل الجنود ممّا سمعوا وصاروا ينظرون في عيون بعضهم بعضاً وقالوا : هل سمعتم بمثل هذا من قبل ؟

تغيّرت ملامح وجوههم بعد أن أجهزوا على كلّ الرزّ الموجود في المعجنة. رموا بنادقهم على الأرض ، وجثوا على ركبهم، وبدؤوا بتقبيل يديها وسقطت الدموع من عيونهم. وانقلبوا تماماً في طريقة معاملتهم للأمّ التي صنعت لهم الرزّ من حليب ثدييها. قبّلوا يديها وقالوا لها :

«سامحينا يا أمّي ، لقد أصبح حليبك الآن يجري في عروقنا ، وأنت الآن أمّنا

بالرضاعة ، وعلم الدين الصغير ومحمودي إخوتنا في الرضاعة ، ولن نغدر بكم بعد اليوم».

ثمّ انصرف الجند منكسرين نادمين على مافعلوه مع أمّ جدّتي المرأة التقيّة الصالحة ، وأمر قائد الجند بوقف البحث عن حسين بدوي. ولم تعد دوريّات الدرك تلاحقه لإلقاء القبض عليه حيّاً أو ميتاً ، وعاد حسين إلى قريته، ليعيش بقيّة عمره مع زوجته محمودة في كوخهم البائس الصغير. بعيداً عن عيون جنود الاحتلال.

يلعن أبو الفقر

لم تجد أمّ زيد شيئاً لتطبخه على الغداء ، لكي تطعم أولادها الخمسة وزوجها الفقير المعدم أبا زيد . دارت وحارت في جنبات الغرفة الوحيدة، التي هي غرفة نوم، وغرفة ضيوف، ومطبخ في الوقت نفسه ، حزينة على حالتهم الرثّة وفقرهم المدقع، باحثة عن أيّ شيء يصلح للأكل .

فجأة، تذكّرت أنّها كانت تحتفظ بكميّة قليلة من كساسير وقراقيد الخبز اليابس والمعطّن في كيس وضعته في إحدى طاقات الغرفة، وقبضة صغيرة من الشاي وقليلا من السكر. أسرعت إلى الطاقة الضيّقة وأتت بقراقيد الخبز تلك لتعمل منها شيئاً يؤكل؛ وحين رآها زوجها تحمل الكيس قال لها : (ياحرمي ! هاتي كساسيرهالخبز وعمليلنا إبريق شاي ، وبليلنا ايّاهن خلينا ناكل نحنا وهالولاد) .

لم تكذّب أمّ زيد خبراً .صنعت الشاي ووضعت القراقيد في معجن من الفخار القديم ، وسكبت الشاي الساخن فوقها وبللتها جيّداً حتّى لانت، ووضعت المعجن على طبق القشّ العتيق. أسرع الأولاد وأبو زيد وأمّ زيد وبدأ الجميع يتناولون طعامهم بنهم شديد. أجهز الأولاد على كلّ الكميّة التي كانت في المعجن وشكروا ربّهم على هذه النعمة .

اتّكأ أبو زيد، بعد أن شبع وأنهى طعامه ، على ثلاث مخدّات محشوّة بريش البرغل موضوعة على فراش ممزّق محشوّ بالكرارة ، وتنفّس الصعداء ، ومسّد شاربيه وفتلهما فتلاً محكماً. نادى على أمّ زيد التى كانت تنظّف المعجنة في

أرض الدار تحت شجرة التوت وقال : (إم زيد ، يا إم زيد ، بعد هالغدا الدسم، الثقيل..صار بدها كاسة شاي أكرك عجم على كيف كيفك).

رأيت العجب وتملّكني الإعجاب

كان الشيخ أبو صالح عابد ابن الشيخ فارس ، شيخ إحدى قرى الجبل النائية الشرقيّة ، تربّى وترعرع في بيت وطنيّ تقيّ ورضع مكارم الأخلاق مع الحليب.

فوالده الشيخ فارس كان من مرافقي سلطان باشا الأطرش في كلّ معاركه ونضاله ضدّ المستعمر الفرنسيّ . بالإضافة إلى حبّ الوطن وتقديسه فقد ربّى ولده عابداً على الالتصاق بالأرض وعدم التفريط بها مهما كانت الأسباب، كما قال له : ياولدي، ليكن شعارك التعب على رزق الحلال وإيّاك والكسل أو إهمال الأرض التي ياما تعبت وشقيت لأتركها لك.

حفظ الشيخ أبوصالح الوصية كما يحفظ اسمه ، وأقسم ألّايخرج من البيت ، وأن لا يأكل طعاماً قبل أن ينزل إلى السهل ، ويقوم بعمل ما مهما كان صغيراً، حتّى لو كان إزالة حجر من طريق الفدّان ، أو اقتلاع نبتة ضارة ،أو سقاية شجرة.

أصبح هذا الشيء طقساً مقدّساً بالنسبة إليه ، وشعيرة مفروضة عليه طيلة حياته.

رحم الله الشيخ أبا صالح عابد ابو مغضب وأسكنه فسيح جناته. كم نحن بحاجة اليوم أن نربّي أبناءنا على حبّ العمل والتشبّث بالأرض وتقديسها وعدم التفريط بها.

تواضع لابعده ،ولاقبله

عندما تخرّج الشاب (ع) من الجامعة في سبعينيّات القرن الماضي ، عيّنته الوزارة مدرّساً في قرية « القريّا» بلد المغفور له سلطان باشا الأطرش.

كان للمدرس المذكور أقاربٌ في تلك القرية. بعد أن استقرّ في القرية واستأجرغرفة واحدة فقط تكفيه لكونه مازال عازباً، أحبّ أحد أقربائه أن يكرمه ويعمل له نزالة (غداء على شرف سكناه في القرية) واحتفاءً بتعيينه مدرّساً جديداً لأبنائهم. لكنّ قريبه هذا كان شديد الفقر، وشديد الكرم. ولضيق ذات اليد قال للمدرّس (ع) :غداً نهار الجمعة ياصاحبي ، وأنا عازمك على مقلى من الكشك اللذيذ، مع الخبز العربيّ. أرجو ان تقبل دعوتي المتواضعة ، ولاتكسفني.

قبل المدرس (ع) الدعوة بكلّ سرور وطيبة خاطر. في صباح اليوم التالي توجّه نحو بيت قريبه المبنيّ من الحجارة السوداء والمسقّف بالربد والتراب والمكوّن من مضافة صغيرة وغرفة تستخدم لكلّ شيء ، للنوم ، للطعام ، للطبخ ، ولاستقبال النساء.

أمّا من الداخل فكانت المضافة كما العادة، وبسبب الفقر الشديد مفروشة بفرشات قديمة محشوّة بكرارة الثياب والخرق البالية، ومغطّاة بأغطية قديمة مصنوعة من التريفيرا المزركشة (أرخص أنواع الأقمشة وفيه كثير من خيوط النايلون) ، تعلوها مخد مهترئة محشوّة بريش البرغل.

كان البيت رغم أثاثه البسيط والقديم نظيفاً جدّاً، تنبعث منه رائحة صابون

الغار الحلبيّ المعطّر وبرش الصابون .

دخل المدرس(ع) إلى المضافة واتّخذ له مكاناً تحت نافذة متطاولة تستخدم كمغسلة لغسل الأيدي بعد تناول الطعام ، كما أنّها كانت تزيّنها سطول من الحبق الأخضر النامي بقوّة. حيث اشرأبت أوراقها وأغصانها البديعة لاحقة الشمس ، وناشرة عطرها الفوّاح في أرجاء المكان . شعر بسعادة لاتوصف وغمرته طاقة إيجابيّة لم يشعر بمثلها من قبل. بعد قليل دخل المعزّب عليه وأهّل وسهّل به وقال له والغبطة بادية على وجهه : لقد حضّرت لك مفاجأة جميلة ، ودعوت إلى الغداء شخصين لن يخطرا على بالك أبداً أبداً ولن تصدّق من هما.

قال السيّد (ع) وقد أخذه الفضول الشديد لمعرفة الشخصين المذكورين : بالله عليك ، قل لي من هما . ليس لدي الصبر الكافي لأتحزّر .

قال له قريبه : (لقد دعوت إلى وليمة الكشك هذه الباشا سلطان الأطرش وأخيه زيد) .

لم يكمل كلامه حتّى ظهر الباشا وأخوه زيد ، ودخلا المضافة وسلّما على الضيف، ورحّبا به كثيراً وأعجبا بعلمه وثقافته وقالا له : أنتم المتعلّمون والمثقّفون أمل المستقبل ،وستحملون الراية من بعدنا.

بعد قليل دخل المعزّب حاملاً طبقاً من القشّ ، وعليه مقلى قديم مطعوج فيه كثير من التجاويف والنتوءات مصنوع من الألمنيوم، وعليه بقايا رماد وبقايا سخام أسود وآثار حطب محترق ومملوء بالكشك . وأيّ كشك !عبارة عن شوربة كشك بائس ، قليل الدسم ،ويفتقر إلى كثير من الحراحيس (مفردها حرحوس وهي قطع صغيرة من اللحم الأحمر مطبوخ مع إلية الخاروف يحفظ لمؤونة الشتاء) ودهن المعاليف والسمن العربيّ الذي يصنعه ميسورو الحال.

وحوله بضعة أرغفة من الخبز العربيّ المرقوق. آه منك أيّها الفقر! تباً لك ما أقساك !

(تفضّل . تفضّل ياباشا .تفضّلوا ياجماعة على الميسور!) قال المعزّب .

تحلّق الجميع حول الطبق وبدؤوا بتناول الطعام ، والفرح والسعادة تغمر وجوههم الفليحة السمحة.

صار الباشا سلطان كلّما تناول لقمة من الخبزيغمسها بشوربة الكشك ويأكلها بكلّ شهيّة وسرور ثم يلتفت إلى أخيه زيد ويقول له : (يازيد ..أني بحياتي ماذقت أطيب من هالكشكات . وإنت يازيد شو بتقول ؟).

كان بو غالب زيد يردّ عليه في كلّ مرة ويقول: (بالفعل ياباشا، معك كلّ الحقّ أطيب من هالكشكات لا ذقت ولا بعد بذوق....بحياتي..!).

أكلوا حتّى الشبع وهم يتبادلون الحكايات والأخبار عن الثورة السوريّة والثوار، والمعارك التي خاضوها ضدّ المستعمر الفرنسيّ ، وهكذا حتّى أنهوا طعامهم مع الضيف بكلّ تواضع، ولم يُشعِرا المعزّب الفقير الحال بفقره المدقع وبؤسه الشديد.

عجب المدرّس (ع) عجباً لا حدود له واندهش أيّما دهشة لتواضع هذين الرجلين الشديد. موقف لن ينساه طيلة عمره ، بل ظلّ يعيده على مسامع أصدقائه وأقاربه كلّما سنحت الفرصة.

مبيّناً مدى تواضع هذين الرجلين واحترامهما للناس العاديّين البسطاء ، ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم.

سوّد وجهنا هالتلفزيون

أوّل مادخل التلفزيون الأبيض والأسود إلى قرية «أمّ البساتين» ، لم يكن يوجد إلّا جهازٌ واحدٌ عند إحدى المغتربين القادمين من فنزويلا.

كان نصف أهل البلد يجتمعون عند صاحب البيت . لماذا..؟ لتتفرج على سميرة توفيق بالذات.

كان العم أبو هايل يعرف لماذا أتت كلّ هذه الأعداد الغفيرة، وكان هو أيضاً يحبّ سميرة توفيق ، ويحبّ أن يشاهد جمالها العربيّ ، وعينيها الكحيلتين، وقدّها الممتليء. لذلك كان يبدأ بالبحث في المحطّات ، يقلّبها ويشقلبها . لكنّ التلفزيون كان يخونه في كلّ مرّة ، ولاتظهر سميرة توفيق على الشاشات .

فكان ينتابه الخجل ويبدأ بالاعتذار من الضيوف قائلاً لهم : (أتواخذوناش يا جماعة . سوّد وجهنا هالتلفزيون ، مش عبيطيلع سميرة توفيق الليلي) .

عندها تنفضّ الجموع من بيت أبي هايل وينصرف كلّ واحد إلى بيته مقهوراً.

قلّلي No ...قلتلّو Yes

مرّ أبو قاسم بائع الخضرة من جانب بيتنا كما هي العادة كلّ يوم، وهرعت نساء الحارة بمن فيهنّ أنا لنشتري الخضرة. كان يصيح بأعلى صوته :

(يالله عالخضرة..يالله عالخضرة..معنا بطاطا ...قلع جديد البطاطا...معنا بصل.. معنا خس..معنا بقدونس..كلّ عشرة كيلو بطّيخ ب١٠٠ ليرة. تاع..قرّب وجرّب... معنا خيار..)

(أصابيع البوبّو الخيار...بعده على أمّه الخيار.)..(مع التلحين)

بعد أن توقّفت السوزوكي في الساحة الموجودة في وسط الحارة، وتحلّقت النساء حولها لتتفحّص الخضرة الموجودة في داخلها، وإذا بي أرى السيّارة مليئة بالخسّ الأصفر، مبعثرة أوراقه على أرض السيّارة، و البندورة المفعوسة مرميّة في زاوية السيّارة الداخليّة ، بقدونس أصفر على أخضر..ذبلان (وعايف حالو ، بطّيخ صغير لاهو أحمر ولاهو أصفر) .خيار مثل أصابيع العجوز ؛ ومع ذلك ظلّ أبو قاسم يصيح على طول صوته) أصابيع البوبّو الخيار . يسلملي ربّو الخيار) .

قلت له من باب اللباقة : (صباح الخير أبو قاسم كيف هالخضريات معك اليوم؟)

(الخضريات اليوم غير شكل يختي top..top). ردّ عليّ بالإنكليزي .

(قلتلي Top لكان والخيارت كيف وضعهن ؟) .

قال: (الخيارات okey وإذا مش مصدّقتيني تعيِ دسيّ !)

قلتله : فيك تقلي ليش عبتحكي إنكليزي ؟

قللي : (يعني حسب الحارة. إذا كانت حارة أكابريّي بحكي إنكليزي..وإذا حارة كلّ مان إيدو إلو ..بحكي عربي.)

قلتله : (بس خضرتك اليوم بتقرّف تواخذنيش بهالكلمي)

قللي : No....No

قلتله :Yes....Yes

معذّى والحمار

ذهب معذّى ليستعير حماراً من عند جاره أبي معضاد .قال:

صباح الخير عمّي أبو معضاد .

صباح النور سيّد معذّى ،تفضّل ، تفضّل قل ماتريد .بماذا أستطيع أن أخدمك؟ ردّ السيّد أبو معضاد.

هل لك أن تعيرني حمارك لمدّة من الزمن..لكي أنقل كيس القمح إلى المطحنة ؟ قال معذّى

ياليتني أستطيع ياسيّدي .حماري ليس هنا ، إنّه في الحقل يرعى العشب . قال أبو معضاد.

في هذه الأثناء نهق الحمار بأعلى صوته من داخل الزريبة ، بحيث سمعه كلّ من معذّى وأبي معضاد بوضوح...هيييي.....هوووو !

قال معذّى والدهشة بادية على وجهه : ولكنّ الحمار هنا داخل الزريبة ينهق بأعلى صوته..كيف تقول إنّه في الحقل ؟ عمّي أبو معضاد ؟

أسكت ياهذا اسكت ! أتصدّق الحمار وتكذّبني ؟ ردّ أبو معضاد بصوت عالٍ زاجراً معذّى على وقاحته. صحيح أنّك لاتستحي على حالك !

ولّى معذّى الأدبار من دون أن يأخذ الحمار

مش مهمّ

مش مهمّ

المهمّ أن

لانتوقّف عن التفكير

ولاندع الأفكار

تتبعثر وتطير

في عصر الشكّ والتغيّير

في عصر سمّوه

عصر الزهايمر والزمهرير

ارتحال إلى أعماق الكون

متكوّرة أنا تحت غطائي الثقيل
في لحظة من الزمن فريدة واستثنائيّة
استطاعت ذرّات جسدي
أن تترك سجنها الأرضيّ
أن تتفكّك وتنفلت من عقالها
تخطّت طبقة الأتموسفير
وانطلقت بسرعة الضوء
لتعانق أرواحاً لم تعرفها أبداً
لكنّها تخيّلتها وعشقتها من خلال
أطيافها الهائمة في المدى
وأرواحاً أخرى فقدتها في عزّ الصبا
كان اللقاء أثيريّاً طاقياً رائعاً
لم يدم طويلاً إذ
بعدها تكثّفت ذرّات جسدي الفاني من جديد
وعدت لأتكوّر في سريري البائس

لأسجن مرّة أخرى في جسدي

كانت ومضة في الذهن فريدة

لكنّها قط لن تعود .

انعتاق

حول عنقي

ألف حبل وحبل

وروحي محجوبة

خلف ألف جدار..وجدار

حاولت تجنيب رقبتي

المشنقة

وحاولت الانعتاق

وفكّ أسر روحي المكبّلة بالأصفاد

وفي كلّ مرّة أحاول فيها الانعتاق

أصاب بالخوف والاختناق

في زمن الانكسار والإخفاق

فأعود للتكوّر والانغلاق

في قوقعة الصمت والارتياب.

ذكرى مؤلمة جدّاً

لم أستطع نسيانها حتّى الآن

عندما كنت في أحدى الصفوف الابتدائيّة ، أجرى لنا معلّم الصفّ اختباراً في مادّة التربية الإسلاميّة (الديانة) . وبعد أن صحّح لي المعلّم المذاكرة، وأعاد توزيع الدفاتر على التلاميذ، جاء دوري .

نادى الأستاذ أمام الطلاب من خلف طاولته الخشبيّة :(سلوى أبوسيف!!! الله لايعطيكي العافية على هالمذاكرة) . لقد نلت ٤٠ درجة من أصل ١٠٠ يعني درجة ضعيف. مع أنّ الأستاذ كان يعلم أنّي كنت متفوّقة في كلّ المواد إلاّ هذه المرّة ، إذ لم أستطع حفظ الآيات جيّداً لأنّني لم أفهم معناها ، فاستحقيت هذه الدرجة المتدنّية والمخجلة.

تابع الأستاذ توبيخه لي وقال : (إنتي وحدي مش خرج مدارس وعلم . روحي انقلعي عاوني إمّك على حلب العنزات أو روحي اسرحي بالغنمات أحسنلك !).

ساعتها تمنّيت لو انشقّت الأرض وبلعتني لكان أهون علي ، وتمنيّت ألاّيرى وجهي أحد بعد هذا التوبيخ الجارح. ومن وقتها حتّى هذه اللحظة لن أنسى هذه العبارة : (روحي اسرحي بالغنمات أحسنلك . إنتي وحدي مش خرج علم).

ريتها تنذكر ما تنعاد !

قهر

كان في زلمي(رجل) حالته الماديّة تحت الوسط موظفاً من الدرجة العاشرة. كان دائماً يشعر بالقهر والغبن لقلّة حظّه في هذه الحياة ،لكنّه لايستطيع أن يبزم ولابزمة في المكان الذي يعمل فيه. وكان يقول لكلّ من يكلّفه بعمل في الدائرة: (حاضر ، على راسي ، على عيني ، من عيوني الثنتين) . وللصبايا يقول لهن : (إنتو بس أمروني . إنتي ياحلوة على رمشي بتمشي .وطلباتك أوامر ياحلو !) .

لكن هذا الهدوء الظاهري والوداعة التي تشبه وداعة الحمل كانت تخفي خلفها قهراً عظيماً ، وشعوراً بالغيظ كاد أن يمزّقه من الداخل.

لذلك عندما عاد في يوم من الأيّام من عمله..وكان نهار الخميس نهاية الأسبوع... متعباً ومنهكاً طيلة النهار من كثرة تلبية طلبات المدير والموظفين والزبائن ،لاعناً هذه الحياة على ظلمها له ؛ دخل بيته غاضباً ونادى زوجته بصوت عالٍ مزمجراً وقال :

(يا مرا ! شو طابختيلنا اليوم ؟)

خافت الزوجة المسكينة من زوجها وردّت بصوت رخيم ومهذّب وفيه كثير من الحنان وقالت :

(طبختلك مجدّرة يازلمي !) .

هجم عليها وصرخ فيها قائلاً :

(وعبتردّي جواب كمان ؟ قديش صرت قايلك يا مرا لاتردّي بوجهي جواب ، ما كنتي تسمعي كلامي . مجدّرة ؟ هذا جواب بيتجاوب لجوزك .قال مجدّرة قال! الله يعدمّني ايّاكِي ما أطول لسانك وما أقل هيبتك من بين النسوان !) .

ان شالله عمرها ماكانت هالقَصّة

قَصّة شعر عند الحلّاق وليست قِصّة تحكى

ذهبت، وياريتني ماذهبت، إلى حلاّق في المدينة ذاع صيته بين العباد، وطبّقت شهرته البلاد، لكي أقصّ وأصفّف ماتبقّى لي من شعيرات في رأسي.

وإذ دخلت الصالون الملعون، قلت للحلاق : (في عندي شويّة شعر براسي)،أرجو أن تقصّهم وتصفّفهم لي قدر الإمكان. قال لي : (معلوم ..تكرمي ياصغيرتي. تفضّلي لأغسل لك شعرك..قلت له : لقد غسلته في البيت ولا داعى لذلك . (بدّيش عذّبك) ..قال لي : (مابيصير ! بدي مّشلك ايّاهن تنميش منهن بيلينوا وبيبطلوا واقفين براسك مثل السنانير وقوف !) . قلت له: (طيّب على راحتك ..مّشهن لكان) .

جرني المذكور إلى المغسلة وفتح النافورة ونزل الماء المجلّد فوق رأسي. (نطّيت بأربعتي) وقلت: (أحووووو...أحووووو !) .

عاد بعد قليل وأدار الماء الساخن فوق رأسي المتجمّد ؛ فإذ بالمياه المغليّة تسقط على رأسي بقوة . صرخت بأعلى صوتي: (آآآآخ ...آآآآخ...!) .سمع صراخي كلّ من في الصالون ، واستداروا نحوي يضحكون ويقهقهون وعليّ يتمسخرون .

قلت له: (الله لايعطيك العافي ! ويلعن الساعة هلي جيت فيها لعندك ودخلت صالونك البغيض هذا). ردّ وبكلّ بروود : خلص ! خلص ! فهمنا عاد !) ياحلوتي .لماذا تصرخين هكذا ؟لقد صرعتينا . (محرزي يعني ؟) . تفضّلي إلى كرسي

الحلاقة لأقصّ لك شعرك (وأعملّك تسريحة). قلت له : كيف تقول : (مش محرزي) ، وقد سلخت جلدة رأسي وأفقدتني إحساسي ؟

صمت ولم يعد يتفوّه بكلمة ولفّ لي شعري بمنشفة وسخة ، وكأنّما قد علكها كلب. ثم أجلسني على الكرسي فاسترحت وركدت .

بعدها بقليل ،جاء بالسيشوار وكبس على زر التشغيل..وووششش...ووووششش... وما إن بدأت أشعر بالقليل من الدفء حتّى انقطعت الكهرباء في تلك اللحظة الحرجة..

دار الهرج والمرج ، وارتفعت الأصوات ثم انخفضت ، وسمعت وشوشوات تنبئ أنّ المولّدات خربانة . بدات التليفونات لاستحضار الفنيّين ليصلحوا العطل المذكور . انتظرت وانتظرت وتململت في كرسي الاعتراف . بردت . انطعنت . أخذت غفوة . ازدادت شعرات رأسي بالوقوف من شدة القهر والغيظ . فتحت عيوني من جديد . نظرت إلى ساعتي ، يا للهول ! لقد مضت ساعة وأنا على هذه الحالة . ماالعمل ياربّي ! لا أستطيع الفرار وأنا في هذه الحالة وشعري منمّشْ ومنكوش .

(هه..هه ! إجت الكهربا إجت . أخييي..أخييي..يا ما إنت كريم يارب !) .فُرجت والحمدلله..أتى الحلاّق مسرعاً والمقصّ في يده وبدأ يقصّ لي شعري .أنهى العمليّة خلال خمس دقائق . قلت له: (نشّفلي شعري بس . مابدّي تسريحة ولا مثبّت ولا شي ، خلّصني ، بدّي فلّ على بيتي. قال: (طيّب ! .مثل مابدّك) .

نشّف لي شعري . نظرت إلى نفسي في المرآة وقلت لحالي : (ياالله ماشي الحال، المهمّ إنّي خلّصت وناموا شعراتي على الآخر وانسدلوا لتحت. ضبّطت حالي وفتحت جزداني وقلتلّو للحلاّق : قديش بتأمرني يامعلّم !)

قال لي : (خلّيها على حسابنا . مش محرزي !) . قلت له : (لأ ..لأ مابيصير . إنت بتحرز ، يخليلي اياك ربّي ، بدّك تاخذ .أبقبلش . صحيح إنّو إنت كلّ هالعمليّة كلّفتك خمس دقائق وشويّة ميي وتنميش . بس هذا حقّك ولازم تاخذه . بحياتك..قلّي قديش ؟) .

قال لي : (طيّب مثل مابدّك . بدّي منك ٣٠٠٠.ل.س بس !) .

ياللهول ! دارت بي الأرض ومادت وكدت أن أصرخ مرّة أخرى، لكنّني بلعتها وكظمت غيظي ، ومن شدّة الكظم والبلع (رجعوا وقّفوا شعراتي براسي. مع ما إنّي قبل شوي كنت عند دكتور الأسنان ومقلّعا دراسي وفاقدي كلّ إحساسي) .

يمكن سحبهن الفار(الفأر)

عندما كنت طفلة في الرابعة أو الخامسة على ما أظنّ ، أعطاني أخي الأكبر الذي كان معلّما في إحدى القرى المجاورة قطعة نقديّة من فئة «الفرنكين» ، أي ما يعادل عشرة قروش .

ابتهجت بالقطعة النقديّة كثيراً، وبقيت طيلة النهار أقلّبها ، أتمقّلها وأحرنق إخوتي بها.

أطبقت يدي عليها بإحكام طيلة النهار حتّى تعبت يدي وبلّلها العرق.

بقيت على هذه الحالة حتّى أفلت الشمس وشارفت على المغيب.

لم أدر أنّ أمّي كانت تراقبني طيلة الوقت ، لترى إن كنت ما أزال محتفظة بالنقود أم لا.

لم أعد أحتمل وجود القطعة في يدي ، بل كان عليّ التفكير بطريقة مضمونة لإخفائها عن عيون إخوتي.

قلت في نفسي: أين ستخبئيها يا سلمى ، أين؟ إن وضعتها داخل البيت ، في الصندوق ، تحت اللحف ، أوتحت البلاس[1] فستكون كلّها أماكن مكشوفة ومخابئ معروفة وسيعثر عليها إخوتي.

فكّرت ،وفكّرت وقلّبت الأمر في ذهني ، ثم اهتديت إلى حلّ .

البلاس :بساط قديم يصنع من شعر الماعز وتفرش به البيوت قديماً..ويصنع يدوياً على نول خاصّ.

ذهبت إلى الجدار الذي يحيط ببيتنا الطينيّ ، جدار مبنيّ بشكل عشوائيّ وغير متقن من حجارة سوداء، تغطّيها (حنّة قريش) البنيّة والخضراء. الحجر الصغير تحت ، والكبير فوق أو العكس تسندها صَرّات(بحصات صغيرة) صغيرة هنا وهناك.

فتحت يدي المطبقة على القطعة النقديّة ، ودحشتها بين حجرين غير ملتصقين كثيراً ، ووضعت فوقها بعض الأعشاب للتمويه وحفظت المكان جيّداً.

نمت تلك الليلة قريرة العين ، لكنّني كنت أنتظر طلوع الفجر بفارغ الصبر لكي آخذ القطعة وأذهب إلى دكّان عمّي سليمان وأشتري الحلوى والكعك من عنده.

لم أدر أنّ أمّي لم تكفّ عن مراقبتي ، وقد رأتني أضع النقود بين الحجرين.

استيقظت في الصباح الباكر . فركت جفوني. تثاءبت ملء فمي وقحصت من الفراش ، وركضت رأساً إلى مخبئي الحصين.

أزحت العشب عن الشقّ الموجود بين الحجرين . نظرت إلى داخل الشقّ. لم أجد شيئاً ! ركضت مسرعة إلى أمّي.

(يمّي[1] يمّي ! شفتيلي شي فرنكين؟ كانوا معي مبارح).سألتها..بعد أن غصّ حلقي بالبكاء.

قالت: (وين حطتيهن ياسلمى ؟)

قلت: (هون ،بين هذول الحجرين ،في الشق !). وركضت إلى المكان الذي أخفيت فيه نقودي الغالية، وأشرت بيدي ناحية الشقّ.

---

١) يمّي : يا امي

رأيت شفتي أمّي تنفرجان عن ابتسامة صغيرة جدّاً لكنّها خبيثة. حاولت أن تخفيها عنّي ولم أعرف سببها إلّا بعد أن كبرت.

قالت:(لا لا ، ماشفتهنش . يمكن سحبهن الفار . ياعلليلا لونّي شفتهن).

صدّقت أمّي على براءتي وبكيت بكاءً شديداً ، ومسحت دموعي بأكمامي ، وعدت متباطئة إلى فراشي، ألعن ذلك الفأر الذي سحب نقودي من بين الشقوق. بلّلت دموعي خدّي ومخدّتي . وما ذهبت إلى الدكّان..وما اشتريت الحلوى والكعك ، وبقيت حزينة طيلة النهار، ولمت نفسي كثيراً على فشلي في إخفاء القطعة النقديّة ذات الفرنكين عن عيون الفأر اللعين ، ومازلت إلى يومي هذا أكره هذا المخلوق الصغير الذي سرق نقودي من بين شقوق الجدار الحجريّ القديم . لكنّني فهمت بعدها بوقت طويل ماذا كانت تعني ضحكة أمّي المكتومة المريبة. لقد أخبرتني فيما بعد أنّها هي التي سحبت الفرنكين من بين شقوق الجدار ووضعتها في صرّة من القماش القديم ودسّتها في عبّها بسبب حاجتها الماسّة للنقود . حيث إنّها اشترت لنا بقيمتها طعاماً للغداء يكفي لكلّ العائلة .

أهمية شيخ القرية في ماضي الزمان

في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ نزحت عائلات بأكملها من جبل لبنان باتّجاه سوريا وجبل العرب ، بسبب سنوات المحل والجوع التي حلّت بلبنان الشقيق ، وبسبب التنكيل الذي مارسه الأتراك على السكّان المحلّيّين. وكانت وقتها سوريا ولبنان وفلسطين والأردن كلّها بلداً واحداً اسمه بلاد الشام قبل التقسيم إلى دويلات من قبل الاستعمار الفرنسيّ واتّفاقيّة سايكس بيكو.

كان من بين هذه العائلات ثلاثة اطفال وبنت نزحوا من قضاء حاصبيا إلى إحدى قرى جبل العرب برفقة الأمّ والأب. أركبهم والدهم فارس، إثنان ً على ظهر الدابّة ، وآخرين في عَيْنَيتيَ الخرج كلّ واحد في عينة ، بينما رافقته الأمّ مشياً على الأقدام. طال بهم الطريق وتطاول حتّى حطّت بهم الرحال في تلك القرية الوادعة من قرى جبل العرب ، حيث كان لهم أقارب من جهة الأم ، والتي هي من ضيعة حاصبيّا اللبنانيّة أيضاً.

استقبلهم أقاربهم بكلّ حبّ وحنان ، وأسكنوهم في غرفة خاصّة من بيتهم، وقاموا برعايتهم وتأمين العمل لهم في الزراعة وتربية المواشي ، مصدر الرزق الوحيد في تلك الآونة. وهكذا مرّت الأيّام وكبر سعيد وفرحان ويوسف وفريدة، واشتدّت أعوادهم..

لم يشعروا بالذلّ والوحدة في يوم من الأيّام في هذه القرية الجميلة، على الرغم من أنّهم تركوا عائلتهم الكبيرة العدد في لبنان، وأصبحوا الآن في رعاية أخوالهم

أقارب أمّهم. بل تربّوا على الأنفة والكرامة وعزّة النفس ، والشعور بالقوّة رغم أن عائلتهم الجديدة كانت تتكوّن من ستّة أشخاص فقط لاغير .

في أحد الأيّام وبينما كان الأولاد يلعبون في الجوار، تشاجر يوسف الولد اليافع ذو الاثنتي عشرة سنة مع ولد آخر من أبناء القرية . بكى الولد ،وركض مسرعاً إلى أبيه ،وقال له :لقد ضربني يوسف اللبنانيّ ضرباً شديداً ، وأريدك أن تنتقم لي منه بسرعة، إنّه مايزال في الطريق... أرجوك يا أبي لقد كسر خجلي أمام رفاقي . هل ترضى بذلك ؟؟ أرجوك ...أرجوك.

فار دم الوالد من شدّة الغضب ، وذهب مسرعاً إلى حيث تشاجر الولدان ، وأمسك بيوسف المسكين وأوسعه ضرباً حتّى كسر له يده. ولّى يوسف الأدبار، ودخل مسرعاً إلى غرفته الحجريّة الصغيرة باكياً من شدّة الألم في يده. أسرع سعيد الأخ الأكبر إليه، وقال له: من فعل بك ذلك ؟؟ قال : إنّه العمّ أبو معروف..لقد قام بضربي وكسر لي يدي.

استشاط سعيد غضباً ، وصاح بأعلى صوته : وحقّ السماء سوف أثأر لك يا يوسف، وسأكسر يد أبي معروف عندما تحين الفرصة. وبالفعل..تحيّن سعيد الفرصة ، وتربّص بالعمّ أبي معروف عندما كان عائداً من الحقل في ظهيرة أحد الأيّام ، وأنزله بالقوّة عن ظهر الدابّة وقال له : لقد حلفت بالله أن أكسر يدك مقابل ضربك لأخي الصغير يوسف وكسرك يده . وبالفعل استطاع أن يتغلّب عليه بسبب قوّته ورباطة جأشه، وقام بكسر يده.

عاد سعيد إلى البيت وأخبر والده وإخوته بالذي حدث ، وفي هذه الأثناء كان أبو معروف قد توجّه إلى بيت شيخ القرية ، واشتكى إليه أمره. غضب الشيخ غضباً شديداً وأمر بترحيل الأب اللبناني وأولاده إلى مدينة السويداء.

تركت العائلة القرية بسرعة وهي لاتملك من حطام الدنيا سوى زوّادة من الخبز واللبن موضوعة في صرّة من القماش الرثّ، وحماراً استعملته لنقلها إلى المدينة.

عندما وصلوا المدينة طلبوا اللجوء عند آل جربوع الكرام وكان لهم ذلك. وعلى عادة أهل الجبل الكرام تمّ استقبال العائلة الفقيرة جدّاً والمرتحلة من لبنان أحسن استقبال ، وأُسكنت في غرفة خاصّة وأُطعمت وكسيت.

بعد فترة من الزمن بدأت الجهود لمحاولة إرجاع هذه العائلة الصغيرة إلى القرية التي لجأت إليها في بادىء الأمر، من قبل رسول من آل جربوع إلى شيخ القرية المذكورة. رُفض الطلب عدّة مرات. وبعد جهد جهيد وافق شيخ القرية على إرجاعها بشرط أن تقدّم للرجل الذي كسرت يده ثلاث ليرات ذهبيّة. لكن من أين للسيّد فارس أن يأتي بهذا المبلغ الكبير، وهو بالكاد يملك قوته وقوت عياله وهو مازال ملتجئ عند آل جربوع الأكارم ؟

لقد أسقط في يد هذا المسكين وشكا أمره لشيخ الجرابعة . قال له الشيخ الجليل من آل جربوع : لاتحزن يا أخي ، سوف أقوم بجمع المبلغ من أفراد العائلة لكي نحلّ مشكلتك. وبالفعل بعد عدّة أيّام جمع المبلغ من كلّ بيت من بيوت آل جربوع ، وأعلموا شيخ القرية المذكورة بذلك، بعد أن أرسلوا له رسولاً مختصّاً بهذه الأمور ليخبره أنّ شيخ بيت جربوع يريد مقابلته .

في اليوم التالي دخل شيخ القرية المذكورة إلى مضافة بيت جربوع بعد أن ترجّل عن فرسه الأصيلة القويّة ، وبعد تبادل السلام والمجاملات المعهودة ، ناوله صاحب المضافة ثلاث ليرات ذهبيّة كفدية عن العائلة المرحّلة عن القرية. ونودي على السيّد فارس وأولاده بان يلحقوا بالشيخ ويعودوا إلى قريتهم وبيتهم سالمين.

بعد مسيرة نهار بأكمله دخل الشيخ القرية راكباً فرسه الأصيلة، وبصحبته السيد

فارس وأولاده يمشون خلفه . في الليل اجتمع أهل القرية في دار الشيخ بمن فيهم السيّد أبو معروف الذي كسر الشاب سعيد يده. أخبر شيخ القرية الحضور بما حدث بينه وبين آل جربوع ، وقدّم الليرات الذهبية الثلاث لأبي معروف، وتمّ الصلح. ومنذ ذلك الوقت أصبحت العائلة النازحة من لبنان في حماية شيخ القرية، ولم يعد أحد في القرية يتجرّأ بالتسلّط أو الاعتداء على أيّ فرد من أفراد تلك العائلة ،أو الاستخاف بهم أو تعييرهم بقلّة عددهم. وعاشت العائلة معزّزة مكرّمة تحظى باحترام أهل القرية بقيّة حياتها.

هكذا كانت المشاكل المستعصية بين الناس تُحلّ ، وكانت كلمة الكبار بمثابة قانون يجري تطبيقه واحترامه من جميع الناس..ويالها من عادات جبليّة كريمة يتمّ فيها احترام الإنسان وحقوقه، دون وجود قضاة ومحاكم يضيع فيها الحقّ ويموت مع تقادم الزمن.

كانوا بيقرقشوا

ذهب معذّى ليزور أخته في قريتها البعيدة جدّاً عن قرية أهلها. نوى بينه وبين نفسه أن يشتري لها كيلو من القضامي كهديّة أحسن مايفوت فاضي (عليها)، وهو الذي لم يزرها منذ وقت بعيد. مرّ بطريقه بأوّل دكّان وهم بالنزول عن ظهر الحمار لكي يشتري كيلو القضامي، لكنّه غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة ، وقال في نفسه : (يالله بلاها ..إسّا..بعود بشتريلها ايّاه من القرية الثانية).

نَهَرَ حماره ومشى، وعندما وصل إلى ساحة القرية التالية ، رأى دكّاناً مليئاً بالمكسّرات الموضوعة في قطرميزات مصفوفة بجانب بعضها بعضاً ، بشكل يجعل المارّ على الطريق يشتهي شراء البعض منها. قال للحمار : (هيييش...هيييش ..وقاف ياسايب !!). وقف الحمار ونزل معذّى عن ظهره، وخطا خطوتين باتّجاه باب الدكّان ليشتري كيلو القضامي ، لكنّه عندما وضع قدمه على عتبة المحلّ عكف راجعاً بسرعة ، وقال : (يالله ..إسّا بلاها..بعدين بشتري كيلو القضامي من قرية إختي، ليش لمنّي إحملهن وإتعذّب..).

ركب على ظهر الحمار مرّة أخرى وتابع المسير. مرّ بطريقه بثلاث أربع قرى متتالية، ولم يشتر شيئاً ، بل كان يقول في كلّ مرّة :(إسّا مش ملايمي معي..خليها لبعد شوي) . بعد حوالي ثلاث ساعات وصل معذّى إلى قرية أخته ،ولم يشتر كيلو القضامي. عندما وصل إلى بيتها ، رحّبت به أجمل ترحيب، وضمّته بالأحضان، وسألته عن أهلها وجيرانها وصديقاتها. بعد أن طمأنها عن وضع الجميع قال : (يختي كنت بدّي اشتريلك كيلو قضامي لهالولاد منشان يقرقشوا).

ردّت أخته وقالت : (ياباري ياخيّي أبتقصرش، يجبلك الخير نشالله، عندي شوفتك بتسوى رزق الدنيا). قال معذّى : (لا يختي ...كيف لكان ..كانوا بقرقشولهن شوي هالولاد....يعني..). ردّت أخته ،وقالت : (يجبلك العمر ياتقبرني... انشالله، وسلامة خيرك ، مابفوتك الواجب أبداً...أفش عتب وحياة عمرك).

قال لها : (لا يختي كيف هالحكي ؟كنت بدّي اشتريلهن شوية قضامي منشان يقرقشوا . خطيي يختي خطيي !). نفد صبر أخته، وقالت غاضبة : (يقي يقي على هالحكي ! جبت قضامي ياخيّي وقلنالك لأ ؟ لو إنّك جبت ، عليم الله ما كنّاش زعلنا ياخيّي يا ضو عينيِّ!ّ).

أمومة

كانت العمّة التقيّة (أمّ حسين) لاتتغيّب عن الذهاب إلى المجلس إلاّ في حالات اضطراريّة جدّاً . كانت تحبّ كاظم ابنها الأصغر حبّاً لايمكن وصفه ، وكانت تخاف عليه من نسمة الهواء العليل ، بل كانت تعامله معاملة خاصّة جدّاً تتميّز عن بقية إخوته وأخواته التسعة ،(يمكن لأنّه شرشوحة القرقة) .

في يوم من أيّام كانون الثاني العاصف ، حيث كانت النواسيف قد عملت كثباناً كبيرةً من الثلج، وسدّت كلّ طرقات القرية ،وصار(الخي بيطلعش لعند خيو)، عنّ على بال كاظم أن يذهب إلى بيت صديقه عبدالله، مع صديقين آخرين ليلعبا (برتيّة ورق) . لبس معطفه الصوفيّ وتلثّم بحرام أحمر، ولبس جزمة بلاستيك عالية الساق. وقال لأمّه : (يمّي ! أني رايح لعند رفيقي عبدالله نلعب دقّ ورق . مش راح طول كثير . ساعتين زمان وبرجع عالبيت) .

(بحياتك ياكاظم ،بلالك من هالروحة الليلة . الدنيا مطبّعة كثير وعبتنوسف وعتم متل الكحل ، إذا بتمدّ إصبعك قدامك أبتقشعهاش ، وكلّ وحوش البريّة بتطفش من الجوع، وبخاف يلحقك الضبع ويسبعك وساعتها مابيعود الحكي ينفع . بحياتك أترحش ياكاظم !) ردّت العمّة أمّ حسين .

ضحك كاظم وقال : (ولو يمّي ! شو شايفتيني بعدني ولد صغير يعني، ماصرت بييّ ولاد، والضبع إذا شافني بيخاف منّي وبيهرب . أتخافيش يمّي تخافيش . إبنك قدّها وقدود ومابينخاف عليه . اطمّني يمّي ، اطمّني) .

انقبض قلب العمّة أمّ حسين انقباضاً شديداً ، ودبّ الهلع والخوف في قلبها على ابنها كاظم أن يأكله الضبع في هذه الليلة الليلاء. كان كاظم قد ذهب إلى الغرفة المجاورة ليبحث عن (الضوّاي) ويضع فيها قليلاً من زيت الكاز، لكي يستعملها لكشف الطريق . استغلّت العمّة الطيّبة غياب ابنها كاظم ووجوده في الغرفة المجاورة ، وأسرعت إلى الهاتف اليدويّ ،وأدارته على بعض الأرقام ثمّ رفعت السماعة وقالت :

(..ألو..الو...مين عبيحكي...مرحبا...مين ...عبدالله ؟...أنت عبدالله...ياالله...تعال بسرعة...عمنستنّاكن ..نحنا هون ثنين...أني وكاظم.....وبعد بدنا ثنين منصير أربعة لنلعب دقّ ورق....مروق على تركي وفضل الله جيبهن معك وتعالوا تلاثتكن سوا...بسرعة..بسرعة..إصحك تجي لحالك يمّي ..وإذا في ميّي على راسكن خليهن ينشفوا هون..).

ولم تُنهِ العَمة إم حسين كلامها حتى كان فضل الله وعبد الله يدقّان على الباب بقصد لعب برئية ورَق مع ابنها المدلَلْ كاظم.

قيمة الوقت

قلّما كان الناس يلبسون ساعات يد لتدلّهم على الوقت على أيّام آبائنا .لأنّ الوقت لم يكن له هذه الأهميّة التي نراها اليوم. وكان يكفي أن يقال : الوقت الآن ، الصبح ، الظهر ، المسا أو لليل .

لذلك كان العمّ أبو هاني كلما رأى الشاب قاسم لابساً ساعته اللمّاعة في يده اليسرى يستهجن الأمر كثيراً ، ويلحق به مسرعاً و يسأله : (قدّيش الساعة عمّي قاسم ؟). فينظر قاسم إلى ساعته ويردّ على الفور بالقول مثلاً :(إسّا.. الساعة سبعة ونص عمّي أبوهاني).

يردّ العمّ أبوهاني : (سبعة عمّي قاسم ،سبعة . بلا هالنصّ !).

وفي كلّ مرّة يرى العمّ أبوهاني الشاب قاسم يسأله السؤال نفسه: (قدّيش الساعة..عمّي قاسم؟) . فإن قال قاسم : (ثنتين إلاّ ثلث)، يقول له العمّ أبوهاني: (ثنتين عمّي ثنتين . بلا هالثلث !). وإن قال له : (خمسي وربع) ، قال له: (خمسي عمّي قاسم ،خمسي .بلا هالربع !).وهكذا كان الوقت بالنسبة للعمّ أبي هاني دائماً عدداً صحيحاً ،لايصحّ أن يحتوي الكسور، فالكسور ليس لها أيّ وجود في قاموسه ولا تعني له شيئاً .

رسالة إلى المجرّات الكونيّة

أنا الإنسان

الذي خلقني الله

على كوكب الأرض

أشعر بالضياع

أرجو إنقاذي

فوراً

من نفسي

لما اقترفت يداي

بحقّ نفسي

لم يتغيّر شيء

عندما غادر الشاب (مرسل) قرية عرمان ، ودّع أهالي قريته الذين تجمّعوا في مضافة والده العتيقة با لبكاء المرير، وكأنّه يعلم في قرارة نفسه أنّه لن يعود إليهم في وقت قريب.

عندما خرج من باب المضافة الذي نخره السوس ، وضع قدمه اليمنى على ُرقّة حجرية مسطحة تحت عتبة الباب . لم تتحمّل الُرقّة وزنه الثقيل بل تقلقلت في مكانها ذات اليمين وذات الشمال، وأصدرت صوت طقطقة وصرير. كادت حركتها هذه أن توقعه على الأرض. لكنّه استطاع تثبيت نفسه جيّداً، وتحاشى السقوط أمام أهل ضيعته .

أخذ حقائبه و استقلّ السيّارة متوجّها إلى دمشق ومنها إلى فنزويلا. وبما أنّ (الروحة بالإيد والمجية مش بالإيد) ، تشاء الاقدار أن يعود مرسل إلى ضيعته بعد خمسين عاماً وقد أصبح في السبعين من عمره، أشيب الشعر ،محدودب الظهر أضناه التعب والسفر الطويل .

عندما علم أهل القرية بعودته تجمّعوا في مضافة لاستقباله بعد هذه الغيبة الطويلة.

توقّفت السيّارة أمام بيت أهله القديم ، ونزل مرسل منها وقلبه يخفق بشدّة لشدّة شوقه لملاقاة من تبقّى من أهله وأهل ضيعته. وبعد أن أنزل السائق الحقائب ، انطلق مرسل باتّجاه المضافة مسرعاً .عندما وضع رجله على آخر رُقّة

حجريّة..تقلقلت واهتزّت وأصدرت صريراً وطقطقةً، وكاد أن يقع على الأرض أمام جموع أهل القرية. لكنّه ثبّت قدميه جيّداً متّكئاً هذه المرّة على عكّاز جميلة حملها معه من فنزويلا واستطاع أن يتجنّب السقوط بصعوبة بالغة ، ونجح في الدخول إلى داخل المضافة، بعد أن ترنّح عدّة مرّات ذات اليمين وذات الشمال فوق الرُقّة الحجريّة.

بدت الفرحة العارمة على وجوه الجميع . جلسوا جميعاً على الطواطي متجمّعين حول مرسل غير مصدّقين أنّه قد عاد إلى القرية . وكالعادة بدأت تنهال عليه الأسئلة من الجميع. (كيف كانت هالسفرة ، نشالله توفّقت . مين شفتلّنا بفنزويلا. هون أحسن ولا غاد ؟) . وهكذا إلى أن جاء أحدهم وقال له : (شو لقيت متغيّر بهالضيعة يا سيد مرسل ؟) .

تنهّد مرسل وهزّ رأسه الأشيب ، وقال بحسرة : (يومن تركت الضيعة من خمسين سنة ، دعست عا الرُقّة هلي قدام باب المضافة ومارحت أوقع على طولي وصارت تلقلق تحتيّ ، واليوم لقيت الرقّة بعدها مطرحها . يعني ماتغيّر شي بهالخمسن سنة ، ماتغيّر شي وكل شي بعدو على حالو) .

شي بيضحّك فعلاً

عندما كنّا نقوم بتصيح أوراق الامتحانات لطلاّب البكالوريا التي كانت ترسل لنا من دمشق إلى مركز التصحيح في ثانويّة الفتاة في مدينة السويداء ؛ كنت أسري(من قبل الضو) كي أجهّز نفسي وأمور بيتي لكي أتمكّن من اللحاق بالميكروباص ، حتّى لا أتأخّر عن الدوام ، حيث كان علينا أن نتواجد هناك الساعة السابعة والنصف صباحاً ، وأعود الساعة الثانية ظهراً إلى بيتي في الكفر لأتناول الغداء أنا وعائلتي، وأقوم بكلّ مايلزم من أعمال الجلي والتنظيف ، حتّى الساعة الرابعة بعد الظهر، ثمّ أعود مرّة أخرى إلى السويداء لإتمام الورديّة الثانية من أعمال تصحيح الأوراق حتّى الساعة السابعة مساءً وهكذا .

كان من طبيعتي أن أبدأ التصحيح من الساعة السابعة والنصف صباحاً . أضعُ رأسي في أكداس الأوراق التي أمامي ولا أتركها حتّى انتهاء الدوام..غير آبهة بما يقوم به الزملاء من أعمال (الميصعة) ، والهرج والمرج والنزول إلى البوفيه بحجّة تناول السندويش ، أو أيّ شيء. حيث كنت أتناول فطوري في البيت. كما إنّني لم أكن أشارك في تبادل النكات والمزاح من أجل التسلية وبثّ روح المرح في القاعة المخصّصة . حتّى إنّ زملائي رأوا العجب منّي، وملّوا من حضوري.

بقيت على هذه الحالة حتّى آخر يوم من أيام التصحيح وأنا لم أكِلّ ولم أمَلّ. في آخر مرحلة من العمل كان الملل قد أخذ من زملائي كلّ مأخذ، فقاموا وتركوا طاولاتهم وبدأوا بالغناء والتصفيق وعمّت الفوضى كلّ المركز . سمع المغفور له مدير المركز هذا الضجيج ، وهجم غاضباً باتّجاه القاعة، وفتح الباب بقوّة ،

وصرخ بأعلى صوته إذ وجد جميع الأساتذة قد عادوا لمرحلة الطفولة والطلبة. لا أحد منهم يعمل ، بل الكلّ تاركٌ طاولته وأوراقه، إلاّ محسوبتكم التي ما زالت (غازّي راسها بهالأوراق) ، وبالكاد رفعت رأسي باتّجاه حضرة رئيس المركز المبجّل.

توقفت قليلاً عن التصحيح ،ونظرت إليه بكلّ احترام . لكنّني بعد لحظة وبعد سماعي له يقول للجموع : ماهذه الفوضى العارمة التى صنعتموها في المركز؟.. لماذا أنتم تاركون عملكم هكذا ، ألا تخجلون من أنفسكم ؟

توجّه بناظريه نحوي، وقطّب حاجبيه وقال مزمجراً : « إنتي...إنتي...سلوى أبوسيف...أنت سبب الفوضى في هذه القاعة..وأنت من تسبّبت وشجّعت عليها. مخصوم عليك أسبوع من أجور التصحيح .رفعت الأقلام وجفّت الصحف ».

عندها .. بلعت صرخة مكتومة كادت تُخِمد أنفاسي .

فَناء

هذا الجسد الفاني

هو مصدر آلامي

لوكنت طيفاً

أو روحاً هائمة

لما كنت عانيت

وبك ياسجني المؤبّد

قد ذقت العذاب

وبك ابتليت

حتى لو أنّني ولدت مرّة أخرى

فإنّني ،لامحالة

عائدة منك

إليك.

مقابلة صحفيّة

في قديم الزمان وفي سالف العصر والأوان ، عندما كانت العصفوريّة شغّالي على مدار الأيّام ، كان هنالك امرأتان تسكنان المرستان . واحدة منهما «شملكان» والثانية «عطرشان.». عندما أتت الصحافة لتعمل معهما مقابلة. سأل الصحفيّ» نبهان» .. «عطرشان.» :

(ياعطرشان : شو رأيك بصديقتك شملكان ؟)

قالت عطرشان : (شملكان فش منها لولا ما هيي قليلة عقل شوي).

استدار نبهان نحو شملكان وقال : (وإنتي ياشملكان : شو رأيك بعطرشان ؟)

فتلت شملكان رأسها المعصوب صوب نبهان وقالت : (عطرشان ؟ عطرشان من أحسن النسوان ، وياغبنها لولا ماعقلها أصغر من حبّة الرمان) .

انتهت المقابلة

ثقافة هتلريّة

اجتمعت النساء عند الجدّة «أمّ حسين» لشرب المتّة عند الصباح. وللصدفة العجيبة كانت كلّ هؤلاء النسوة قصيرات القامة بمن فيهنّ الجدّة، وواحدة منهنّ كانت بالإضافة إلى قصر قامتها شديدة النحول.

بدات النسوة يتجاذبن أطراف الحديث ، والحكايات والخبريّات من هنا وهناك .

كانت الجدّة «أمّ حسين «تجلس قبالتهن على فراش من الإسفنج ضغط وسط، ومغطّى ببطانيّة يونيسيف رماديّة اللون، وتمدّ رجليها القصيرتين بكلّ ارتياح، حتّى كادت أن تصل إلى أحضانهنّ. بدأت تتمقّل كلّ واحدة على حدة، من رأسها حتّى أخمص قدميها.

أصبح دور المتّة عندها، غيّرت محتويات الكأس ، ووضعت ملعقتين متّة جديدة مع قليل من الهيل، وصبّت فوقها الماء الساخن وبدأت بالكلام. قالت موجّهة الكلام للجميع : (بتعرفوا ياصبايا لو إنّكن كنتو على دور هترل ، كان ندفلكن روسيكن كلكن ندف) .

نظرت إليها جاراتها باستغراب شديد وقلن : (ليش ياخالتي إمّ حسين ؟ ليش شو عملنا لمنّو يندفلنا روسينا ياذلّي ؟) .

ردّت عليهنّ بكلّ ثقة وقالت : (لأنكنّ قصار وضعاف .. وهترل ياخواتي كان بدّو يعمل شعب كلّه حلو وطويل وصحته مليحة، ومافيهوش ولا مرض، وكلّ واحد مابتنطبق عليه الشروط كان بدّو يندفلو رقبته) .

استهجنت النساء هذه الأفكار وقالت واحدة منهنّ : (ما إنتي ياخالتي إمّ حسين قصيرة كثير كمان مثلينا . شو إنتي طويلي كثير يعني ، مش شايفي حالك ؟) .

قالتلهن : (ما أني أوّل وحدي كان بدّو يندفلي رقبتي) .

من يفعل الخير لايعدم جوازيه

كان للعمّ الطيّب أبي نبيل قطعة كرم عنب صغيرة، لايمتلك غيرها من حطام هذه الدنيا الفانية، يطعم منها أولاده الصغار، ويبيع ماتبقّى ليشتري بثمنه مايحتاج له البيت من بعض المؤونة الضروريّة.

في الصباح الباكرمن أحد أيّام شهر آب، عندما أصبح العنب ناضجاً تماماً (في شهر آب فوت عالكرم ولاتستهاب) ، ذهب إلى كرمه هذا لكي يجلب العنب لأولاده . عندما وصل إلى مدخل الكرم رأى امرأة ترتدي ثياباً رثّة، تحمل سلّة وتقطف العنب وتضعه فيها . اقترب منها وقال بكلّ هدوء : (صبّحك بالخير يختي..هل تريدين مساعدة ؟) .

نظرت المرأة إليه وقد أسقط في يدها، من شدّة الارتباك والخوف من أن يفتضح أمرها بين أهل القرية. سقطت دمعتان من عينيها وقالت له : (دخلك ياعمي سامحني ، اشتهى ولادي العنب ، ومعنديش كرم من غير جحد . أرجوك يا عمّي تسامحني ولا تفضح أمري بالبيعة).

حزن العمّ أبو نبيل حزناً شديداً لدى سماعه كلام هذه المرأة الفقيرة ، وقال لها: (حرام عليكي يختي إذا مابتجي كلّ ما اشتهوا ولادك العنب ، وها لكرم كلّه على حسابك ولابد مايكفينا إلنا وإلَك)

ذكريات الطفولة الجميلة

كانت اللعبة في ماضي الايام عبارة عن عود قصير يابس يمثّل جسم اللعبة، وزرّ كبير يمثّل الوجه ، وأقمشة تغلّف هذا الهيكل ،ونرسم عيوناً وأنفاً وحواجب لتكتمل صورة الوجه الطفوليّ . ثمّ نقوم بتلبيسها الثياب الصغيرة التي خيّطناها لها بالإبرة ، ونقوم بوضعها في علبة سردين نظيفة، بعد أن نثقبها من جهتين متقابلتين، ونربطها بخيط ،ونعلّقها بأغصان شجرة البلّوط المعمّرة ،على أساس أنّها سرير صغير للعبة ، ونبدأ بالهزّ لها حتّى تغفو وتنام..هكذا يخيّل إلينا.. وكنّا نعمل لها وسادة صغيرة، وأغطية جميلة من بقايا الأقمشة التي كانت تخيطها أمّي لنا.

كان يتم ذلك في بيت عمّرناه من الحجارة الصغيرة وفرشناه بالبريغيثي (عشبة خضراء منمنمة وطريّة تنمو في البريّة) ، وصنعنا له سقفاً من أغصان وأوراق السمّاق العطر، وغطيّنا أرضيّته بالطراريح والأغطية ، ووضعنا المخدّات..

كنّا بذلك نقلّد الكبار، وننام نوماً عميقاً في هذا البيت الجميل الذي كانت تظلّله شجرة البلّوط، ولانعود إلى بيتنا إلّا بعد مغيب الشمس، حيث كنّا نجلب معنا الأطعمة البسيطة ... لكنّ الشيء المحزن أنّ ابن الجيران الذي كان يكبرنا سنّاً ،كان يأتي ويهدم البيت ويخرّبه ، لأنّنا كنّا نرفض أن نلاعبه معنا . عمل كرّره في كلّ مرّة كنّا نعيد إعمار بيتنا الجميل .

ذكريات لا تمحّي من مخيّلتنا التي كانت صغيرة.

أنت معلّم

أنا بانتظارك ملّيت يامعلّم

الصحيّة يامعلّم

منّك منتعلّم

الصدق يامعلّم

الطاقة الشمشيّة خربت

والميّة سالت على السطح

يا معللللم .

ومنّك منتعلّم

الصدق يامعلّم

قلتلي جاي بعد عشر دقائق

وينك يامعلّمممممم ؟

رحلة البحث عن لقمة العيش

قرّر الشاب حسن أن يذهب للتطوّع في الجيش الفرنسيّ في لبنان في بلدة راشيا، هو وصديقه حمّود بسبب الفقر الشديد الذي كان يسود قرى جبل العرب . كان ذلك في ثلاثينيّات القرن الماضي. لم يكن هنالك سيّارات ولا أيّ واسطة للنقل لتقلّهما إلى هناك ، لذلك تركا القرية قبل طلوع الفجر مشياً على الأقدام بعد أن تزوّدا ببعض الخبز والماء، وارتديا ماتيسّر لهما من الثياب الرثّة، وأحذية صنعها لهما الإسكافيّ يدويّاً من جلد قاسٍ وغير مريح على الإطلاق ، وخاطها بخيوط مصّيص متينة، لكي تصمد في طريق شاقّة وطويلة ، ولاتتمزّق أثناء رحلتهما المقرّرة هذه.

كان الشاب حسن قد اشترى عباءة شقراء جميلة من تاجر شاميّ، كان يأتي بالبضائع الدمشقيّة بين الحين والآخر، ويبيعها في بيت شيخ القرية للقرويّين. وبما أنّ حسناً لم يكن لديه ثمن العباءة فقد كفله الشيخ بأن يدفع ثمنها بالتقسيط، ولعدّة سنوات للتاجر الذي طلب ثمنها خمسة ليرات سوريّة بالتمام والكمال. أخذ حسن العباءة معه كونها كانت غالية عليه كثيراً بالإضافة للزوّادة.

بعد مسيرة عدّة أيّام اجتازا فيها منطقة براق بصعوبة بالغة ، كونها كانت منطقة خطرة يكثر فيها اللصوص وقطّاع الطرق والمجرمون، وصلا إلى دمشق . هناك كان قد نفد منهما الطعام والماء، لذلك قرّر حسن أن يبيع العباءة ليشتري بثمنها زوّادة جديدة تكفيهما للوصول إلى راشيّا . باع العباءة في سوق المزاد بنصف ليرة سوريّة . اشترى خبزاً وتزوّد بالماء وبعض الأطعمة واتّجها باتّجاه لبنان . مرّة

ينامان تحت شجرة ومرّة يحتميان بحائط ومرّة يركضان وأخرى يهرولان ومرّة يستريحان إلى أن وصلا إلى راشيّا .

توجّها فوراً إلى المعسكر الفرنسيّ المخصّص لتطويع الشباب . كان التعب والإعياء قد أخذ منهما كلّ مأخذ. دخلا المعسكر وأعلنا عن نيّتهما في التطوّع، لكنّ الجواب جاء صاعقاً. إذ قالوا لهما : لقد انتهت مدّة التقديم منذ قليل ولا يمكن قبولكما ، إذ أنّ عدد المتطوّعين قد اكتمل. لو أنّكما جئتما البارحة لكنتما الآن في عداد المتطوّعين.

لولم يكونا رجلين لبكيا بكاءً شديداً من شدّة القهر والصدمة، لكنّهما بلعا خيبتهما بمرارة ونعيا حظّهما العاثر ، وعادا أدراجهما من حيث أتيا.. وبالطريقة نفسها مشياً على الأقدام ومزوّدين ببعض الطعام وبضعة فرنكات سوريّة .

تركا المعسكر وتوجّها الى الشام. وصلا مدينة دمشق التي كانت في تلك الآونة صغيرة وقليلة العدد في الليل. احتار الشابّان كيف سيتدبّران أمرهما ، إذ من المستحيل استئناف الرحلة إلى جبل العرب. فقد كانا على وشك أن يموتا من الجوع والتعب. تذكّر حمّود وجود شخص من قريتهما اسمه محمّد يسكن في قرية المزّة. توجها إلى هناك، وفي ساحة القرية سألا عن محمّد الآتي من جبل العرب .بعد جهد جهيد وجدا بيته وتوجّها إليه. أحسن السيّد محمّد ضيافتهم وناما عنده حتّى الفجر . زوّدهما أيضاً بالطعام والماء ، ودعا لهما بالسلامة وتابعا رحلتهما عائدين إلى الجبل باتّجاه طريق دمشق الغربيّ ، حتّى وصلا قرية الكسوة.

كان عليهم أن يبيتا ليلة أخرى فيها عند تاجر كان يذهب إلى قريتهما ليبيع البصل هناك، يُدعى أبو عبدو.. استقبلهما أيضاً أفضل استقبال ، وقبيل الفجر

زوّدهما بالطعام والماء ، ودعا لهما بالسلامة. تركا الكسوة سيراً على الأقدام أيضاً، حتّى وصلا إلى قرية سهوة القمح بمحافظة درعا. تكرّر المشهد نفسه وباتا ليلة أخرى عند تاجر قمح ،كان يتردّد إلى قريتهما في جبل العرب ليبيع القمح، ويُدعى أبو محمّد . عند الفجر زوّدهما بزوّادة جديدة وحمّلهما السلام إلى شيخ القرية.

عند الغروب وصلا إلى مدينة السويداء. كان للشابّ حسن أخت متزوّجة برجل من أهل السويداء، فقيرٍ جدّاً يكاد لايجد قوتاً لأولاده. رحّبت زليخة بأخيها حسن وصديقه حمّود..وبكت كثيراً بعدما علمت بقصّة فشل أخيها في التطوّع في الجيش الفرنسيّ.

بعد قليل دخلت إلى غرفة مجاورة هي وزوجها ودار بينهما الحديث التالي :

(ياذلّي يابوغالب ، فشّ عنّا شي نطعمي ضيوفنا . شو بدّي ساوي ؟ لاخبز ولا طبيخ !).

بوغالب : (رايح إستعير ايد الجاروشة بلكي نجرش شويّة قمح وبرغل ، وبتعودي تخبزي وتطبخيلنا شوية برغل صايط نعشّي الضيوف).

في هذه الأثناء سمع الشاب حسن مادار بين أخته وزوجها من حديث، وعرف الوضع البائس الذي يعيشانه ، وفقد الأمل بالحصول على أيّ شيء للعشاء. نظر إلى رفيقه حمّود وقال له : (قوم ياحمّود قوم ، عبين ما جوز إختي يستعير إيد الجاروشي وتجرش إختي زليخة القمحات والبرغلات وتخبز وتطبخ منكون وصّلنا قريتنا . قوم خيّي قوم ! الله بيعيننا. هلّي شرب البحر ما بيغصّ بالساقية).

وهكذا استأذنا المعازيب وغادرا السويداء في الليل ، وتابعا الرحلة عائدين إلى قريتهما التي وصلاها عند طلوع الفجر، حيث كانت أمطار الشتاء قد بدأت

تهطل، وأصوات الرعود بدأت تصمّ الآذان. وصلا إلى بيتيهما مبلّلي الثياب ، وأقدامهما غارقة في الوحل لكون أحذيتهما قد تمزّقت من كثرة المشي وأصبحت بواطن أقدامهما سميكة ،متفسّخة، ومتقشّرة كخفوف الجمل.

استقبلهما الأهل بفرح شديد ممزوج بالحزن. لم يستطيعا النوم تلك الليلة حيث بدأت الحمى والبرديّة تجتاح جسميهما النحيلين المتعبين، وظلّا مريضين طريحي الفراش مدّة شهر كامل، لابستطيعان المشي أو مغادرة البيت بسبب وضع أقدامهما السيّء .

مكدوس

رحنا لنشتري مكدوس

من سوق الخضرة المنحوس

من الوحل ما قدرنا ندوس

قمنا اشترينا جزمي

وتزحلقت بهالخمّي

ووقعت عن راسي الشكلي

وين..وين هالمسؤولين

أكيد إنّهن مشّ شايفين

ويمكن مابحبّو المكدوس

ولا بحبّو أكل الخضرة

أبداً ..أبداً ..بالمرّة

وبحبّوا اللحمي الهبرة

والخاروف مكتّف تكتيف

ورحنا لنشتري مكدوس

من سوق الخضرة المنحوس

من الوحل ..ما قدرنا ندوس

وآه ...آه...من المكدوس !

اليوم هو

اليوم العالميّ

لحقوق الإنسان

وما أدراك

ماحقوق الإنسان؟

لقد أصبحت

في خبر كان

وعلى نعشعها....كتب

كان ياما كان

كان في شي

اسمه حقوق الإنسان

وإنّا لله...وإنّا إليه

لراجعون

ثم تليت الصلاة

ودفنت حقوق الإنسان

إلى أبد الآبدين

شيء لم يكن في الحسبان !

الضربة القاضية

قلتلها : (عرفتي ياجارتنا إنّو مطربة الجماهير ماتت ؟) .

قالت والصدمة قد ظهرت على وجهها : (ياحبيبيييبي ! كان ناقصهن العرب هالضربة !) .

جرح الوطن

ياقلبي شوبعمل فيك

جرح الوطن بيدمّيك

دمعة طفل بتبكّيك

لحن صغير للكون بيودّيك

وبعد الحبايب بيضنيك

ولمّ الشمل مستنّيك

ياقلب شو حيلتي فيك

حيّرتني فيك

شو بعمل فيك ؟

هدّي بالي

الله يخلّيك...الله يخلّيك.

يضيق المكان

تتضاءل المسافات

وتنغلق المساحات

وتصغر الأمكنة

حتّى لاتتعدّى سريراً

في غرفة نوم نائية

تحيط به الدفاتر والكتب

والأقلام المبعثرة

لها نافذة تشدو على زواياها العصافير

وتفّاحة ...ودرّاقة...وعريشة عنب

خضراء...فوّاحة

لكنّ فكري ...يخترق الزمان

والأكوان....والماضي السحيق

باحثاً عن معنى...لوجود الإنسان

يعود الفكر ..مرّة أخرى

يتوارى..... ويضيع

في لجّة النسيان

والأحزان.

ذكاء فطريّ

كان الشيخ أبومحمد نصرالدين رزق في ضيافة الشيخ أبي محمود سلمان. كان الوقت ليلاً والظلام دامساً، عندما أراد الشيخ نصرالدين الخروج لقضاء حاجة. حمل البيل وأضاءه، ثم خرج معتمداً على عكّازه لإيجاد الطريق إلى بيت الخلاء الكائن في الطابق السفليّ والمحاذي لأرض الدار.

وبينما هو يلتمس طريقه بعكّازه ، إذ رأته ابنة المعزّب. استغربت الأمر كثيراً لأنّه يحمل البيل وهو (الإنسان الضرير) الذي فقد نعمة البصر ، منذ كان طفلاً صغيراً . والبيل لن يفيده في استكشاف دربه .

تقدّمت نحوه وسألته: (عمّي نصرالدين ، لماذا تحمل البيل وتضيئه وأنت -عدم المؤاخذة- ضرير ولا تستطيع الرؤية؟)

قال لها : (إنّي أحمله من أجل أشخاص معميّي القلب والبصيرة، مفتّحي العيون، لكنّهم ربّما لن يروني ،وقد يتدحّموني في هذه العتمة الحالكة، ويوقعوني أرضاً. والبيل سوف ينبّههم إلى وجودي .

هل عرفتِ الآن لماذا أضيء البيل في العتمة وأنا ضرير ؟

غليص

ورا كل طبخة محروقة

ست بيت مهروقة

عبتفقس على الفيس

لتشوف شو صار ب «غليص»[١]

صار مطلّق تلاث نسوان

وميتّم أربع عجيان[٢]

أربع عجيان ياذلّي

بتنطب عليهن القفيّ[٣]

أثاري حابب وعشقان

بنت زغيري هالضرسان

كان براسو عقل وطار

يومن شافا عاتلّي[٤]

---

١) غليص:إسم علم مذكر

٢) عجيان:أطفال صغار

٣) القفّي: وعاء مكوّر توضع تحته الصيصان

٤) التلّي: مؤنث «تل» وهو المرتفع من الارض

الله يبعثلو علّي

شو إنو واحد خسيس

يمكن طغاه بليس!

صدفة قلما تحدث

في تسعينيات القرن الماضي، كنا خمسة من نفس البيت نعلم في نفس المدرسة، انصاف، سلوى، مها، هدى ، عاصم . وأختي سهام الأصغر مني سنا تعلم في المدرسة الملاصقة لمدرستنا ،فيصبح المجموع ستة.

المضحك في الأمر أن حياة المرحومة والدتي كانت تلف لنا عدد كبير من اللقمات بلبن وتضعهم في حقيبة كبيرة وتأخذهم الى المدرسة بنفسها وتعطيهم لنائب المدير وتقول له:

(بحياتك يا أستاذ ، بلكي تناول هاللقمات بلبن لهالولاد ، دخلك بيكونوا جاعوا، بديش وصيك يا معوّد !) .

العمر محتوم والرزق مقسوم

عرضت على المرحوم والدي ابو حسين يوسف ابو سيف قطعة ارض في ساحة السير في قلب مدينة السويداء بسعر المتر ربع ليرة سورية فقط وكادت الصفقة أن تتم لولا أحداث ٦ آب السيئة الذكر، حيث اجتاحت المنطقة معتقدات ، لا أدري من روج لها ، أن القيامة سوف تقوم (ومعش بالوقت مهلي) . ومع أن والدي كان رجلا علمانيا ولم يصدق تلك الإشاعات ، إلا أنه لم يستطع الوقوف في وجه ذلك الطوفان من الانتقادات والكدّات من بعض أجاويد ذلك الزمن لمنعه من شراء تلك الأرض ، وخشي والدي أن يتهم بالكفر والارتداد ويقع عليه حرم الأجاويد.

وهكذا ألغيت الصفقة وظل أبي يكرر على مسامعنا ويقول : لو أنني اشتريت تلك الأرض لكنت من أغنى أغنياء مدينة السويداء ، ولا (بوسعدى ولابوعسلي ولاغيرهن كان معو مصاري أكثر مني) . وكنا دائما نواسيه ونقول له : لاتتحسر ياوالدي ، فالعمر محتوم والرزق مقسوم .

تسوّل

كان المعلم شحاذي يهم في الدخول إلى بيته بعد عمل يوم شاق أمضاه في المدرسة. كان العرق يتصبب منه وثيابه ملطخة بالطباشير من كل الألوان . وإذ أصبح على بوابة بيته جلس على حجر ليستريح. مد رجليه وتنفس الصعداء ومسح العرق عن جبينه ؛ فإذا بإمرأة متسولة مقبلة من بعيد تتجه صوبه. قالت بصوت خفيض : (من مال الله يامحسنين ، الله بيرد عنك وعن ولادك يا عم !).

نظر اليها بحسرة وقال : (وحياتك يا خالتي..هذي وصلتي من الشحاذي ، مثل ماعينك شايفي) .

صراع الأجيال

مش عارفي كيف بدي عيش
مع هلي قصت شاليش
من الجينز بتلبس شراتيح
وبتدخن بالأركيلي
قالتلي: بتفهمي بالطبخ؟
قلتلها: بلطش تلطيش
واصقالله عإيام الطرابيش
ولبس الفوطة والدامر
والعصبي والسواير
الكشكش داير داير
ومنكن يا بنات اليوم
فكري بيظلو حاير.

بو جهجاه

كان بو جهجاه رجلا وجيها مهيبا يحترمه كل رجال الضيعة. عريض المنكبين مفتول الشاربين يتمنطق بمسدسين على الجنبين إلى أن تحين ساعة النوم.

في إحدى ليالي الشتاء الباردة سمع طرقا قويا على الباب، واذ أسرع لفتحه، وجد جارته إم هلال تقف مرتجفة من شدة البرد. قالت: (خيي بوجهجاه بدي كلفك تقرضني كاسة متي. ،الدكاني مسكري) .

دخل بوجهجاه الى البيت مسرعا وعاد وبيده باكيتاً من المتي فارغا وقال لها معتذراً :

(ليكي يا إم هلال، شوفة عينك، مالقيت عنا متي، ولو موجود مابيغلى عليكي).

ردت إم هلال بعتب (روح يابو جهجاه دّور بالمطبخ، روح، مغارة الضبع بتخلاش من العظام) ،

الناطور

وناطور امضيّها صيكعة مسكين

لامرق نمس ولا زقزق العصفور

بعز الظهر

قلبو فقع من قلة الونس

تخمين..

مستني نسمي من الشمال

تفرفح قلب

تفتح أفق

من سبع سنين

صرلو مسَكّر و مسدود

مت قاعدا

ماذا اقول لرأتب المتقاعد

بضع من الآلاف لاتسد الرمق

لدواء ضغط وديسك رقبي

أم لمتمم أغذية وتكلس ركب؟

بالله عليك قل لي هل يكفي

ما تبقى لشراء باكيت متى

أو عنقود عنب؟

عيشة الفلاّح

ما اصعبها عيشة الفلاح

ولا يوم بينام مرتاح

يوم شحالي ويوم رشوش

ويوم عزالي ويوم انكوش

ويوم تعشيب ويوم ترطيب

وسقاية بالقطارة

ولم زبارة وفلاحة

عالعزاقة يا خسارة

وفوق التالي وتعب البال

بيجي الثعلب المكار

بياكل البيضة وقشرتها

خيبة

بالصدفة عثرت على دفتر مذكراته.

قرأت: أنجبنا البنين والبنات.

تخْرج الأولاد، تزوجوا ، رأينا الأحفاد.

قلّبت الصفحات . عدّت حتى المئة.

تلهفت.

هه ! ها هي نضالاته ، تنظيراته ، عناوين كتبه ودواوين أشعاره،

وهذه مغامراته مع رندة وملى وإلهام .

لعله تذكّرني عندما كنت أطبخ، أمسح وأكوي الغسيل؟

سقطت دمعة..

الصفحة مئتان وعشرون..الاخيرة .

"إلى ملهمتي س.أ .أكتب هذه المذكرات".

عروس من تحت الماء

في إحدى الدوائر الرسمية ذهبت لإتمام إحدى المعاملات التي تخصني. كان المكان يعجُّ بالمراجعين أمثالي . لم أجد كرسيا اجلس عليه . اتكأت على حافة النافذة أراقب رداءة المكان وقذارته وسوء تهويته . كانت الرطوبة ورائحة العفونة تنبعث من كل مكان ، والغبار ملتصق على المكاتب والرفوف والأدراج ، كما صنع العنكبوت شباكه الواهية فوق أفاريز الأبواب و النوافذ واتخذت الخنافس من زوايا الغرف مسكناً آمناً لها.

اما الأضابير فقد كانت ملقات على اسطح الخزن وقد قضمت حوافها الفئران ، والأوراق تبعثرت على الطاولات وفي الادراج وبين ارجل المارّة .

في خضّم هذه المعمعة كان هنالك رجلان يتحدثان عن عرس أُقيم في مدينة «إم الشراشيح» المذكورة . لم أستطع أن أسّدَ أذنيّ عما كان يدور بينهما ورغبتي في تقطيع الوقت جعلاني أتابع حديثهما .

قال الرجل الأول: هل سمعت عن العرس الذي أُقيم في مدينة إم الشراشيح ليلة أمس ؟

الرجل الثاني : لا لم أسمع. هات ماعندك ياهذا!

" لقد كلّف العرس عشرين مليونا عدّأ ونقدا " ، قال الرجل الأول . منها ماصُرف على ملابس العروس وشعرها ومكياجها وعلى الورود والتصوير والموسيقا والطرب والعشاء الفاخر. ومنها ماصرف على السيارات الفارهة والأضواء المبهرة

والمفرقعات . شيء لا عين رأت ولا أذن سمعت .

قال الرجل الأول : كيف يحدث هذا والناس جياع في مدينة إم الشراشيح ، أليس هذا عيباً وحراماً؟

لا، لا، ليس عيبا ولا حراما ، فالعروس ليست من بنات البشر بل حورية من حوريات البحر رآها الناس..

تخرج من تحت الماء

كبدر سقط من السماء

إلى لجين الماء ثم أنتفض

حورية بحر تتلوى

أذهلت الناظرين إليها

تشدو بصوتها وتقول

إنيّ أغرق..أغرق..أغرق.

الحسنة بعشرة أضعافها

يحكى أن رجلا فقيرا لايملك من الدنيا سوى بقرة حلوب تبيع زوجته إنتاجها وتشتري بثمنه طعاما لأولادها . كانت الزوجة تدللها وتعتني بها كأولادها .

في إحدى الأيام قال لزوجته : (يامرا ، أني نويت إتحسن بالبقرة للفقرا والمساكين لإنو قلنا الشيخ بالمجلس اذا بتعمل حسني الله بيبعثلك بدالها عشرة) .

صُعقت الزوجة لهذا الخبر وقالت : (يه، يه، شو عبتقول يازلمي ، ليكون، صار شي لعقلاتك. ومنين بنا نعيش إذا بعت البقرة ياذلّي ، سكوت، سكوت، معش تعيد هالحكي) .

قال الزوج : (أني قررت ومعش بتراجع عن قراري، وبدل البقرة الله بيبعثلنا عشرة).

لم تستطع الزوجة المسكينة أن تثنيه عن قراره وبكت بكاءً شديداً حزناً على بقرتها مصدر رزق العائلة.

ساق الفلاح البقرة إلى سوق الطرش وتحسّن بها إلى أحد الفقراء آملاً أن يرزقه الله بعشر من البقرات الحلابات وعاد إلى البيت صفر اليدين. أصبح يغادر البيت كل يوم منذ الصباح ويعود على موعد الغداء . يسأل زوجته : (يامرا ! مَرَقْ علينا شي عجال اليوم ؟) . وترد عليه بالقول: (لأ، يازلمي ما مرقش) . وبعد شهر وشهرين وسنة وسنتين يعيد عليها نفس السؤال : (مرق علينا شي عجال يامرا؟) . فترد عليه وتقول: (لايازلمي، مامرقش علينا لاعجل ولاعجّال!).

عجّال : عدد كبير من الأبقار

الزعيم

في إحدى الصباحات الجميلة من أيام نيسان ، مرت سيارة العم أبي سعيد من ثلاث قرى على التوالي تنقل راكباً من هنا وراكباً من هناك . كانت هي سيارة الجيب الوحيدة التي تعبر المقرن القبلي إلى وسط المدينة وتعيدهم إلى قراهم في المساء. ورغم أن السيارة كانت صغيرة إلا أن العم أبا سعيد كان يملؤها بالركاب مرغماً، ستة في الداخل وواحد بجانبه واربعة على السطح.

كان يضع كرسيين صغيرين أيضا بين المقاعد ليجلس عليها راكبان إضافيان عند الضرورة .

عندما توقفت السيارة في قرية الزعيم كانت قد امتلأت ولم يبق سوى مكان واحد في الخلف على الكرسي الصغيرة في الوسط. أشّر له العم أن يركب في الخلف لكون المقعد الأمامي قد أخذه الفلاح الفقير أبو سرحان. نظر الزعيم إلى الفلاح باشمئزاز لعله ينزل من مقعده ويجلس هو بجانب السائق في الأمام. لكن الفلاح الفقير لم يستوعب الموقف وظل جالساً مكانه مما اضطر الزعيم أن يركب في المقعد الخلفي . شعر بإهانة لاتوصف وكظم غيضه .

أنتفض في مقعده وقطب حاجبيه ورقّص شاربيه في وجهه وأمسك العم أبي سعيد من كتفه وصاح به : (وقّف هالسيارة لشوف، وقفها، الأمر ماعاد بينسكت عليه. شو بينقلّو بوسرحان ليركب قدام، هأ ؟ شو بينقلّو ؟ عالم ماعاد تستحي!) . وقّف العم ابي سعيد السيارة ونزل الركاب منها يحاولون تهدئة

الموقف.

سمع السيد أبي محمود الشجار الدائر على الطريق ونزل مهرولا من بيته المحاذي له محاولا فهم الموقف قال : (شو القصة ياجماعة ، خير انشالله) .

قال الزعيم : (أني بقعدش غير قدام ، وهلّي بدو يصير يصير . صحيح ماعدش حدا يعرف بالأصول!) .

حاول أبومحمود إقناع أبي سرحان بإخلاء المكان للزعيم لكنه لم يفعل (الشغلي كبرت براسو كثير وما عاد تزحزح من مطرحو) مما اضطر السائق أن يفسح مكانا للزعيم على شماله وبقي باب السيارة نصف مفتوح وكتف الزعيم خارج النافذة وعباءته الصفراء ترفرف من تحته .

عندما توقفت السيارة في وسط المدينة، مسّد الزعيم شاربيه وردَّ عباءته على كتفه وتنفس الصعداء ودفش الركاب إلى الخلف وبدأ يتبختر كالطاووس .عادت ملامح العنجهية والتكبر تغزو وجهه من جديد وبدأ ينظر إلى الشمال وإلى اليمين وفي عيون المارّة مؤكدا لهم أنه كان يركب (قدام حد الشوفير) وأن لا احد يمكن أن يأخذ مكانه خاصة الفلاح الفقير « أبو سرحان».

رحلتي إلى قرية "ولغا"

حدثنا احد أطباء الجلدية المشهورين عندما كنا نجري بعض الفحوصات الطبية قال :

عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري أرسلني والدي في مهمة إلى قرية «ولغا»في جبل العرب. استقليت الباص وتوجهت جنوبا مع مجموعة من الركاب إلى مدينة السويداء. ولكون الباص كان بطيئا فقد وصلنا عند مغيب الشمس . لم أكن أعرف قرية ولغا ولازرتها من قبل .كان عدد سكان السويداء في ذلك الوقت قليلاً وبيوتها متناثرة هنا وهناك مبنية من الحجر البازلتي الأسود وسطوحها مصنوعة من التراب. توقفت قليلاً حيث توقف الباص وتلفت يميناً وشمالاً علني أرى أي إشارة تدل على هذه القرية لكنني لم أعثر على أي دليل . رأيت رجلاً يركب حماراً قوياً ويحثه على السير باتجاه الغرب .

قلت في نفسي لماذا لا أسأله عن الطريق إلى القرية. ناديته على الفور وقلت : (هيه .. هيه! ،بحياتك ياعم ، بتعرف الطريق إلى قرية « ولغا»؟) . استدار الرجل ناحيتي وشدّ رسن حماره حتى يبطىء المسير وأجاب : (آ ، معلوم ، أني هلّي بعرفها، هذي قريتي وهرعني رايح عليها. تعال عمي، تعال! نطّ وراي على ظهر هالحمار نطّ) . تنفست الصعداء وحملت حقيبتي وحاولت الركوب على ظهر الحمار لكنني لم أُفلح وكدت ان أسقط على الأرض . قال لي الرجل : (مش هيك بيركبوا على ظهر الحمار، عمّي ، بدك تبعد شي عشر متار عنو وتتحمّى وتتزمّى ،وبتركض عا قدّ ما الله يعطيك وطّوح تطويح وراي، فهمت كيف عم؟) .

لم أفهم معنى كلمات، (تتحمى وتتزمى، هرعني ، بطوّح تطويح) . لكنني ابتعدت مسافة عشرة أمتار وركضت مسرعا وقفزت قفزة في الهواء وضعتني على ظهر الحمار. ضحك الرجل بأعلى صوته وقال: (عفاك عمي، عفاك ، كإنك كل عمرك تركب على ظهور الحمير مع إنك شامي قُحْ) . أثناء الطريق سألني عن اسمي واسم والدي وأقاربي وسبب مجيئي إلى هنا وكان بين الحين والآخر يردد بعض الأغاني الجبلية التي لم أفهم معانيها لكنها أطربتني. وصلنا إلى القرية بعد حوالي الساعة. كان الليل يرخي سدوله. طلبت منه ان يدلني على بيت الشيخ لكي أوصل له الأمانة. رفض طلبي وقال: (لا عمي، لا، ابيسواش معنا هيك، ابيسواش. بدك توصل لعنّأ بالأول ترتحلك شوي وتجابرنا بلقمة أكل. نحنا هيك عوايدنا بالجبل عمّي ، والضيف اسير المعزب على قول المثل) .

عندما وصلنا إلى بوابة الدار صاح الرجل مناديا زوجته: (يا إم محمود ، يا إم محمود، جاي معي ضيوف، قومي افتحيلنا المضافة) . (ياميت هلا وحيالله بالضيوف..اهلا وسهلا ومرحبا) ، ردت إم محمود من داخل المنزل. دخلنا إلى المضافة واسترحنا قليلاً على مايسمونها بالطواطي وشربنا القهوة المرّة . جلب لي العم أبي محمود إبريقاً نحاسياً مملوءاً بالماء الفاتر وطلب مني أن أغسل وجهي ويدي قبل تناول الطعام وصب الماء بنفسه من الإبريق إكراما لي. وما كدت ارتاح حتى دخلت إم محمود تحمل طبقا من القش عليه مقلاة من البيض المقلي بالسمن العربي وبجانبها اللبن الرائب والزيتون والدبس والزبدة وحولهم عدة أرغفة من الخبز الجبلي المخبوز على الصاج .(تفضل عالميسور ياضيف الرحمن وجيرة الله عن التافري) قال المعزّب .

لم أذق أشهى من ذلك الطعام في حياتي ولم أنس طعمه حتى الآن . اكلت واكلت

حتى الشبع وتحمدت ربي وشكرت معزبي على كرمه وحسن ضيافته لي . قال لي الرجل: (إسا صرنا منسمحلك تروح لعند الشيخ توصلو الامانة) . ورافقني إلى بيته. كانت الساعة تقارب العاشرة ليلا عندما وصلنا إلى بيت الشيخ . رحب بي الشيخ كثيرا بعد أن علم سبب مجيئي . ووجدت نفس الاهتمام والتكريم الذي كان من أبي محمود وعائلته . إستأذنت منه الذهاب إلى النوم بعد عناء يوم طويل. ارشدني إلى غرفة قريبة من المضافة واستودعني الله وتمنى لي نوما هنياً .

كانت الغرفة مطلية بكلس ناصع البياض ومزنرة بالنيل الازرق الحديث العهد ومسقوفة بالربد[1]. كانت تفوح من النافذة رائحة الحبق والنمنام الزكية. دغدغت روحي وجسمي نسيمات شمالية عليلة. نمت تلك الليلة على فراشين من الصوف تعلوهما مخدتان محشوتان بريش البرغل مغطتان بالمقصور الأبيض المطرز بأعمال يدوية ومزينين بالدانتيلا. وفوقهم لحاف شديد النظافة تفوح منه رائحة الصابون . لم انم في حياتي في فرشة أنظف منها ولاشممت رائحة أزكي من رائحتها.

بعد أن أنهى الطبيب قصته عن زيارته لقرية « ولغا» وهممنا بمغادرة العيادة، حاولنا أن نعطيه أجرة المعاينة لكنه رفض رفضاً قاطعاً أن يأخذ وودعنا إلى باب عيادته تقديرا منه لعادات أهل الجبل وكرمهم الزائد وحسن استقبالهم للضيف.

---

١) الربد: شرائح من الصخور كانت تستعمل لسقف السطوح قديما أو الارضيات.

للتعريف وإزالة الإلتباس

انا لست كاتبة

ولاشاعرة

ولا أديبة

ولا قصصية

إنما أنا، محبة لكل هؤلاء

وأنا في الحقيقة

فلاّحة بنت فلاّح

المشّاء[1]

من قرية الكفر الجميلة تصطحبه أمه إلى جزيرة أرواد لتلتحق بزوجها المساعد أول يوسف العامل في قلعتها الشهيرة. كان ذلك في النصف الثاني من القرن العشرين . لم يكن يوجد آنذاك قوارب أو مراكب تنقل الآتين إلى الجزيرة، لذلك اضطرت الأم أكابر أن تمتطي ظهر سباح محترف هي وابنها «عطاء» الصغير شاعرة بكثير من الخجل والإحراج .

تصل الأم إلى بيت زوجها وتستقر هنالك ويدخل عطاء المدرسة الابتدائية وهو في عمر الخمس سنوات. لم يكن يعي ما تعنيه المدرسة ولماذا عليه الذهاب إليها. وفي أول يوم له بها وبعد أن بدأ المعلم بشرح بعض المفاهيم الأساسية ، شعر عطاء بنعاس شديد وغطَّ في نوم عميق. رآه المعلم وأشفق عليه وتركه مستمتعا بالنوم حتى نهاية الدرس. اقترب منه وربت على كتفه وأيقظه بلطف بالغ وأعطاه ليمونة يوسف أفندي صفراء اللون وقشرها وطلب من عطاء أن يأكلها. فرح بالليمونة كثيرا واستطيب طعمها اللذيذ الذي يتذوقه لأول مرة في حياته. وفي حدسه الطفولي البريء أحسّ «عطاء» أن هذا المكان الذي اسمه مدرسة جميل وفيه معلّم كريم يُطعم الأولاد الليمون.

كانت بداية مشجعة وتصرف حكيم من قبل المعلم جعل عطاء يحب المدرسة. قال "عطاء" عندما كبر : لو أن معلمي في الصف الاول ضربني أو نهرني وأيقظني

المشّاء : كثير المشي .

من نومي، ربما تغيرت مسيرة حياتي كلها. لكن القدر كان طيبا معي .

يقضي" عطاء "عدة أعوام في مدرسة الجزيرة ويعود مع والديه إلى قريته الجميلة ويكمل المرحلة الابتدائية في مدرستها الوحيدة بتفوّق . يرسله والده إلى مدينة السويداء لإتمام المرحلة الإعدادية ثم الثانوية وهو في سن الحادية عشرة. شعر بالحزن الشديد عندما غادر القرية. كان أول يوم في الإعدادية أتعس يوم في حياته وبكى بكاءا مريرا وقال لزملائه في الغرفة المستأجرة سوف أعود إلى القرية، أريد أمي، أريد والدي وإخوتي. انا لا أستطيع العيش من دونهم، خذوني اليهم ارجوكم ، انا لا أريد دخول المدرسة! أرجوكم!

لم ينفعه البكاء والاستجداء بل كان عليه الاستمرار في المدرسة شاء ذلك أم أبى. كان هذا قرار والده الصارم الذي لامساومة فيه. ربما ساعده تفوقه وذكاؤه الشديد على تخطي الصعاب وتحمل آلام البعد عن الأهل. اتمّ دراسته الإعدادية بتفوق والثانوية بدرجة الأول على الجبل ومن العشرة الأوائل في سوريا . تم إيفاده مرتين، إلى الجامعة الامريكية في بيروت وبعدها إلى بريطانيا بعد أن أدى خدمة العلم ليعود إلى وطنه حاملا دكتوراه في هندسة المياه والمحيطات وامواج البحر ، اختصاص نادر في سوريا. يُعيّن أستاذا في جامعات القطر العربي السوري لمدة اربعة عشر عاما يسافر بعدها الى أبو ظبي ويعمل مستشارا في شركاتها العملاقة ويقضي نفس المدة هناك. يعود بعدها إلى قرية الكفر مسقط رأسه ليبحث عن ذكريات الطفولة الغابرة. يتمشى في زواريبها وأزقتها العتيقة. كانت تاخذه قدماه إلى ساحة (الحدافيّي) ، إلى القناطر الرومانية، إلى كنيسة البلدة القديمة. هنا كان دكان عمي سليم القضماني. آه ما اطيب القضامة الصفراء والمغبرة التي كنا نشتري من هذه الدكان! أين الغرابيل والكرابيل والقفف التي

كانت معبأة بالحمص والقضامي. إنه لا يرى الآن سوى اطلال دكان وباب حجري يفضي إلى العتمة وشبّاك مهدّم . وفي المساء كان يحمل البيل ويتابع المشي . هنا كنت ألعب بالمازات والكعاب مع اولاد الحارة. هذا هو بيتنا القديم الذي وُلدت فيه . يمشي ويمشي ولا يكلّ . عندها يتذكر صديق طفولته جمال ، يعرّج على بيته القديم الكائن في طرف الساحة. يستقبله جمال بالأحضان ويحدثه عن طفولته الضائعة ومغامرات صيد الضباع والافاعي والثعالب . يتناولا الشاي الساخن معا في ليلة شتوية عاصفة بجانب ببور الحطب الدافىء . ينام البرفيسور على أحاديث أبي نبيل الخرافية الساحرة ولايستيقظ إلا في ساعة متأخرة من الليل. يقول فيما بعد انها اطيب(نومي نمتها بحياتي) .

اما في الصباح الباكر ، كان يضع القبعة ذات الموديل الأوروبي على رأسه، ربما كانت هذه القبعة رمزا لتأثره بحضارة الغرب وثقافتهم وربما كانت تذكره بأيام بيروت ولندن وابوظبي.

يعود مجددا إلى المشي ثم المشي في الحرش المجاور للقرية والتأمل في الطبيعة الخلابة ثم يصعد إلى جبل القليب ويعود إلى كروم العنب والتفاح التي ورثها عن والده حيث أقسم له أن يحافظ عليها مادام على قيد الحياة.

لم تبهره الحضارة المادية. ترك السيارة ومشى على قدميه. لم يبن القصور والعمارات بل اعتكف في صومعته محاولا تعلم الرسم والعزف على القانونِّ وكتابة المسرحية وهو في سن السبعين مستلهماً طريقة المعلّم الفيلسوف كمال جنبلاط في التقشف والزهد والتأمل في هذا الكون الفسيح.

الفهرس

بطاقة شكر 5

إهداء 7

معركة الكفر ٢١ تموز ١٩٢٥ 9

لنتعلم من الآباء والأجداد 12

صحن اللبن بالطاقة ، لاهو جمل ولا هو ناقة 14

بو صطيف 16

سبحان من مغيّر الأحوال 17

بتكفيه هالنقزي! 19

أنت لست أنت 21

وليمة 23

نوم الهنا يامدلل 24

مطرح ماسرينا طلعلنا الضو 26

ذكريات 27

ذكريات 29

وضحة بنت عجلان والثعبان 31

الوهم القاتل 33

القهوي خصّ والدّور قصّ 35

أصعب إيّامي ، فطامي وطلوع سناني 38

وسام الأسرة 40

سجنٌ مؤبّد 41

مُحال 42

الشابّ عبّاس ومعلّمة اللغة الإنكليزيّة 43

الفردوس المفقود 44

محمود والكلب 45

غرور 46

قلبي على ابني 47

صورة أمّي 50

وللجمال سطوة لاتقهر 51

مغارة الضبع بتخلاش من العظام 52

مقالب عبد الباري 53

المجامشي 55

بيتها في سفح الجبل 57

ماعاد بترجع لتجيب وليّ أمرك 60

حظٌ سيّء 65

خلي الشوارب عالجنب!	66
لولا ماهن عميان!.	67
ضربة كفّ	70
من مذكرات «صالحة»	71
نحن والأسماء	73
طبيخك نجص ، بس قَلّي وكول	75
حسن صبي!	76
حفاة عراة	78
بورثعان	79
ناتف ومنتوف	80
أحلام مهدورة	82
كثرة غلبي	86
أشباح بلا أرواح	89
وين كنّا ... ووين صرنا	90
والله لأجرش برغلكم ... خشن ناعم حيّالله	93
بس يقرصك الجوع	96
حطّمت صنمي	98
سجن مؤبّد	99

قلق	100
يكاد المجرم أن يقول امسكوني	101
شَوقْ	104
من أنا؟	106
اجتماع مهمّ	107
قلّو: صاحيلك ، قلّو: واعيلك	108
من قصص الأطفال	109
حلم ذهب أدراج الرياح	110
حكمة اليوم	113
سخّرته مرّتين	114
انظر الشكل خمسة	116
طيّارة ... هيّارة	119
عمل نبيل	121
ذهب الحمار بأمّ عمر ... لا رجعت ولا رجع الحمار	124
موقف محرج	126
نعسان آغا	129
أين نظّارتي؟	131
فطنة مختار القرية	132

كان ياما كان 135
ربوط الدب ، بيهرب 137
سفر 139
علامة ؟ لا علامة..! 140
الحلم يصبح حقيقة 142
أفضل وأرخص حل 144
بيت من الشعر يصلح لّكل زمان ومكان 146
الأسير 147
عمي بو فارس (الضبع) 149
سلامتو 150
اللصّ الظريف 152
مصدر قلق 153
بتهرّ ولاد من عيونها 155
الرصد 157
تمييز عائليّ 159
اقتلاع الجذور 161
يمكنكن اشتقتولي! 164
فضول 169

سامر	171
الله لا يردّو!	173
الله يرحمك ياستّي!	176
غسّلولووو ، غسّلولوو!	180
تنذكر ، وماتنعاد	182
تصليح	185
حسنة مخفيّة	187
ستين قولة وِشت ولا كلمة ناولو	189
لصّ ظريف آخر	191
زوجه شهيد	193
حلم مستحيل	196
حمد	197
شيء من الذاكرة	200
«إمّ غطّاس»	204
طارت الفكرة	208
ميّل اشربلك كاسة شاي	210
شمّ ولا تذوق	213
فكرة لم تخطر على بال أحد	215

خدعة	217
ستين ليرة ... لستين سنة.ون كان!	220
فرحة ومرحة	223
الواعظ والنسوة	225
حكاية فأر	226
حكاية لم تكتب بعد	229
يلعن أبو الفقر	234
رأيت العجب وتملّكني الإعجاب	236
تواضع لا بعده ، ولا قبله	237
سوّد وجهنا هالتلفزيون	240
قلّي No ... قلتلّو Yes	241
معذّى والحمار	243
مش مهمّ	244
ارتحال إلى أعماق الكون	245
انعتاق	247
ذكرى مؤلمة جدّاً لم أستطع نسيانها حتّى الآن	248
قهر	249
أن شالله عمرهاماكانت هالقَّصة	251

يمكن سحبهن الفار (الفأر) 254

أهمية شيخ القرية في ماضي الزمان 257

كانوا بيقرقشوا 261

أمومة 263

قيمة الوقت 265

رسالة إلى المجرّات الكونيّة 266

لم يتغيّر شيء 267

شي بيضحك فعلاً 269

فّناء 271

مقابلة صحفيّة 272

ثقافة هتلريّة 273

من يفعل الخير لايعدم جوازيه 275

ذكريات الطفولة الجميلة 276

أنت معلّم 277

رحلة البحث عن لقمة العيش 278

مكدوس 282

اليوم هو 284

الضربة القاضية 285

جرح الوطن 286

ذكاء فطريّ 288

غليص 289

صدفة قلما تحدث 291

العمر متحوم والرزق مقسوم 292

تسوّل 293

صراع الأجيال 294

بو جهجاه 295

الناطور 296

مت قاعدا 297

عيشة الفلاّح 298

خيبة 299

عروس من تحت الماء 300

الحسنة بعشرة أضعافها 302

الزعيم 303

رحلتي إلى قرية «ولغا» 305

للتعريف وإزالة الإلتباس 308

المشّاء 309